أنور محمود زناتى

الطريق إلى صدام الحضارات



مكتبة الأنجلو المصرية

الطريق إلى صدام الحضارات

(مع دراسة لتاريخ الصراع فى العالم)

أنــور محمود زناتـــى

جامعة عين شمس



مكتبــة الأنجلــو المصريــة

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية ، إدارة الشئون الفنية .

زناتى ، أنور محمود

الطريق إلى صدام الحضارات (مع دراسة لتاريخ الصراع فى العالم) / أنور محمود زناتى . – ط١ . –

القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ٢٠٠٦ .

٢٥٣ ص ، ١٧× ٢٤ سم

١- العالم – تاريخ   أ- العنوان

رقم الإيداع : ١٤٤٠٣

ردمك : ١-٢٢٤٨-٠٥-٩٧٧   تصنيف ديوى : ٩٠٩

المطبعة : محمد عبد الكريم حسان

الناشر : مكتبة الانجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد

القاهرة – جمهورية مصر العربية

ت : ٣٩١٤٣٣٧ (٢٠٢) ؛ ف : ٣٩٥٧٦٤٣ (٢٠٢)

E-mail : angloebs@anglo-egyptian.com

Website : www.anglo-egyptian.com

الإهداء

إلى أستاذى العلامة الدكتور اسحق عبيد

العالم الإنسان

حب عميق

وإجلال أعمق

أنور زناتى

الفهرس

الفصل السابع

(أوربا عصر النهضة) ١٦٧-١٦٩

الفصل الثامن

(العصر الحديث) ١٧٣-١٩٥

الفصل التاسع

(القرن العشرين) ١٩٩-٢٢١

الفصل العاشر

(نهاية التاريخ) ٢٢٥-٢٤٦

مقدمة

(كلمة التاريخ)

إن الإشكالية التي يطرحها موضوع "صدام الحضارات" the clash of civilizations ليست جديدة، فهي مسألة تتدرج في حقيقة الأمر ضمن مرحلة معينة في مسار سياسات موغلة في القدم.

إن منطق الصراع والحرب[١] كان عبر كل الأزمنة هو المنطق السائد في الفكر العالمي والغربي بصفة خاصة، فسادة الفكر اليوم في علم العلاقات الدولية الذين تنفذ توجـيهاتهم على أرض الواقع في المؤسسات الغربية هم ورثة اتجاهات فكرية سادت عبر القرون ورسمت طريق الحرب والمؤامرة للقادة ومشعلي الحروب.

والعقـيدة البراجماتـية[٢] التـي لا يهمها في تفسير مفهوم الحقيقة إلا ما تعلق بسياســة الأمــر الواقع والمنفعة والمصلحة أولاً وقبل كل شيء –والتي تتميز بها السياســة الأمريكية– اليوم ما هي إلا تكييف عصري لمفهوم الغاية تبرر الوسيلة التي أوصى بها أصحاب مصنفات "فن الحرب".

مــن أمــثال نيكولاس ماكيافيللى[٣] (Nicholas Machiavel) الذي يقول: "إن الحرب هي الفن الوحيد الذي يحتاجه الأمراء"

أما فولتير (Voltaire) [٤] فيرى: "أن السلام مفهوم طوباوي[٥] "

١- الحرب War فى علم السياسة تعني: اعتداء منظم يقصد منه إجبار دولة أو جماعة على الخضوع لإرادة دولة أخرى .

٢- كـلمة البراجماتية في أصلها اللغوي مشتقة من كلمة يونانية تعني العمل النافع، أو المزاولة المجدية، ويصبح المقصود منها هـو "المذهب العملي" أو "المذهب النفعي" وهى مذهب فلسفى مؤسسه تشارلز ساندر بيرس "١٨٣٩-١٩١٤" وهى فلسفة عملية انبثقت من الروح المادية للقرن العشرين ... وهي امريكية النشأة، رأسمالية الاتجاه.

٣- ماكيافيلـلى (١٤٦٩- ١٥٢٧) فيلسوف إيطالى صاحب المقولة السياسية "الغاية تبرر الوسيلة" وكتابه الأشهر "الأمير" بـه النصائح الصريحة لكل حاكم أن يستخدم الخداع والغش والكذب والجراة للسيطرة على شعبه ويعد من مؤسسى الفكر السياسى الحديث.

٤- فرانسوا-ماري أرويه (١٦٩٤-١٧٧٨) عرف باسمه المستعار فولتير فيلسوف وصحفي فرنسي. أكد في مجمل فلسفته أنه لا يمكـن لـنا كأفـراد، أن تكون لنا حريات فردية أساسية كحرية التعبير، إذا لم نتمكن من التدليل والتوثيق على معتقداتنا الشخصـية. له مسرحية تدعي التعصب عام ١٧٤٢يتهم فيها الإسلام بخطف النساء لحملهن علي الإيمان ويشكك فيها عن حديث الرسول ص إلي جبريل عليه السلام وقد صودرت بعد عام بسبب تحفظ الكنيسة عليها وأخر إصدار في القرن ١٩.

٥- الطوباويـة من اليونانية u-topos، أي "ليس في أيّ مكان" – وهو التعبير الذي استخدمه بالمعنى نفسه توماس مور (في كتابه يوطوبيا: أو حول الدستور الأمثل للجمهورية، ١٥١٦) ليصف مدينة مثالية وخيالية في نفس الوقت.

وقد رأى روجر بيكون[٦] أن "العالم منقسم إلى كتلتين متصارعتين مؤمنون مسيحيون وهراطقة كفار لا يتميزون بأى طابع".

أما توما الإكوينى[٧] في كتابه "خلاصة اللاهوت" فيري ضرورة إخضاع غير المسيحيين بالقوة القاهرة لمنعهم من عرقلة الدين المسيحى فقال " إن عرقلة دين المسيح من جانب غير المؤمنين يجب منعها بالقوة " ونجد أنه عرف العرقلة هذه تعريفا واسعا بحيث أصبح الدفاع عن المسيحية طريق له طابع حربي وكان يستند إلي ازدراء الدين والآراء الشريرة وهما ما يبررا إشعال الحروب وعندما يتعلق الأمر بالكفار أياً كان الأمر فإن الكنيسة تملك الحق في إلغاء القانون البشري وشن الحرب عليهم!![٨] .

أما ريموند لول[٩] (١٢٣٥-١٣١٦م) فكان يري أن وجود المسلمين هو أعظم عقبة في طريق الوحدة السلمية وهم من يعترضون سبيل العالم ووجودهم خلل في بنيته وتجسيد للباطل في وجه الحقيقة وهم الظلم مجسد ويجب إبادتهم تماما.

ويري لول أن المسيحيين لا يمكنهم أن يسالموا أولئك الذين بمحض وجودهم يهددون وحدة الكون !! وإذا كان هناك سلام ضروري مع المسلمين هناك شرط مسبق وهو أنه يجب عليهم أن يتخلوا عن عدم إيمانهم بالمسيح ويعتنقوا المسيحية!.

٦- روجر بيكون Roger Bacon فيلسوف وعالم إنجليزى عاش في القرن ١٣ الميلادي. اهتم بالرياضيات والتجارب العلمية، ولذا فهو يعتبر من أكبر مؤسسي العلوم الحديثة. تلقى علومه الجامعية في باريس ثم درس في جامعاتها لمدة سبع سنوات غادر بعدها إلى جامعة اوكسفورد في إنجلترا. في عام ١٢٦٧ م كتب ثلاثة أعمال تهدف إلى إصلاح، كما اصدر كتابين النقد فيهما بشدة التعاليم الدينية والفلسفة.

٧- توما الإكويني (١٢٢٥- ١٢٧٤) فيلسوف إيطالى معروف صاحب كتاب الاعترافات الشهير ومن واضعى اسس الديانة الكاثوليكية ويطلق عليه الطبيب الملائكى وأمير المثقفين.

٨- لمزيد من التفاصيل أنظر توماش ماستناك: السلام الصليبى، ترجمة بشير السباعى، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، رقم ٦٢٠، ٢٠٠٣م.

٩- قضى لول تسع سنوات ١٢٦٦-١٢٧٥م في تعلم العربية ودراسة القرآن وقصد بابا روما وطالبه بإنشاء جامعات تدرس العربية لتخريج مستشرقين قادرين على محاربة الإسلام. ووافقه البابا. وفي مؤتمر فينا سنة ١٣١٢م تم إنشاء كراس للغة العربية في خمس جامعات أوربية هي: باريس، اكسفورد، وبولونيا بإيطاليا، وسلمنكا بأسبانيا، بالإضافة إلى جامعة البابوية في روما.

ويذكـــــر يوحنا من سالسبوري أن المهنـــه العادية لفرسان الهيكـــل المسيحية قـــد تمثلـــت في سفك الدم البشري وإحراز العنف المقدس مستوى عالياً من القبول العام.

أما بطرس المبجل Peter the Venerable (١٠٩٢-١١٥٦) [١٠].

رئـــيس ديـــر كلونيcluny [١١] فقد آتهم المسلمين بالعنف وأن نبيهم لم يعتمد علـــي العقل بل علي السلاح ومنذ ذلك الحين واتباعه إخلاصا منه لشريعته يخنقون الحوار بالسيوف والحجارة!!

وكـــان بـــرنار من كليرفو قبله مؤمن بأن الحرب الصليبية ضد المسلمين شيئاً سامياً وروحيا. كل تلك الأفكار تخدم مقولة محو الخطايا بدم الكفار.

وجـــاء المفكـــرون والعلمـــاء الأوروبيون في أواخر القرن التاسع عشر وفي النصـــف الأول مـــن القـــرن العشرين، فبلوروا فكرة الصراع conflict، وأقاموا نظرياتهم سواء في مجال العلوم البحتة أوفي حقل العلوم الإنسانية.

وقـــد ســـعى الفلاســـفة وعلماء اللاهوت عبر السنين لتفسير عدوانية الآدميين اعـــتمادا على تفسير طبيعة البشرية ووصف الفيلسوف الإنكليزي في القرن السابع عشـــر توماس هوبز (١٥٨٨م-١٦٧٩م) [١٢] في كتابه (لاوثيان) الأحوال المعيشية في حالة الطبيعة يعني في المجتمعات البدائية قبل ظهور الحكومات (كحرب يشنها كل آدمي ضد الآدمي الآخر) ولقد انبثق الصراع المستمر تماشيا مع ما قاله هوبز مـــن طبيعة البشرية فالبشر مشغولون بأنفسهم وأنانيون وطامعون ولا يهتمون بغير إشـــباع شـــهواتهم فـــالدافع الأساسي للإنسان هو الكسب الشخصي والمجد ولاحظ

١٠- بطرس المبجل: فرنسي من الرهبانية البندكتية، رئيس دير كلوني، قام بتشكيل جماعة من المترجمين للحصول أكبر قدر من المعـــرفة عـــن الإســـلام. وقد كان هو ذاته وراء أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية ١١٤٣م التي قام بها الإنكليزي روبرت أوف كيتون R.of Ketton.

١١- سامي سالم الحاج: نقد الخطاب الاستشراقي، ج١، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٤٣ ،أما دير كلوني فقد تم تأسيســـه في مـــنطقة اللوار في فرنسا من قبل الرهبنة البندكتية، واطلقت منه حركة اصلاح دينية رهبانية امتدت في القرن الحادي عشر والثاني عشر الي كل المسيحية الأوروبية.

١٢- ولـــد تومـــاس هوبز في إنجلترا عام ١٥٨٨ ودخل أكسفورد وهو في الخامسة عشرة، واتضحت معالم فلسفة هوبز عام ١٦٤٠ خـــلال نشـــره كتاب (مبادئ القانون الطبيعي السياسي)، بعدها بعشر سنوات نشر هوبز كتاب (لاوثيان) أو المجتمع الكنيسي والمولي مادته وصورةً وسلطةً تأثرت فلسفة هوبز بالثورة البرجوازية في القرن السابع عشر، فمن خلالها يـــرى البعض إن هوبز فيلسوفاً مادياً إنكليزياً. فضلاً عن ذلك كان هوبز معلماً للملك شارل الأول، وقد دافع في كتابه المشار إليه (لاوثيان) عن الحكم المطلق وكان يؤيد بذلك حكم آل ستيوارت في إنجلترا .

القديس أوغسطين[١٣] أيضا القدرة الفائقة للإنسان علي الحاق الأذى بالآخرين والاعتداء عليهم وبدأ هذا الميل للشر لأوغسطين في حاجه في تفسير لاهوتي يعني إرجاعه للخطيئة الأزلية إذ ترتبط الطبيعة العدوانية للإنسان ارتباطا مباشراً بالسقطه من عناية المشيئة الإلهية في جنة عدن وجاء الفيلسوف الهولندي اسبينيوزا في القرن السابع عشر بقول تضمن القول بوجود صراع هائل داخل الإنسان بين قوي الهوي والقوي العاقلة ومن سوء الطالع أن الهوي غالباً ما ينتصر علي العقل.

ولاحظ علماء النفس أن القتال والحرب يشبعان احتياجات ممتدة الجذور عند الأفراد والمجتمعات وأنها احتياجات من المفروض أنها فطرية عند البشر وليس بالإمكان قمع هذا الدافع العدوانى ولكن بالاستطاعة ترويضه وإعادة توجيهه وتحويله صوب أنشطة أكثر اتساما بالمسالمة.

واعتقد سيجموند فرويد[١٤] أيضا بنبوع السلوك العدوانى للبشر من دوافع لا شعورية بعيدة الغور في النفس الإنسانية والحق أن العدوان يبدو كأنه صفة سلوكية عند جميع الآدميين ورأى أن فرويد أن تفسير مثل هذا العدوان قد يكون مرتبطا بوجود غريزة الحياة في الإنسان وهي الغريزة التي تسعى للحفاظ علي البشرية وتحقيق وحدتها وهناك أيضا غريزة الموت ويفترض أن غريزة الموت تهدف إلى إزالة كل توتر وإثارة انتباه الفرد وتتركز هذه الغريزة الخاصة بالموت في أعماق الإنسان وعندما تسيطر علي نفوسنا فإن ما يتمخض عن ذلك هو الانتحار.

١٣- القديس أوغسطين عالم لاهوت في الكنيسة اللاتينية. وقد ولد في تاغست (سوق اهراس في الجزائر حالياً) سنة ٣٥٤م وتوفي في هيبون (إيطاليا) سنة ٤٣٠م. تبع هواه في مرحلة شبابه الصاخب في قرطاج، واعتنق المانوية: ثم ارتدّ بتأثير من امّه مونيكا والقديس امبروسيوس، وتحوّل إلى اللاهوت فصار اسقفاً في مدينة هيبون سنة ٣٩٦م وحارب المانوية القائلة بمبدأين: مبدأ الخير ومبدأ الشر، النور والظلام، كما حارب البيلاجيوسية) نظرية الراهب بيلاجيوس في القرن الرابع والذي انكر الخطيئة الأصلية وقال بحرية الإرادة التامة، وكذلك الدوناتية (بدعة دونا، وهو اسقف قرطاج في القرن الرابع الميلادي، وقد أدى إلى انقسام الكنيسة في شمال أفريقيا). حاول القديس اوغسطين التوفيق بين العقل والإيمان وجمع بين الأدب واللاهوت والفلسفة فترك تأثيراً واسعاً في علم اللاهوت الغربي وأثرى الأدب اللاتيني. وترك مؤلفات منها: "في النعمة" و"مدينة الله" و"الاعترافات". وضع القديس اوغسطين اعترافاته حوالي العام ٤٠٠م وهي تقدم لوحة للحياة كما كانت في نهاية القرن الرابع وتعطي فكرة عن الصراعات الروحية. بين الشك والإيمان والتي حركت ذلك القرن بالخصوص.

١٤- سيجموند فرويد (١٨٥٦-١٩٣٥) عالم نمساوى شهير مؤسس علم التحليل النفسى PSYCHOANALYSIS حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة فيينا ١٨٨١ واضطره الحكم النازى الهتلرى على ترك النمسا ١٩٣٨ فعاش فى لندن وتوفى بها ١٩٣٩.

ويرى فرويد أنه من الواجب ليس فقط انطلاق العدوان علي نحو أو آخر ولكن يتعين أن يجني الإنسان قدر من الإشباع من هذا الانطلاق. وبعبارة أخري يحتاج الإنسان إلى إشباع هذه الدوافع العدوانية.

وفي القرن العشرين نجد آرون (Aron) يقول: "إن الحرب هي عمل عنيف يسمح لنا بفرض إرادتنا على الخصم" ويقول "لقد بحثت في ما يشكل خصوصية العلاقات الدولية ويبدو لي أنني لمست ذلك في شرعية استعمال القوة وهانس مورجانثو (Hans Morganthau) الذي يمثل رمزا بارزا للبراجماتية الأمريكية في مجال العلاقات الخارجية يقول بدون مواربة "إن السياسة الخارجية ليست إلا صراعا من أجل امتلاك القوة، وغلبت فكرة الصراع على الفكر الأوروبي في جميع المراحل التي مرّ بها، وأدت الشعوب الأوروبية ثمناً فادحاً لهذه الغلبة القسرية، حيث عانت أشدَّ المعاناة من الحروب الأهلية فيما بينها، كانت آخرها الحرب العالمية الثانية التي أضرمت شرارتَها عقيدةٌ عنصرية ونزعةٌ استبدادية اصطبغتا بصبغة الصراع القانية.

ويذكر محمد كرد على أن: "لوبون وميشو ورامبو وسنيوبوس وبتي يؤكدون أن الحروب عادت علي الغرب بخيرات لا تحصي، ولو لم يكن منها غير تحطيم قيود التعصب الكنسي وما رآه الصليبيون عياناً من تسامح المسلمين لكفي في فائدتها وانتشرت التجارة بعد الحروب الصليبية وأخذت أوروبا عن العرب عادات الفضيلة والمدنية"(١٥) .

والمدرسة الواقعية تذهب مذهباً مؤيداً لذلك حين تستنتج أن الصراع الدولي هو القاعدة التاريخية التي تحكم العلاقات الدولية، أما الاستقرار أو السلام فهو الظاهرة العرضية في التاريخ الإنساني.

إن هذه الظاهرة ليست جديدة على التاريخ الأوروبى إذن، بل هى جزء من حركته المتعددة الاتجاهات والمضامين والتاريخ مملوء بالنماذج الكثيرة من الصراعات الكبرى عبر التاريخ والمسئول الأكبر فيها هو الغرب الأوربى.

ويرى البعض أن القانون الذي اتخذته الحضارة الغربية لحكم الصراع، هو قانون كراهية الآخر... ويستشهد هنتنجتون نفسه بما ورد في رواية (ديبون)

١٥- محمد كرد علي: بين المدنية العربية والأوربية"سلسلة الألف كتاب الثاني"،الهيئة المصرية العامة للكتاب،٢٠٠٢، ص١١٤.

البحـيرة الميـتة. بـالقول (لا يمكن أن يكون هنالك أصدقاء حقيقيون دون أعداء حقيقيين. إن لم نكره ما ليس نحن فلن يمكننا أن نحب ما هو نحن) [١٦] .

وفـي الوقـت الحالـي نجد الحضارة المحددة المعالم هي الحضارة الغربية. وذلك أننا حين نتحدث عن الحضارة الغربية وهناك عدة دول قائمة تتمثل فيها هذه الحضـارة: فهنالك دول أوروبا الغربية، والولايات المتحدة، وكندا، واستراليا يجمع بيـن هـذه الـدول كونهـا كلها ذات نظام سياسي واحد هو الديمقراطية الليبرالية العلمانـية، وأن بينها علاقات وتعاون، وأن لها تاريخاً واحداً مشتركاً. بل إن هذه الدول لتشترك شعوبها حتى في أزياء رجالها ونسائها، وفي كثير من أذواقها الأدبية والفنـية. هذه الدول في مجموعها هي أقوى دول العالم اقتصاداً، وسلاحاً، وتأثيراً إعلامياً. وحضارتها هذه هي الحضارة الغالبة المهيمنة على العالم اليوم.

إن مشـكلتناهي أن الحضارة الغربية ليست راضية حتي بالقليل الذي تبقى لنا من الحضارة الإسلامية، بل تريد لنا ولغيرنا أن لا نكون عقبة في طريق مصالحها القيمـية أو الماديـة، بل أن نكون تابعين في كل ذلك لها. والحضارة الغربية ذات حساسـية بالغة من أية بادرة بعث لتلك الحضارة لسبب تاريخي وهو أن قادة الفكر الغربي لا ينسون، كما أن كثيرين منا لا ينسون، أن الحضارة الإسلامية كانت هي الحضارة العالمية حتى القرن السابع عشر الميلادي. استمع إلى المستشرق اليهودي برنارد لويس وهو يقول:

"ظل الإسلام لقرون طويلة أعظم حضارة على وجه الأرض وأغنى حضارة، وأقواهـا، وأكثرها إبداعا في كل حقل ذي بال من حقول الجهد البشري عسكرها، أسـاتذتها وتجارهـا كـانوا يـتقدمون في موقع أمامي في آسيا وأفريقيا وأوروبا، لـيحملوا ما رأوه من الحضارة والدين للكفار البرابرة الذين كانوا يعيشون خارج حدود العالم الإسلامي".

ثـم تغير كل شيء مشاعر الإحباط والغضب لما عدوه مخالفا للقانون الطبيعي والشرعي ظلت تتنامى لمدة قرون، ووصلا قمتهما في أيامنا.

فقـادة الحضـارة الغربـية يخشون على حضارتهم من كل بادرة إحياء لتلك الحضارة التي كانت سائدة. ومما يزيد من خوفهم قول المختصين منهم في التاريخ

١٦- صـامويل هنتنجتون – صدام الحضارات (إعادة صنع النظام العالمي) – ترجمة طلعت الشايب منشورات – سطور – مصر – ١٩٩٨، ص ٢٤.

الإســلامي، إن للإســلام مقــدرة عجيــبة علــى العودة كلما هُزم. فالتصادم بين الحضــارات يتم إعداده في كواليس السياسة الغربية علي يد ساسه وقواد ومفكرين وفلاسفة، وببساطة يوجهون الاتهام للإسلام والمسلمين ثم نصدق نحن ذلك ووجدنا من بيننا من يروج لأفكارهم تلك.

والعجيــب أن الغــرب بكل ما أوتى من تكبر وتجبر وعنف دموى على مدار تاريخه نجده يصف المسلم بأنه "الإنسان الذى لا إنسانية فيه"(١٧) كما قال بذلك وليم جلادستون(١٨) .

ويقــول لوفنــيان فــى كــتابه التبشير والاستعمار وهو يقوم بنوع من أنواع الإســقاط(١٩) Projection "إن تــاريخ الإســلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدماء والحروب والمذابح"!!

ولكــن يرد على تلك الافتراءات من بنى جنسهم اللورد المنصف هدلى(٢٠) فى كتابه المثل الأعلى في الأنبياء قائلاً:

"إن مدبجــي وناسجي هذه الافتراءات لم يتعلموا حتى أول مبادئ دينهم، وإلا لما استطاعوا أن ينشروا في جميع أنحاء العالم تقارير معروفه لديهم أنها محض كذب واختلاق".

والغــرب لا يــزال ينظر إلى نفسه باعتباره الجنس الأبيض المتميز وأن بقية الشــعوب فريســة مســتباحة له وبات يخشي مسيرة التاريخ بعد أن بدأت الشعوب المستضعفه تحتل مكانتها علي الساحة العالمية ويحاول الغرب بما يمارسه من قوة وغطرسة وما يروجه من فكر أن يواصل إحكام قبضته علي فكر وعقل وعمل هذه الشعوب.

وتــاريخ أوروبــا زاخر بالحروب والمجازر مليء بالصراع المسلح والدماء الســائلة مفعم بأعمال العنف والتخريب وهو تاريخ يكشف إلى حد كبير عن عقليه تؤمــن بسياســة العنف وتنفر من سياسة السلام والمحبة بين الشعوب ولا تعتقد إلا

١٧- شوقى أبو خليل: الإسقاط فى مناهج المستشرقين والمبشرين، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت١٩٩٥، ص٩.

١٨- وليم جلادستون (١٨٠٩ – ١٨٩٨) سياسى بريطانى شهير ولد فى ليفربول، زعيم حزب الأحرار.

١٩- الإسقاط Projection: حيلة لا شعورية تتلخص فى أن ينسب الشخص عيوبه ونقائصه إلى غيره من الناس.

٢٠- اللورد هدلي: Lord Hedly "ت ١٩٣٥" تخرج في جامعة كمبريدج وعمل بالتعليم والصحافة، أعلن إسلامه وعمل على نشر الإسلام، له: مقدمة لكتاب المثل الأعلى في الأنبياء لخوجة كمال الدين.

بسياســة القوة كوسيلة لحل المشاكل الدولية، على عكس ما يدعوه تماماً، والأحداث الواقعــة خير شاهد، ويرى فريدريك ليست[٢١] "أن القوة أكثر أهمية من الثروة لأن الضعف يؤدى إلى فقدان الثروة" مما يؤكد على أن النظرة المادية دون غيرها هى التى لها الكلمة العليا فى علم العلاقات الدولية، ولو جاء أسامة بن لادن نفسه وأعلن اســتثماره لمليارات الدولارات فى الغرب فى مجالات السياحة أو ما شابه لأصبح فــى نظــرهم حــامى حمى الديمقراطيات فى العالم الغربى والشرقى بل والشمالى الجنوبى أيضاً!! فهى ازدواجية اتسم بها الغرب بصورة فجه بل وقبيحة.

ومن الواضح أن أوروبا في تاريخها الحديث لم تنجح في حل أمر من أمورها المحلــية أو الدولــية عن طريق المفاوضة أو التفاهم السلمي أو المناقشة المنطقية وإنمــا لجــأت طوال هذا التاريخ إلى صراع مسلح عنيف دام بين الدول الأمريكية نفسها أو بين الدول الأوروبية وبقية العالم فهل من مزيد؟!!.

٢١- فريدريك ليست (١٧٨٩-١٨٤٦) اقتصادى ألمانى ينسب إليه أنه أول من وضع فكرة الضرائب.



الفصل الأول

الطريق إلى صدام الحضارات

الفصل الأول
الطريق إلى صدام الحضارات

ضمير الكافر له حرمته أما حياته فلا !!
القديس توما الاكويني

إن مفهـوم "الصـراع" conflict، هو أحد أبرز المفاهيم المتداولة التي طفت علـى سـطح الـنقاش المحتدم بعد انتهاء الحرب الباردة، وتفكك مفاصل الخصم التاريخـي لليبرالـية الديمقراطـية، ومنذ تمادي حمى التبشير بنهاية التاريخ، وفقاً لأطروحة فرانسيس فوكوياما[1] ، إثر "استبعاث" أطروحة الصدام الاستراتيجي بين الحضـارات، وحروب المستقبل على يد صمويل هنتنجتون. الذى يرى أن الصدام بين "الحضارات" نتيجة حتمية.

وهناك مقولة مفادها أنه:

(عـندما يوجـد فرد يسود السلام وعند وجود اثنين ينشأ الصراع وعند وجود أكثر تبدأ التحالفات).

هـذه الحكمة تشير إلى القانون التاريخي الذي يحكم حياتنا بشكل عام، وسواء تعلق الأمر بالمجتمعات الوطنية أو على المستوى الدولي فقانون الصراع هو الذي يحكم الكون[2] .

ومهمـا كـان شكل الوحدة الإنسانية، أسرة، قبيلة، أمة فإنها محكومة بقانون الصراع تلك قاعدة تاريخية... لا تحتاج إلي إثباتات مجهدة.

إن حيـاة الإنسان محكومة بصراعه مع قـوى الطبيعة ومـع أمثاله أيضـاً،

١- فرانسيس فوكوياما كاتب ومفكر أمريكي الجنسية من أصول يابانية ولد في مدينة شيكاغو الأمريكية عام ١٩٥٢م من كتـبه كـتاب (نهاية التاريخ والإنسان الأخير) و(الانهيار أو التصدع العظيم). عمل بوظائف عديدة أكسبته الكثير من الخـبرة والثقافة، فقد عمل مستشارا في وزارة الخارجية الأمريكية كما عمل بالتدريس الجامعي. أفكاره قريبة من أفكار تـيار المحـافظين الجـدد وفكرة هيمنة أمريكا على العالم في القرن الجديد، في نفس الوقت يحذر ويؤشر إلى أمور نهايتها خطيرة وتشاؤمية. كان أحد مطالبي حكومة بيل كلنتون إلى قلب نظام صدام حسين إلا أنه لم تعجبه طريقة تنفيذ جورج بوش الابن في غزو العراق فقد دعا إلى وجوب استقالة وزير الدفاع دونالد رامسفيلد.

٢- إبراهيم أبو خزام، علاقة الحضارات، مجلة دراسات، العدد ٢٠، لسنة ٢٠٠٥.

(فروبنســون كــروزو)[٣] في جزيرته المعزولة احترف الصراع مع قوى الطبيعة رغم عزلته المؤلمة.

وإذا أردنــا للحديــث عن صدام الحضارات the clash of civilizations أن يكــون حديثا تبنى عليه مواقف فكرية وعملية ينبغي النظر في جذور ذلك الصراع وخلفيته الإيديولوجية[٤] .

يــرى الكثير من مفكرى الغرب أن الصراع ظاهرة طبيعية في حياة الإنسان وفي حياة المؤسسات جميعاً فبدءاً من الأسرة وإلى مستوى الإنسانية مروراً بالقبيلة والدولة والأمة فإن قانون الصراع هو ما يحكم المؤسسات جميعاً.

غير أن أشكال الصراع ليست واحدة في هذه المؤسسات كما أن نتائجه مختلفة فهــو يتدرج في شدته فيبدأ صراعاً ناعماً في مستوى الأسرة ويصل ذروته على مستوى الإنسانية فقد يصل إلى حد الحروب والصدام.

فالحضــارة الغربــية التــي يصــفها الفيلسوف الألماني (ألبرت أشفيتر) بأنها حضــارة (شــائبة) تجردت من المفهوم الأخلاقي حسب رأي الفيلسوف نفسه، فقد كتــب يقــول: (نحن نعيش اليوم في ظل انهيار الحضارة، وهذا الواقع ليس نتيجة الحرب؛ إنما الحرب مجرد مظهر من مظاهره. ولقد تجمد الجو الروحي في وقائع فعلــية ينعكس أثرها عليها انعكاساً له نتائج مدمرة من ناحية. وهذا التفاعل بين ما هــو مادي وما هو روحي قد اتخذ طابعا مضراً كل الإضرار. إننا أبحرنا بالسفينة في تيار مليء بالأمواج العاتية تحت شلال هائل، ولابد من مجهودات جبارة لإنقاذ الســفينة، سفينة مصيرنا، من المجرى الجانبي الخطير الذي سمحنا لها بالانطلاق فيه، ومن إعادتها إلى المجرى الرئيسي إن كان ثم أمل في ذلك أبدا)[٥] .

٣- أشهر الروايات العالمية كتبها دانيال ديفو وهي حكاية رجل عاش وحيداً في إحدى الجزر النائية، فبنى له بيتاً صغيراً من أغصــان الأشجار وصنع زورقاً من أحد الجذوع الكبيرة وعاش بعيداً عن بني البشر، لا يؤنسه أحد غير حيوانات الغابة المتوحشــة حيث ألفته تلك الوحوش حتى صار واحداً منها.. يرعى معها وينتقل من مكان إلى آخر من دون أن تفرّ منه أو تخشــاه ويقال أنه اقتبسها من رواية (حي بن يقظان) للفيلسوف العربي الشهير ابن طفيل الذي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي.

٤- آيديولوجــيا Ideology هــي مجموعة من الآراء والمعتقدات وأساليب التفكير المميزة لمجموعة معينة من الأفراد كالأمة والطبقة والطائفة وأرباب المهنة المعينة والفرقة الدينية والحزب السياسي وما يشبه ذلك.

٥- إبراهيم أبو خزام، المرجع السابق.

فدعاة الحرية في الغرب هم الذين يروجون لنظرية صدام الحضارات وهذا من أوضح الدلائل على سعي الحضارة الغربية المعاصرة إلى إفناء الجنس البشري وتدميره وانحداره، وقد سعي الغرب للصراع المسلح مع كافة شعوب الأرض وإلغاء المبادئ الإنسانية وتبرير الإفساد في الأرض بالقتل والوحشية والدمار الذي تتسبب به الدول الغربية في أصقاع العالم، فمن استنزاف لخيرات وثروات البلدان المتخلفة تقنياً إلى استعباد شعوبها والاستهانة بدمائها وإثارة الاضطرابات في كل مكان لأهداف سياسية واقتصادية دون مبالاة بسفك دماء الأبرياء والاعتداء على كرامتهم وإنسانيتهم فمن الذي أشعل الحروب الصليبية قديماً ومن أشعل الحروب العظمي الأولي والثانية وغيرها وهو ما سنتناوله عبر تلك الدراسة.

وهناك تساؤل نطرحه أولاً: ما الحضارات التي يقال أنها تتصارع الآن؟ لكي نجيب عن هذا السؤال يحسن أن نتفق على ما نعنيه بكلمة الحضارة؟

الحضارة civilization :

لقد انحرفنا عن مجرى الحضارة لأننا لم نقم بالتفكير الجدي في معنى الحضارة.

صمويل هنتنجتون

كان أول من حاول تعريف الحضارة تعريفاً علمياً فى العصر الحديث هو العالم الألمانى جوستاف كالم فعرفها كالآتى "هى العادات والمعلومات والمهارات والحياة العامة والخاصة فى السلم والحرب والدين والعلم والفن وتتمثل فى نقل تجارب الماضى للجيل الجديد"(٦) .

والحضارة مكونة من جوهر ومظهر. أما الجوهر فهو معتقداتها وقيمها وأنماط السلوك الشائعة فيها، وأما مظهرها فهو إنجازاتها المادية من قوة عسكرية واقتصادية، ونظم سياسية وعمران.

والحضارة بهذا المعنى مفهوم محايد، لا يدل بنفسه على مدح أو ذم.

٦- كلايد كلوكهون: الإنسان في المرآة، ترجمة شاكر مصطفى سليم، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بغداد، نيويورك ١٩٦٤، ص ٧١.

وهناك تعريف آخر للحضارة وهو الإنتاج الفكري والمادي والسلوك العام لمجموعة معينة من الناس في حقبة زمنية معينة. ويشمل الإنتاج الفكري كافة النشاطات العلمية والأدبية والفلسفية بينما يشمل المادي إنشاء البنى التحتية والفوقية والثراء المادي للفرد والمجتمع، أما السلوك العام فيمثل العادات والتقاليد والقيم الفكرية والأخلاقية والمفاهيم الاجتماعية للمجتمع والسلطة الحاكمة لهذا المجتمع. ويستنتج من التعريف السابق ضرورة وجود مصادر مادية وفكرية لتكوين وبناء الحضارة في بلد ما. بالنسبة للمصادر المادية تمثل الثروات الطبيعية كالماء بكافة أشكاله الطبيعية والنفط والمعادن والتربة الصالحة للزراعة بالإضافة للقوى البشرية الضرورية لاستثمار تلك الثروات في إنشاء البنى التحتية والفوقية وفي التبادل التجاري. أما المصادر الفكرية فيمثل الدين والفلسفة والعلوم التجريبية والترجمة أهمها بالإضافة - بالطبع - إلى العقول البشرية اللازمة لحفظ وتطوير ونشر تلك المصادر في المجتمع وفي المجتمعات المجاورة.

والحضارة في نظر صمويل هنتجتون هي كيانات ثقافية وسوف يكون لها أهمية زائدة باطراد في النزاعات الراهنة والمقبلة فالحضارة هي أرقي تجمع ثقافي لشعب ما وأوسع مستوي للهوية الثقافية والتي يتميز بها البشر وتميزهم عن غيرهم من الأنواع ويتحدد معناها علي أساس كل من عناصر موضوعية مثل اللغة والتاريخ والدين والأعراف والمؤسسات أو علي أساس التعريف الذاتي بالنفس ويعتقد هنتجتون أن الحضارة الغربية هي الحضارة الكونية بينما غيرها حضارات إقليمية[٧] .

وقد عرفت البشرية على مر تاريخها الطويل الذي يقدر بملايين السنين أشكالا مختلفة من الحضارة، لكن كانت هنالك محطات رئيسية ومفصلية في مسيرة قطارها حيث أحدثت تلك المحطات تغييرات جذرية في الحضارة الإنسانية وأعطتها دفعات كبيرة إلى الأمام كماً ونوعاً. أهم هذه المحطات هي: "اكتشاف النار"، "اكتشاف وتصنيع أدوات الصيد"، "اكتشاف الزراعة والري"، "اكتشاف العجلة"، "إكتشاف الكتابة" وتطور أدواتها وأسلوبها، "اكتشاف الرقم صفر" والكشوفات الرياضية والفيزيائية والكيميائية الأخرى، والكشوفات الجغرافية والفلكية الكبرى، الثورة الفكرية فالصناعية وأخيراً–وليس أخراً – "المعلوماتية".

٧- أنظر صامويل هنتنجتون – صدام الحضارات (إعادة صنع النظام العالمي) – ترجمة طلعت الشايب منشورات – سطور – مصر – ١٩٩٨.

وهذا غيض من فيض من فترات حاسمة أعطت للنتاج الحضاري الإنساني دفعات كبيرة للأمام، وبنظرة سريعة وشاملة لسلّم تطوّر الحضارة نلاحظ أنّ شعوباً وأمماً عدّة ساهمت في صنعها وأدلت بدلوها فيها بغضّ النظر عن انتمائها الجغرافي أو العرقي أو الطائفي.

ولذلك يقول هنتنجتون لقد انحرفنا عن مجرى الحضارة لأننا لم نقم بالتفكير الجدي في معنى الحضارة(٨) .

وقال بول فاليري في هذا الصدد: "نحن الحضارات نعلم أننا نتعرض للموت".

وتاريخ الصراع الفكري بين الغرب والإسلام وخصوصًا في العصر الحديث يوضح أن الغرب قدّم عدة مصطلحات ولدت في بيئته، وتحمل معاني ومفاهيم خاصة بالغربيين ولها خلفية تاريخية لديهم قدموها إلى المسلمين لتسقط على بعض جوانب حياتهم، مع البون الشاسع بين الدين والدين، وبين التاريخ والتاريخ، وبين الظروف والظروف، ولعل من الأمثلة الواضحة على ذلك مصطلحات مثل: الأصولية Fundamentalism، والرجعية الخ.

فكل هذه المصطلحات ترمز إلى مذهب أو حالة معينة، ولكن يأبى الغربيون إلا أن تنقل هذه المصطلحات إلى المسلمين؛ لأسباب تتعلق بفرض الهيمنة وترسيخ الاستعمار، وفتح أبواب الغزو الفكري، ومحاربة الأفكار المقابلة.

إن الخلفية التاريخية الموجودة في أذهان الغربيين تجعلهم إذا سمعوا عن الأصولية (Fundamentalism) تمتلئ أذهانهم رعباً ونفره بسبب المعاملات الهمجية التي اقترفها إخوانهم النصارى باسم الدين حيث حوربت الإنسانية والتقدم العلمي والتطور، فاختيار هذا المصطلح وإسقاطه على المسلمين أو على طائفة منهم لا يخلو من غرض.

إن المقارنة المتأنية لكل مفردات هذا المصطلح بين تاريخنا العربي الإسلامي، وبين التاريخ الأوروبي لكفيلة بإظهار مدى تهافت استعمال هذا المصطلح في واقعنا العربي.

لقد تفجرت الحضارة الإسلامية، وأبدعت منطلقة من تلك الروح التي أوجدها دين الإسلام، في حين ولدت الحضارة الأوروبية الحديثة في واقع صراعها ضد

٨- صامويل هنتنجتون – صدام المرجع السابق، ص٢٩.

جمود رجالات المسيحية، ثم إن عصور الظلام الأوروبي التي أطلق عليها وصف (القرون الوسطى Medieval) هي زمنياً العصور نفسها التي كانت أنوار الحضارة الإسلامية فيها تشرق على العالم.

ومن أدوات الغرب التي تمهد للصدام هي أداة العنصرية ولذا نتناولها فيما يلي:

العنصرية أداة للصدام :

تعريف العنصرية Racism :

ويقدم الدكتور فواز الجابرى تعريفاً للعنصرية قائلاً: العنصرية هي تعصب فرد أو فئة من الناس لجنس أو عرق أو قبيلة أو عشيرة أو دين أو طائفة أو معتقد أو حتى لون بشرة وإباحة قتل أو اضطهاد أو حتى ازدراء الفئات الأخرى بدون وجه حق أو سبب واضح سوى أنها تختلف عنه في جنسها أو عرقها أو طائفتها أو لون بشرتها (زنوج وهنود أمريكا، فكرة الحروب الصليبية، الحركة الصهيونية[٩] ، النازية، التحزّب والحزبية، الصدامات العرقية والطائفية المعاصرة، مصطلح محاربة الإرهاب).

وهو أيضاً الاعتقاد بأن أعضاء جنس أو سلالة أو مجموعة من السلالات أعلى أو أدنى درجة من أعضاء السّلالات الأخرى. والفكر العنصري يعد أهم أدوات الصدام لأنه مناف للعقل والحضارة، ولابدّ من وجود مستفيدين وأصحاب مصلحة في وجوده ثم استمراره في مكان وزمان معينين وذلك عبر استخدامه كستار لخدمة وتحقيق مصالحهم الفردية والمادية فقط.

لذا، يمكن اعتبار الفكر العنصري كأداة فعّالة في يد أصحاب طموح السلطة والنفوذ والجاه على مرّ العصور واختلاف الأمكنة ويقتضي التنويه للأهمية البالغة هنا بأن أصحاب الفكر العنصري والمستفيدين منه ليسوا مجموعة واحدة متجانسة

٩- الصهيونية Zionism حركة سياسية يهودية تدعو إلى تكوين أمّة يهوديةً وتنادي بحق هذه الأمة بتكوين كيان لها على أرض إسرائيل التاريخية أو كما ذكرت في التوراة. تأسست هذه الحركة في ١٨٩٧ وتألفت من أفكار عديدة عند نشأتها في مكان بقعة الأرض لإقامة الدولة التي ستحتضن هذه الأمة. تركّزت الجهود ابتداءً من العام ١٩١٧ (وعد بلفور) على فلسطين لإنشاء كيان يحتضن الأمة اليهودية ومن العام ١٩٤٨ دأبت الصهيونية على إنشاء وتطوير دولة إسرائيل المغتصبة للحق العربي وتنسب الصهيونية إلى جبل صهيون جنوب بيت المقدس والبعض يرجع أنها عربية الأصل وأنها من مادة الصون والتحصين والبعض يرجعها إلى صهيون الذى قاد البابليين فى المنفى تحت سور بابل لكى يعيدوا بناء المعبد المزعوم.

يورثـون فكرهم وسلطتهم لأحفادهم أو منتسبي مجموعتهم فقط، بل هم موجودون ومنتشـرون فـي كافـة الـبلدان وعلـى مرّ العصور، والشواهد التاريخية كثيرة سنتعرض لها تباعاً.

وحيـنما تـتوافر التربة الملائمة لنمو الفكر العنصري ويتواجد من يستفيد منه كما تقدّم، يبدأ البحث عن وسائل لنشره وترويجه وتشريعه بين أكبر عدد ممكن من الـناس علـى أنه المعيار الحقيقي لأسباب الصدامات بين المجتمعات الشرية. هنا، يبدأ تشويه التاريخ وتنشأ مصطلحات جديدة مغلوطة، ويتغير تفسير أخرى معروفة منذ قدم التاريخ المكتوب لتلائم هذا الفكر الخطير.

والعنصـرية تفشـت وما زالت متفشية فى الغرب وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكـية (وسوف نتناوله فى حينه بشىء من التفصيل) والتعصب العنصرى هو أساس وركيزة وراء نظرة أمريكا للعالم وخاصة النامى منه وهو الذى يجعل الفرد الأمـريكى يقف صامتاً وأحياناً باسماً عندما يطلق كل أنواع أسلحة الدمار الشامل علـى العـرب والمسـلمين فى كل أرجاء المعمورة بل ويساعد ويشجع على ذلك وللمسألة جذور.



الفصل الثاني
الجذور

الفصل الثاني
الجذور

المعني اللفظي :

جـاء فـي لسـان العرب[1] (الصرع: الطرح بالأرض، وخصَّه في التهذيب بالإنسـان، صَـارَعَهُ صَرْعاً وصِرْعاً، فهو مصروع وصريع، والجمع صرعى، والمصـارعة والصـراع معالجتهما أيهما يصرع صاحبَه. والصرع علةٌ معروفة، والصـريع المجـنون، ومصـارع القوم حيث قُتلوا، وفي الحديث: الصُّرَعَة (بضم الصـاد وفـتح الـراء مـثل الهمزة)، الرجل الحليم عند الغضب، وهو المبالغ في الصراع الذي لا يُغلب).

وقـد شـغلت مشـكلة تعريف العدوان الحكماء والفلاسفة على مدى القرون العديـدة. وقـد انبثق مفهوم العدوان منذ أيام روما القديمة، ويعيد مؤرخو القانون مصـطلح العـدوان إلى الكلمة اللاتينية "Aggressio" أي الاعتداء. وكان من أقدم تعـاريف الظاهـرة "اعـتداء مـن دولة أقوى على دولة أضعف لتحقيق مكاسب ومصـالح والتوسـع فـي حدود وثروات المعتدي"، نجد في قواميس علم الإناسة (الأنثروبولوجيا) تعبير جماعة بدل دولة باعتبار العدوان قد سبق الدول[2].

وعلـى مستوى المعتقد الديني، فإنَّ (العهد القديم) لا يخلو من روح الصراع، وتعكـس التوراة، هذه الروحَ التي تسري في كتاب يعد وحيا من الله. وقد تغلغلت هـذه الـروح فـي المعـتقدات الدينية، وفي العقائد الفلسفية، وفي الأعمال الأدبية والفنـية، حـتى صـار الفكـر الديني والفلسفي واقعاً تحت تأثير هذه الفكرة التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من الفكر الأوروبي، ومن الحضارة الغربية بصورة عامة.

وحيـن يلتقـي الفكـر الصهيوني بالفكر التوراتي، ويجد فيه النصير والملاذ، يصـبح الـنص التوراتـي قاعدة تربوية، ومحرضا ثمينا على إنجاز كل مجازر الماضي والمجازر القادمة.

١- لمـزيد من التفاصيل أنظر عبد العزيز بن عثمان التويجري: صراع الحضارات في المفهوم الإسلامي، من منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

٢- هيثم مناع: محاضرة على هامش المؤتمر التأسيسي الأول للحملة العالمية ضد العدوان.

وفي التوراة جاء " امحقوهم عن أخرهم، أبيدوا حرثهم ونساءهم " ويقول تيودور هرتزل[٣] "إن التآخى العام بين الناس لا يعتبر حتى جميلاً، فالعدو شرط ضرورى لأرفع مجهودات الإنسان وأسماها إن الإنسان الذى يخترع مادة شديدة الانفجار يعمل لأجل السلام أكثر من ألف داعية إلى اللطف والرفق واللين"[٤] .

جاء في سفر يشوع: "فهتف الشعب، وضربوا بالأبواق، وكان حين سمع الشعب صوت البوق أن هتف هتافا عظيماً، فسقط السور في مكانه. وصعد الشعب إلى المدينة... "وحزوا كل ما في المدينة، من رجل وامرأة، ومن طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف" "سفر يشوع ٢٠/٢".

وجاء أيضا: "وأخذها يشوع مقيدة في ذلك اليوم، وضربها بحد السيف، وحرم ملكهاء هو وكل نفس بها. ولم يبق شارد. وفعل بملك مقيدة كما فعل بملك اريحا، ثم اجتاز يشوع من مقيدة وكل إسرائيل معه إلى لبنة، فضربها بحد السيف، وكل نفسه بها، ولم يبق شاردا. وفعل بملكها كما فعل بملك اريحا. "سفر يشوع ٢٨/١٠".

كما جاء فى سفر التثنية ذلك النص البالغ الخطورة "حين تقترب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها وإذا دفعها الرب الهك الي يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء ولأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التى

٣- تيودور هرتزل (١٨٦٠-١٩٠٤) صحفي يهودي نمساوي، ومؤسس الصهيونية السياسية المعاصرة. اسمه العبري الشخصي: بنيامين زئيف. ولد في بودبست في ٢ مايو ١٨٦٠ وتوفي في إدلاخ (Edlach) بالنمسا في ٣ يوليو ١٩٠٤ التحق هرتزل بكلية القانون حتى حصل على الدكتوراه سنة ١٨٨٤ ثم اشتغل بعدها فترة قصيرة في محاكم فينا وسالتسبورغ (Salzburg) ثم توجه إلى الأدب والتأليف. بداية من سنة ١٨٨٥.
وضع حجر الأساس لظهور الصهيونية السياسية وتأسيس الحركة الصهيونية بعد انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل السويسرية بين ٢٩ و٣١ أغسطس ١٨٩٧ وانتخاب هرتسل رئيسا للمنظمة الصهيونية العالمية. بعد ذلك بدأ هرتسل عدة محادثات مع شخصيات عديدة من دول مختلفة، مثل القيصر الألماني فيلهلم الثاني (Wilhelm II.) الذي التقى به سنة ١٨٩٨ مرتين في ألمانيا وفي القدس أو السلطان العثماني عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠١، بحثا عن مؤيدين للمشروع الصهيوني. لكن جهوده فشلت وتركت المجال مفتوحا لمواصلة العمل على تأسيس الدولة.

٤- سليمان إبراهيم العسكرى: تربية العنصرية وازدواجية المعايير، مجلة العربي ،عدد ٥٧٠ سنة ٢٠٠٦، ص ١٠.

ليسـت من مدن هؤلاء، أما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب الهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما"[٥] !!!

وكانـت حـرب داود كلها حروب إبادة جماعية[٦] "وخرب داود الأرض ولم يستبق رجلاً ولا امرأة وأخذ غنماً وبقرا وحميرا وجمالا وثيابا"[٧] .

هـذه النصـوص النموذجية التي تمجد العنف وحد السيف لا تقبع صامتة في صفحات كتاب قديم، بل هى المادة الأولية لتربية الشباب في المدارس "الإسرائيلية".

وقـد جسـدت حـياة السيد المسيح (عليه السلام) القصيرة ووصاياه نضالا لا سـابق له ضـد مـنطق العـدوان، حيث قامت أركان دعوته على منطق التماسك والـتكامل بين الحقيقة والعدالة والحب والسلام. رغم ذلك بقيت الاتجاهات السلمية فـي التاريخ، داخل وخارج الأديان أضعف من تلك المناصرة لتجريم الحرب بكل أشـكالها، "عادلـة" كانت أم جائرة[٨] . ولعل خير ما يجسد هذه الروح ما جاء في إنجيل متى: "سمعتم أنه قيل لكم :أن تحب قريبك وتبغض عدوك. أما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم، وباركوا لا عينيكم، وأحسنوا معاملة الذين يبغضونكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويضطهدونكم"[٩] .

ولذلك لم تكن الحروب الصليبية تمت لتعاليم السيد المسيح (عليه السلام) بصلة ومـا عجزت عنه الحروب الصليبية قديماً لا بد من تحقيقه الآن بشكل آخر. وهذه المـرة سـيتولى الشعب العبراني المهمة. فاليهود الذين اعتبر وجودهم في أوروبا غير مرغوب فيه لدى الكثير من الساسة والحكام الغربيين منذ القدم يمكن تهجيرهم بإرادتهم واستعمالهم وقودا للمعركة الدائمة مع العالم الإسلامي من أجل إقامة دولة إسرائيل وبناء هيكل سليمان كشرط لعودة المسيح.

وهـذه العقلية هي التي أفرزت بروتوكولات[١٠] حكماء صهيون الشهيرة، فما هى بروتوكولات حكماء صهيون.

٥- سفر التثنية ٢٠ (١٠-١٦).

٦- جمعة الجندى: ملامح العنف والإرهاب الصليبي فى بلاد الشام، مكتبة مدبولى، ط١، ٢٠٠٦، ص ١٩.

٧- صموئيل الأول ٢٧ (٨-١٢).

٨- هيثم مناع، المرجع السابق.

٩- متى ٥:٤٣.

١٠- البروتوكول وثيقة تحتوي على محضر محادثات يجريها ممثلون دبلوماسيون. توضح الوثيقة أن الدبلوماسيين قد اتفقوا على مسائل مهمة.

بروتوكولات حكماء صهيون[١١] :

"إن المكتوب فى هذه البروتوكولات ينبغى أن يقنع من لهم آذان للسمع"

ولـــذا ســـنورد بعضاً من تلك البروتوكولات التي تعد الزبد في تهيئة العقول والأمم للصدام الحضاري .

البروتوكول الأول :

ســـنكون صرحاء، ونناقش دلالة كل تأمل. ونصل إلى شروح وافية بالمقارنة والاستنباط. وعلى هذا المنهج سأعرض فكرة سياستنا وسياسة الجوييم[١٢] .

يجب أن يلاحظ أن ذوي الطبائع الفاسدة من الناس أكثر عددا من ذوي الطبائع النبــيلة. وإذن فخــير النــتائج فــي حكــم العالم ما ينتزع بالعنف والإرهاب، لا بالمناقشـــات الأكاديمـــية. كـــل إنسان يسعى إلى القوة، وكل واحد يريد أن يصير دكـــتاتورا، علـــى أن يكون ذلك في استطاعته. وما أندر من لا ينزعون إلى إهدار مصالح غيرهم توصلا إلى أغراضهم الشخصية.

مـــاذا كبح الوحوش المفترسة التي نسميها الناس عن الافتراس؛ وماذا حكمها حـــتى الآن؟ لقـــد خضـــعوا في الطور الأول من الحياة الاجتماعية للقوة الوحشية العمـــياء، ثـــم خضـــعوا للقانون، وما القانون في الحقيقة إلا هذه القوة ذاتها مقنعة فحسب. وهذا يتأدى بنا إلى تقرير أن قانون الطبيعة هو: الحق يكمن في القوة.

١١- بـــروتوكولات حكماء صهيون: عبارة عن مجموعة من النصوص تتمحور حول خطة لسيطرة اليهود على العالم. تم نشر هذه النصوص لأول مرة في الإمبراطورية الروسية في جريدة زناميا في مدينة سانت بطرسبرغ عام ١٩٠٣م. يرى العديد مـــن المؤرخـــين أن هذه الكتابات هي مجرد خدعة وخاصة بعد إجراء تحقيق صحفي عام ١٩٢١ م حول مصداقية هذه الكـــتابات قامـــت بـــه صحيفة التايمز اللندنية واستخلص إلى أن المقالات هي تزوير أدبي لكتاب فرنسي (١) وتم نشر سلســـلة مـــن المقـــالات الـــتي وصـــفت عملـــية التزوير. في نفس السنة – أي عام ١٩٢١– تم طبع النص الكامل للـــبروتوكولات في الولايات المتحدة وفي عام ١٩٣٤ قام الطبيب السويسري زاندر Dr. A. Zander بنشر سلسلة مـــن المقـــالات يصف فيه البروتوكولات حقيقة تاريخية ولكنه تعرض للمحاكمة لنشره تلك المقالات. هناك تيار فكري عـــلى قـــناعة بأن البروتوكولات هي حقيقية لأن تاريخ الحركة الصهيونية والنفوذ الاقتصادي اليهودي في العالم وإنشاء دولة إسرائيل ونفوذ اليهود على القرار السياسي في عدد من دول العالم ما هي إلا تطبيقات عملية بصورة أو بأخرى لما ورد في تلـــك الـــبروتوكولات وهناك تيار آخر يصف البروتوكولات جزءا من نظرية المؤامرة ومعاداة السامية ومعاداة الصـــهيونية وأن الـــبروتوكولات في الأساس تم نشرها والدعاية لها من قبل الشيوعيين المعارضين لحكومة الإمبراطورية الروســـية حيـــث بـــدأت بعد الثورة البلشفية عام ١٩١٧ م وعلى يد البلاشفة لنشر أفكار مفادها أن اليهود يحاولون السيطرة على العالم.

١٢- الجوييم هم غير اليهود.

أن الحرية السياسية ليست حرية حقيقية، بل فكرة. ويجب أن يعرف الإنسان كيف يســخر هذه الفكرة عندما تكون ضرورية، فيتخذها طعما ليجتذب العامة إلى صفه، إذا كــان قد قرر أن ينتزع سلطة منافس له. وتكون المشكلة يسيرة إذا كان المنافس موبوءا بأفكـــار الحـــرية التي تسمى التحررية، ومن أجل هذه الفكرة يتخلى عن بعض سلطته. وبهـــذا يصـــير انتصـــار فكرتنا واضحا؛ فان أزمة الحكومة المتروكة خضوعا لقانون الحـــياة ستقبض عليه يد جديدة. وما على الحكومة الجديدة إلا أن تحل محل القديمة التي أضعفتها التحررية، لأن قوة الجمهور العمياء لا تستطيع البقاء يوما بلا قائد.

لقد طغت سلطة الذهب على الحكام المتحررين، ولقد مضى الزمن الذي كانت الديانـــة فـــيه هـــي الحاكمـــة. وأن فكرة الحرية لا يمكن أن تتحقق؛ إذ ما من أحد يســـتطيع اســـتعمالها اســـتعمالا ســـديدا. يكفي أن يعطى الشعب الحكم الذاتي فترة وجيزة؛ لكي يصير هذا الشعب رعاعا بلا تمييز، ومنذ تلك اللحظة تبدأ المنازعات وتندلع النيران في الدول ويزول أثرها كل الزوال.

وســـواء أنهكـــت الدول القلاقل الداخلية أم أسلمتها الحروب الأهلية إلى عدو خارجـــي، فإنهـــا فـــي كلـــتا الحالتين تعد قد خربت نهائيا كل الخراب، وستقع في قبضـــتنا. وأن الاســـتبدال المالـــي كله في أيدينا وسيمد للدولة عودا لا مفر لها من التعلق به، لأنها إذا لم تفعل ذلك ستغرق في اللجة لا محالة.

ومـــن يكـــن متأثرا ببواعث التحررية فتخالجه الإشارة إلى أن بحوثنا من هذا النمط منافية للأخلاق، فسأسأله هذا السؤال: لماذا لا يكون منافيا للأخلاق لدى دولة يهددهـــا عـــدوان؟ أحدهمـــا خارجي والأخر داخلي أن تستخدم وسائل دفاعية ضد الأول تخـــتلف عن وسائلها الدفاعية ضد الأخر، وأن تضع خطط دفاع سرية، وأن تهاجمه في الليل أو بقوات أعظم؟

ولماذا يكون منافيا للأخلاق هذه الدولة أن تستخدم هذه الوسائل ضد من يحطم أسس حياتها وسعادتها؟

هـــل يستطيع عقل منطقي سليم أن يأمل في حكم الغوغاء حكم ناجحا باستعمال المناقشـــات والمجـــادلات، مـــع أنـــه يمكن مناقضة مثل هذه المناقشات والمجادلات بمناقشـــات أخـــرى، وربما تكون المناقشات الأخرى مضحكة غير أنها تعرض في صـــورة تجعلها أكثر إغراء في الأمة لجمهرتها العاجزة عن التفكير العميق، والهائمة وراء عواطفها التافهة وعادتها ونظريتها العاطفية.

أن الجمهــور الغريــر الغبي ومن ارتفعوا من بينه، لينغمسون في خلافات حزبية تعــوق كل إمكان للاتفاق ولو على المناقشات الصحيحة، لكن قرار الجمهور قد يتوقف علــى مجــرد فرصـــة، أو أغلبية ملفقة تجيز لجهلها بالأسرار السياسية حلولا سخيفة، فتــبذر بذور الفوضى في الحكومة. أن السياسة لا تتفق مع الأخلاق في شئ. والحاكم المقيد بالأخلاق ليس بسياسي بارع، وهو لذلك غير راسخ على عرشه.

لابــد لطالــب الحكــم من الالتجاء إلى المكر والرياء، فإن الشمائل الإنسانية العظــيمة من الإخلاص والأمانة تصير رذائل في السياسة، وأنها لتبلغ في زعزعة العــرش أعظــم ممــا يبلغه ألد الخصوم. هذه الصفات لابد أن تكون صفات البلاد الأممية (غير اليهودية) ولكننا غير مضطرين إلى أن نقتدي بهم على الدوام.

أن حقــنا يكمن في القوة. وكلمة الحق فكرة مجرد قائمة على غير أساس فهي كلمــة لا تدل على أكثر من ((أعطني ما أريد لتمكنني من أن أبرهن لك بهذا على أنــي أقوى منك)). أين بداء الحق وأين ينتهي؟ أي دولة يساء تنظيم قوتها، وتنتكس فــيها هيــبة القــانون وتصــير شخصية الحاكم بتراء عقيما من جراء الاعتداءات الــتحررية المســتمرة فإني أتخذ لنفسي فيها خطاً جديدا للهجوم مستفيدا بحق القوة لتحطــيم كــيان القواعــد والنظم القائمة، والإمساك بالقوانين وإعادة تنظيم الهيئات جميعا. وبذلك أصير ديكتاتورا على أولئك الذين تخلوا بمحض رغبتهم عن قوتهم، وانعموا بها علينا.

وفــي هذه الأحوال الحاضرة المضطربة لقوى المجتمع ستكون قوتنا أشد من أي قــوة أخرى، لأنها ستكون مستورة حتى اللحظة التي تبلغ فيها مبلغا لا تستطيع معــه أن تنسفها أي خطة ماكرة. ومن خلال الفساد الحالي الذي نلجئ إليه مكرهين ســتظهر فــائدة حكــم حــازم يعــيد إلى بناء الحياة الطبيعية نظامه الذي حطمته الــتحررية. أن الغاية تبرر الوسيلة وعلينا ونحن نضع خططنا ألا نلتفت إلى ما هو خير وأخلاقي بقدر ما نلتفت إلا ما هو ضروري ومفيد.

وبين أيدينا خطة عليها خط استراتيجي موضح، وما كنا لننحرف عن هذا الخط إلا كــنا ماضين في تحطيم عمل قرون. أن من يريد إنقاذ خطة عمل تناسبه يجب أن يستحضــر في ذهنه حقارة الجمهور وتقلبه، وحاجته إلى الاستقرار، وعجزه عن أن يفهم ويقدر ظروف عيشته وسعادته. وعليه أن يفهم أن قوة الجمهور عمياء خالية من العقل المميز، وانه يعير سمعه ذات اليمين وذات الشمال.

إذا قـــاد الأعمى أعمى مثله فسيسقطان معا في الهاوية. وأفراد الجمهور الذين امتازوا من بين الهيئات ولو كانوا عباقرة لا يستطيعون أن يقودوا هيئاتهم كزعماء دون أن يحطمـــوا الأمة. ما من أحد يستطيع أن يقرأ الكلمات المركبة من الحروف السياســـية إلا مـــن ينشأ تنشئة للملك الأوتقراطي (الأوتوقراطية) نظام الحكم الفرد المســـتبد المطلـــق) وأن الشعب المتروك لنفسه، أي للممتازين من الهيئات لتحطمه الخلافات الحزبية التي تنشأ من التهالك على القوة والأمجاد، وتخلق الهزاهز والفتن والاضطراب.

هـــل فـــي وسع الجمهور أن يميزوا بهدوء ودون ما تحاسد، كي يديروا أمور الدولة التي يجب ألا تقتحم معها الأهواء الشخصية؟

وهـــل يســـتطيع أن يكون وقاية ضد عدو أجنبي؟ هذا محال. أن خطة مجزأة أجـــزاء كثـــيرة بعـــدد ما في أفراد الجمهور من عقول لهي خطة ضائعة لا محالة وغير قابلة للتنفيذ.

أن الجمهور بربري، وتصرفاته في كل مناسبة على هذا النحو، فما أن يضمن الرعاع الحرية، حتى يمسخوها لفوضى، والفوضى في ذاتها قمة البربرية.

وحسبكم فانظروا إلى هذه الحيوانات المخمورة التي أفسدها الشراب، وأن كان ليـــنظر لهـــا من وراء الحرية منافع لا حصر لها فهل نسمح لأنفسنا وأبناء جنسنا بمثل ما يفعلون؟

ومـــن المسيحيين أناس قد أضلتهم الخمر، وأنقلب شبانهم مجانين بالكلاسيكيات والمجـــون المبكر الذي أغراهم به وكلائنا ومعلمونا، وخدمنا، وكتبتنا، ونساؤنا في أماكن لهوهم. يجب أن يكون شعارنا ((كل وسائل العنف والخديعة)).

أن مبادئـــنا فـــي مثل قوة وسائلنا التي نعدها لتنفيذها، وسوف ننتصر ونستعبد الحكومـــات جميعا تحت حكومتنا العليا لا بهذه الوسائل فحسب بل بصرامة عقائدنا أيضا، وحسبنا أن يعرف عنا أننا صارمون في كبح كل تمرد.

كذلك كنا قديما أول من صاح في الناس ((الحرية والمساواة والإخاء))، كلمات مـــا انفكـــت ترددها ببغاوات جاهلة متجمهرة من كل مكان حول هذه الشعائر، وقد حرمـــت بترددها العالم من نجاحه، وحرمت الفرد من حريته الشخصية التي كانت من قبل في حمى يحفظها من أن يخنقها السفلة.

أن صيحتنا ((الحرية والمساواة والإخاء)) قد جلبت في صفوفنا فرقا كاملة من زوايـا العـالم الأربع عن طريق وكلائنا المغفلين وقد حملت هذه الفرق ألويتنا في نشوة، بينما كانت هذه الكلمات تلتهم سعادة المسيحيين وتحطم سلامهم واستقرارهم ووحدتهـم ((ملاحظة: إقراء رواية الأخوة كرامازوف لدستويفسكي وستلمس صحة الكـلام المذكـور)) مدمـرة بذلك أسس الدول وقد جلب هذا العمل النصر لنا كما سـنرى بعـد وبتعبير أخر مكننا من سحق كيان الأرستقراطية الأممية التي كانت الحماية الوحيدة للبلاد ضدنا.

أن تجرد كلمة الحرية جعلها قادرة على إقناع الرعاع بأن الحكومة ليست شيئا أخر غير مدير ينوب عن المالك الذي هو الأمة. وأن في المستطاع خلعها كقفازين باليين. وأن الثقة بأن ممثلي الأمة يمكن عزلهم قد أسلمت ممثليهم لسلطاننا، وجعلت تعيينهم عمليا في أيدينا.

البروتوكول الثاني :

لا يلـزم لغرضـنا أن لا تحـدث أي تغـيرات إقليمية عقب الحروب، فبدون التعديلات الإقليمية ستتحول الحروب إلى سباق اقتصادي، وعندئذ تتبين الأمم تفوقنا فـي المساعدة التي سنقدمها، وأن اطراد الأمور هكذا سيضع الجانبين كليهما تحت رحمة وكلائنا الدوليين ذوي ملايين العيون الذين يملكون وسائل غير محدودة على الإطلاق. وعندئذ ستكتسح حقوقنا الدولية كل قوانين العالم وسنحكم البلاد بالأسلوب ذاته الذي تحكم به الحكومات الفردية رعاياها.

وسنختار من بين لعامة رؤساء إداريين ممن لهم ميول العبيد، ولن يكونوا مدربين علـى فـن الحكم، ولذلك سيكون من اليسير أن يمسخوا قطع شطرنج ضمن لعبتنا في أيـدي مستشـارينا العلماء الحكماء الذين دربوا خصيصا على حكم العالم منذ الطفولة الـباكرة. وهؤلاء الرجال كما علمتم من قبل قد درسوا علم الحكم من خططنا السياسية، ومـن تجـربة الـتاريخ، ومن ملاحظة الأحداث الجارية. والأمميون (غير اليهـود) لا ينـتفعون بالملاحظات التاريخية المستمرة بل يتبعون نسقا نظريا من غير تفكير فيما أن تكون نتائجه. ومن أجل ذلك لسنا في حاجة إلى أن نقيم للأمميين وزنا.

دعوهـم يتمـتعوا ويفـرحوا بأنفسهم حتى يلاقوا يومهم. أو يعيشوا ذكرياتهم للأحلام الماضية. دعوهم يعتقدوا أن هذه القوانين النظرية التي أوحينا إليهم بها إنما

القـــدر الأسمى من أجلهم. وبتقييد أنظارهم إلى هذا الموضوع، وبمساعدة صحافتنا نـــزيد ثقتهم العمياء بهذه القوانين زيادة مطردة. أن الطبقات المتعلمة ستختال زهوا أمـــام نفسها بعلمها، وستأخذ جزافا في مزاولة المعرفة التي حصلتها من العلم الذي قدمه إليها وكلائنا رغبة في تربية عقولها حسب الاتجاه الذي توخيناه.

لا تتصـــوروا أن تصـــريحاتنا كلمـــات جوفاء. ولاحظوا هنا أن نجاح دارون وماركس ونيتشه[١٣] قد رتبناه من قبل. والأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم فـــي الفكر الأميمي سيكون وضحا لنا على التأكيد. ولكي نتجنب ارتكاب الأخطاء فـــي سياستنا وعلمنا الإداري، يتحتم علينا أن ندرس ونعي في أذهننا الخط الحالي من الرأي، وهو أخلاق الأمة وميولها.

ونجـــاح نظريتنا هو في موافقتها لأمزجة الأمم التي تتصل بها، وهي لا يمكن أن تكـــون ناجحـــة إذا كانـــت ممارستها العلمية غير مؤسسة على تجربة الماضي مقترنة بملاحظات الحاضر.

أن الصـــحافة التي في أيدي الحكومة القائمة هي القوة العظمة التي بها نحصل علـــى توجـــيه الـــناس. فالصحافة تبين المطالب الحيوية للجمهور، وتعلن شكاوي الشـــاكين، وتولـــد الضـــجر أحـــيانا بين الغوغاء. وأن تحقق حرية الكلام ولد في الصحافة، غير أن الحكومات لم تعرف كيف تستعمل هذه القوة بالطريقة الصحيحة، فســـقطت فـــي أيدينا، ومن خلال الصحافة أحرزنا نفوذا، وبقينا نحن وراء الستار، وبفضل الصحافة كدسنا الذهب، ولو أن ذلك كلفنا أنهار من الدم: فقد كلفنا التضحية بكثير من جنسنا، ولكن كل تضحية من جانبنا تعادل آلافا من الأممين أمام الله.

البروتوكول الثالث :

أستطيع اليوم أن أؤكد لكم أننا على مدى خطوات قليلة من هدفنا، ولم تبقى إلا مســـافة قصـــيرة كي تتم الأفعى الرمزية (شعار الصهيونية) دورتها. وحينما تغلق الدائرة ستكون كل دول أوربا محصورة فيها بأغلال لا تكسر.

١٣- فـــريدريك فيلهيلم نيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠) فيلسوف ألماني، عالم نفس، و عالم لغويات متميز. تميز بشخصية عدوانية جداً، وكولـــه نـــاقدا حادًا للمبادئ الأخلاقية، و النفعية، والفلسفة المعاصرة، المادية، المثالية الألمانية، الرومانسية الألمانية، والحداثة عُمومـــاً. يعتـــبر مـــن بـــين الفلاسفة الأكثر شيوعا وتداولا بين القراء. كثيرا ما توصف أعماله بأنها حامل أساسي لأفكار الرومانسية الفلسفية والعدمية ومعاداة السامية وحتى النازية، يعتبر نيتشه في أغلب الأحيان إلهام للمدارس الوجودية وما بعد الحداثة. وروج لافكار اللاعقلانية والعدمية، استخدمت بعض آرائه فيما بعد من قبل الفكر النازى والفاشى.

أن كل الموازين البنائية القائمة ستنهار سريعا، لأننا على الدوام نفقدها توازنها كي نبلها بسرعة أكبر، ونمحق كفايتها.

لقد ظن الأمميون أن هذه الموازين قد صنعت ولها من القوة ما يكفي، وتوقعوا أن تزن الأمور بدقة، ولكن القوامين عليها أي رؤساء الدول كما يقال مرتبكون بخدمهم الذين لا فائدة لهم منهم، مقودون كما هي عادتهم بقوتهم المطلقة على المكيدة والدس بفضل المخاوف السائدة في القصور.

والملك لم تكن له سبل إلى قلوب رعاياه، ولهذا لم يستطع أن يحصن نفسه ضد مدبري المكايد والدسائس الطامحين إلى القوة، وقد فصلنا القوة المراقبة عن قوة الجمهور العمياء، ففقدت القوتان معا أهميتهما، لأنهما حين انفصلتا صارتا كأعمى فقد عصاه. ولكي نغري الطامحين إلى القوة بأن يسيئوا استعمال حقوقهم وضعنا القوى: كل واحدة منها ضد غيرها، بأن في هذه الاتجاه ووضعنا أسلحة في أيدي كل الأحزاب، وجعلنا السلطة هدف كل طموح إلى الرفعة. وقد أقمنا ميادين تستجر فوقها الحروب الحزبية بلا ضوابط ولا التزامات. وسرعان ما ستنطلق الفوضى، وسيظهر الإفلاس في كل مكان.

لقد مسخ الثرثارون الوقحاء المجالس البرلمانية والإدارية مجالس جدلية. والصحفيون الجريئون، وكتاب النشرات الجسورون يهاجمون القوى الإدارية هجوما مستمرا. وسوف يهيئ سوء استعمال السلطة تفتت كل الهيئات لا محالة، وسينهار كل شئ صريعا تحت ضربات الشعب الهائج. إن الناس مستعبدون في عرق جباههم للفقر بأسلوب أفظع من قوانين رق الأرض. فمن هذا الرق يستطيعون أن يحرروا أنفسهم بطريقة أو بأخرى، على حين أنه لا شئ يحررهم من طغيان الفقر المطبق. ولقد حرصنا على أن نقحم حقوقا لهيئات خيالية محضة، فإن كل ما يسمى ((حقوق البشر)) لا وجود له إلا في المثل التي لا يمكن تطبيقها عمليا.

أن الحقوق الشعبية سخرية من الفقير، فإن ضروريات العمل اليومي تقعد به عن الظفر بأي فائدة على شاكلة هذه الحقوق، وكل حظها هو أن تنأى به عن الأجور المحدودة المستمرة، وتجعله يعتمد على الإضرابات والمخدومين والزملاء. وتحت حمايتنا أباد الرعاع الأرستقراطية التي عضدت الناس وحمتهم لأجل منفعتهم.

والآن يقع الشعب بعد أن حطم امتيازات الأرستقراطية تحت نيل الماكرين من المستغلين والأغنياء المحدثين.

أن الأرســتقراطية التي تقاسم الطبقات العامة عملها قد أفادها أن هذه الطبقات العاملــة طيــبة الغذاء، جيدة الصحة، قوية الأجسام، غير أن فائدتنا نحن في ذبول الأمميــن وضــعفهم. وأن قوتنا تكمن في أن يبقى العامل في فقر ومرض دائمين، لأننا بذلك نستبقيه عبدا لأرادتنا، وأن الجوع سيخول رأس المال حقوقا على العامل أكثر مما تستطيع سلطة الحكم الشرعية أن تخول الأرستقراطية من الحقوق.

أن علم الأحوال الاجتماعية الصحيح الذي لا نسلم أسراره للأمميين سيقنع العالم أن الحــرف والأشغال يجب أن تحصر في فئات خاصة كي لا تسبب متاعب إنسانية تنشــأ عن تعليم لا يساير العمل الذي يدعي الأفراد إلى القيام به. وإذا ما درس الناس هــذا العلم فسيخضعون بمحض إرادتهم للقوى الحاكمة وهيئت الحكومة التي رتبتها. وفي ظل الأحوال الحاضرة للجمهور والمنهج الذي سمحنا له باتباعه يؤمن الجمهور في جهله إيمانا أعمى بالكلمات المطبوعة وبالأوهام الخاطئة التي أوحينا بها إليه كما يجب، وهو يحمل البغضاء لكل الطبقات التي يظن أنها أعلى منه، لأنه لا يفهم أهمية كــل فــئة. وأن هــذه البغضاء ستصير أشد مضاء حيث تكون الأزمات الاقتصادية مســتحكمة. لأنهــا ســتوقف الأسواق والإنتاج، وسنخلق أزمة اقتصادية عالمية بكل الوسائل التي في قبضتنا، وبمساعدة الذهب الذي هو كله بأيدينا.

لقد أقنعنا الأمميين بأن مذهب التحررية سيؤدي بهم إلى مملكة العقل. وسيكون استبدادنا من هذه الطبيعة لأنه سيكون في مقام يقمع كل الثورات ويستأصل بالعنف اللازم كل فكرة تحررية من كل الهيئات.

تذكروا الثورة الفرنسية التي نسميها (الكبرى)، أن أسرار تنظيمها التمهيدي معروفة لــنا جيدا لأنها من صنع أيدينا.و نحن من ذلك الحين نقود الأمم قدما من خيبة إلى خيــبة، حــتى أنهم سوف يتبرءون منا، لأجل الملك الطاغية من دم صهيون، وهو المالك الذي نعده لحكم العالم. ونحن الآن كقوة دولية فوق المتناول، لأنه لو هجمتنا إحــدى الحكومــات الأممــية لقامت بنصرنا أخريات. أن المسيحيين من الناس في خستهم الفاحشة ليساعدونا على استقلال حينما يخروا راكعين أمام القوة.

أن كلمــة الحرية تزج بالمجتمع في نزاع مع كل القوى حتى قوة الله. وذلك هو السبب في أنه يجب علينا حين نستحوذ على السلطة أن نمحق كلمة الحرية من معجم

الإنســـانية باعتـــبار أنهـــا رمز القوة الوحشية الذي يمسخ الشعب حيوانات متعطشة للدمـــاء. ولكـــن يجب أن نركز في عقولنا أن هذه الحيوانات تستغرق في النوم حينما تشبع من الدم، وفي تلك اللحظة يكون يسيرا علينا أن نسخرها وأن نستعبدها.

البروتوكول الرابع:

كـــل جمهوريـــة تمـــر خلال مراحل متنوعة: أولاها فترة الأيام الأولى لثورة العمـــيان التي تكتسح وتخرب ذات اليمين وذات الشمال. والثانية هي حكم الغوغاء الـــذي يؤدي إلى الفوضى، ويسبب الاستبداد. أن هذا الاستبداد من الناحية الرسمية غـــير شـــرعي، فهو لذلك غير مسئول. وانه خفي محجوب عن الأنظار ولكنه مع ذلـــك يترك نفسه محسوسا به. وهو على العموم تصرفه منظمة سرية تعمل خلف بعـــض الوكلاء، ولذلك سيكون أعظم جبروتا وجسارة. وهذه القوة السرية لن تفكر فـــي تغيـــير وكلائها الذين تتخذهم ستارا، وهذه التغييرات قد تساعد المنظمة التي ســـتكون قادرة على تخليص نفسها من خدمها القدماء الذين سيكون من الضروري عندئذ منحهم مكافآت أكبر جزاء لخدمتهم الطويلة.

من ذا وماذا يستطيع أن يخلع قوة خفية عن عرشها؟ هذا هو بالضبط ما عليه حكومتـــنا الآن. أن المحفـــل الماسوني المنتشر في كل أنحاء العالم ليعمل في غفلة كقـــناع لأغراضـــنا. ولكن الفائدة التي نحن دائبون على تحقيقها من هذه القوة في خطة عملنا وفي مركز قيادتنا ما تزال على الدوام غير معروفة للعالم كثيرا.

يمكـــن ألا يكون للحرية ضرر. وأن تقوم في الحكومات والبلدان من غير أن تكـــون ضارة بسعادة الناس، لو أن الحرية كانت مؤسسة على العقيدة وخشية الله، وعلى الأخوة والإنسانية، نقية من أفكار المساواة التي هي مناقضة مباشرة لقوانين الخلـــق. والتـــي فرضـــت التسليم. أن الناس محكومين بمثل هذه الإيمان سيكونون موضـــوعين تحـــت حمايـــة كنائسهم*(المقصود بكنائسهم الهيئات الدينية المختلفة) وسيعيشـــون في هدوء واطمئنان وثقة تحت إرشاد أئمتهم الروحيين، وسيخضعون لمشيئة الله على الأرض. وهذا هو السبب الذي يحتم علينا أن ننتزع فكرة الله ذاتها من عقول المسيحيين، وأن نضع مكانها عمليات حسابية وضرورات مادية.

ثـــم لكـــي نحـــول عقول المسيحيين عن سياستنا سيكون حتما علينا أن نبقيهم منهمكيـــن فـــي الصناعة والتجارة، وهكذا ستتصرف كل الأمم إلى مصالحها. ولن

تفطن في هذا الصراع العالمي إلى عدوها المشترك. ولكن لكي تزلزل الحرية حياة الأمميين الاجتماعية زلزالا، وتدمرها تدميرا يجب علينا أن نضع التجارة على أساس المضاربة.

وستكون نتيجة هذا أن خيرات الأرض المستخلصة بالاستثمار لن تستقر في أيدي الأمميين بل ستعبر خلال المضاربات إلى خزائننا. أن الصراع من أجل التفوق. والمضاربة في عالم الأعمال ستخلقان مجتمعا أنانيا غليظ القلب منحل الأخلاق. هذا المجتمع سيصير منحلا كل الانحلال ومبغضا أيضا الدين والسياسة. وستكون شهوة الذهب رائده الوحيد. وسيكافح المجتمع من أجل الذهب متخذا الذات المادية التي يستطيع أن يمده بها الذهب مذهبا أصيلا. وحينئذ ستنضم إلينا الطبقات الوضيعة ضد منافسينا الذين هم الممتازون من الأمميين، دون احتجاج بدافع نبيل، ولا رغبة في الثورات أيضا بل تنفيسا عن كراهيتهم المحضة للطبقات العليا.

البروتوكول الخامس :

ما نوع الحكومة الذى يستطيع المرء أن يعالج به مجتمعات تفشت الرشوة والفساد فى كل أنحائها: حيث الغنى لا يتوصل إليه إلا بالمفاجآت الماكرة، ووسائل التدليس، وحيث الخلافات متحكمة على الدوام، والفضائل فى حاجة إلى أن تعززها العقوبات والقوانين الصارمة، لا المبادئ المطاعة عن رغبة، وحيث المشاعر الوطنية والدينية مستغرقة فى العقائد العلمانية.

ليست صورة الحكومة التى يمكن أن تعطاها هذه المجتمعات بحق ألا صورة الاستبداد التى سأصفها لكم.

إننا سننظم حكومة مركزية قوية، لكى نحصل على القوى الاجتماعية لأنفسنا. وسنضبط حياة رعايانا السياسية بقوانين جديدة كما لو كانوا أجزاء كثيرة جداً فى جهاز. ومثل هذه القوانين ستكبح كل حرية، وكل نزعات تحررية يسمح بها الأمميون (غير اليهود)، وبذلك يعظم سلطاننا فيصير استبداداً يبلغ من القوة أن يستطيع فى أى زمان وأى مكان سحق الساخطين المتمردين من غير اليهود.

سيقال أن نوع الاستبداد الذى اقترحه لن يناسب تقدم الحضارة الحالى، غير أنى سأبرهن لكم على أن العكس هو الصحيح. إن الناس حينما كانوا ينظرون إلى ملوكهم نظرهم إلى إرادة الله كانوا يخضعون فى هدوء لاستبداد ملوكهم. ولكن منذ

اليوم الذى أوحينا فيه إلى العامة بفكرة حقوقهم الذاتية – أخذوا ينظرون إلى الملوك نظــرهم إلـــى أبـــناء الفناء العاديين. ولقد سقطت المسحة المقدسة (أى زالت عنهم مســحة القداســـة وأنكر الناس على الملوك الحق الإلهى المطلق فى حكم الشعوب) رءوس الملوك فى نظر الرعاع، وحينما انتزعنا منهم عقيدتهم هذه انتقلت القوة إلى الشوارع (أى صارت السلطة للشعوب لا الملوك وصارت الأمم مصدر السلطات) فصـــارت كـــالملك المشاع، فاختطفناها. ثم إن من بين مواهبنا الإدارية التى نعدها لأنفســنا موهــبة حكــم الجماهــير والأفراد بالنظريات المؤلفة بدهاء، وبالعبارات الطنانة، وبسنن الحياة وكل أنواع الخديعة الأخرى. كل هذه النظريات التى لا يمكن أن يفهمهـــا الأممـــيون أبـــداً مبنية على التحليل والملاحظة ممتزجين بفهم يبلغ من براعـــته الا يجارينا فيه منافسونا أكثر مما يستطيعون أن يجارونا فى وضع خطط للأعمـــال السياســـية والاغتصاب. وإن الجماعة المعروفة لنا ويمكن أن تنافسنا فى هـــذه الفـــنون ربما تكون جماعة اليسوعيين Jesuits، ولكننا نجحنا فى أن نجعلهم هـــزواً وسخرية فى أعين الرعاع الأغبياء، وهذه مع أنها جماعة ظاهرة بينما نحن أنفسنا باقون فى الخفاء محتفظون بمنظمتنا سراً.

ثـــم ما الفرق بالنسبة للعالم بين أن يصير سيده هو رأس الكنيسة الكاثوليكية، وأن طاغية من دم صهيون؟

و لكن لا يمكن أن يكون الأمراء سواء بالنسبة الينا نحن ((الشعب المختار)). قـــد يتمكن الأمميون فترة من أن يسوسونا ولكنا مع ذلك لسنا فى حاجة إلى الخوف من أى خطر مادمنا فى أمان بفضل البذور العميقة لكراهيتهم بعضهم بعضاً، وهى كراهية متأصلة يمكن انتزاعها.

لقـــد بذرنا الخلاف بين كل واحد وغيره فى جميع أغراض الأمميين الشخصية والقومـــية، بنشر التعصبات الدينية والقبلية خلال عشرين قرناً. ومن هذا كله تتقرر حقـــيقة: هـــى أن أى حكومة منفردة ان تجد لها سنداً من جارتها حين تدعوها إلى مساعدتها ضدنا هو نكبة على كيانها الذاتى (هذه محنة من شر المحن التى تقاسيها الشـــعوب الـــتى عظم فيها نفوذ اليهود، لأن هذا النفوذ غالباً يستعمل ضد مصلحة الشعوب، وإذا أرادت الأمة التخلص منه لم تستطع إلا بتضحية كثير من مصالحها لشـــدة الـــترابط بيـــن مصالحها ومصالح اليهود، كما حدث فى ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى).

نحـن أقويـاء جداً، فعلى العالم أن يعتمد علينا وينيب إلينا. وإن الحكومات لا تستطيع أبداً أن تبرم معاهدة ولو صغيرة دون أن نتدخل فيها سراً.

(بحكمـي فلـيحكم الملوك Per me reges regunt إننا نقرأ فى شريعة الأنبياء أنـنا مخـتارون من الله لنحكم الأرض، وقد منحنا الله العبقرية، كى نكون قادرين على القيام بهذا العمل. إن كان فى معسكر أعدائنا عبقرى فقد يحاربنا، ولكن القادم الجديد لن يكون كفؤاً لأيد عريقة كأيدينا (أى أن العبقرى الجديد – كما يرون – لن يبلغ فى المقدرة على الحكم مبلغ حكماء صهيون الذين تدربوا على سياسة الجماهير مـنذ قـرون يورث خلالها السابقون منهم اللاحقين أسرار السياسة ويدربونهم على الحكم).

إن القتال بيننا سيكون ذا طبيعة متهورة لم ير العالم لها مثيلاً من قبل. والوقت مـتأخر بالنسـبة إلى عباقرتهم. وإن عجلات جهاز الدولة كلها تحركها قوة، وهذه القوة فى أيدينا هى التى تسمى الذهب.

وعلـم الاقتصاد السياسى الذى محصه علماؤنا الفحاطل قد برهن على أن قوة رأس المال أعظم من مكانة التاج.

ويجـب الحصـول على احتكار مطلق للصناعة التجارة، ليكون لرأس المال مجال حر، وهذا ما تسعى لاستكماله فعلاً يد خفية فى جميع أنحاء العالم. ومثل هذه الحـرية سـتمنح الـتجار قوة سياسية، وهؤلاء التجار سيظلمون الجماهير بانتهاز الفرص.

وتجـريد الشـعب مـن السـلاح هذه الأيام (إن تجريد الشعوب من السلاح، وخاصـة فـى الأوقات التى يتهددها فيها خطر خارجى، يخمد فى قلوبها الشجاعة والنخوة، ويغريها باليأس والاستسلام) أعظم أهمية من دفعه إلى الحرب، واهم من ذلـك أن نسـتعمل العواطف المتأججة فى أغراضنا بدلاً من إخمادها، وأن نشجع أفكـار الآخريـن ونسـتخدمها فى أغراضنا بدلاً من محوها. إن المشكلة الرئيسية لحكومتـنا هـى: كـيف تضعف عقول الشعب بالانتقاد (إن النقد على غير أساس صـحيح يـربك العقول ويضللها، ويغريها بالإفراط فى الجدال لمحض الجدل، لا لرغـبة فـى معرفة الحق، وهو من شر البلايا التى تسلط على الشعوب الجاهلة، فلـيعرف ذلك المتطرفون فى الدين والوطنية) وكيف تفقدها قوة الإدراك التى تخلق نزعة المعارضة، وكيف تسحر عقول العامة بالكلام الأجوف.

فـــى كـــل الأمـــان كانت الأمم – مثلها مثل الأفراد – تأخذ الكلمات على أنها أفعال، كأنما هى قانعة بما تسمع، وقلما تلاحظ ما إذا كان الوعد قابلاً للوفاء فعلاً أم غـــير قـــابل لـــه. ولذلك فإننا – رغبة فى التظاهر فحسب – سننظم هيئات يبرهن أعضـــاؤها بالخطب البليغة على مساعدتهم فى سبيل ((التقدم)) ويثنون عليها (هذه حقيقة جديرة بالالتفات فى السياسة، والزعماء الدجالون يلجأون فى تضليل الشعوب إلـــى الوعود البراقة، وأن الجماهير الجاهلة تميل دائماً إلى تصديقها غفلة، أو أملاً كاذباً فى تغيير الحال، أو ثقة خادعة بالزعماء، أو كل ذلك ونحوه).

وســـنزيف مظهراً تحررياً لكل الهيئات وكل الاتجاهات، كما أننا سنضفى هذا المظهـــر على كل خطباتنا. وهؤلاء سيكونون ثرثارين بلا حد، حتى أنهم سنهكون الشعب بخطبهم، وسيجد الشعب خطابة من كل نوع أكثر مما يكفيه ويقنعه.

ولضـــمان الـــرأى العـــام يجب أولاً أن نحيره كل الحيرة بتغييرات من جميع الـــنواحى لكـــل أســـاليب الآراء المتناقضة حتى يضيع الأمميون (غير اليهود) فى متاهـــتهم. وعندئذ سيفهمون أن خير ما يسلكون من طرق هو أن لا يكون لهم رأى فى المسائل السياسية. هذه المسائل ليقصد منها أن يدركها الشعب بل يجب أن تظل من مسائل القادة الموجهين فحسب، وهذا هو السر الأول.

والسر الثانى (هذان السران من أخطر الأسرار السياسية، وعليهما تبنى النتائج الخطـــيرة المشـــار إلى بعضها فى الفقرة التالية لهما) – وهو ضرورى لحكومتنا الـــناجحة – أن تتضاعف وتتضخم الأخطاء والعادات والعواطف والقوانين العرفية فـــى الـــبلاد، حتى لا يستطيع إنسان أن يفكر بوضوح فى ظلامها المطبق، وعندئذ يتعطل فهم الناس بعضهم بعضاً.

هـــذه السياسة ستساعدنا أيضاً فى بذر الخلافات بين الهيئات، وفى تفكيك كل القـــوى المجتمعة، وفى تثبيط كل تفوق فردى ربما يعوق أغراضنا بأى أسلوب من الأساليب.

لا شيء أخطر من الامتياز الشخصى؛ فإنه إذا كانت وراءه عقول فربما يضرنا أكثر مما تضرنا ملايين الناس الذين وضعنا يد كل منهم على رقبة الآخر ليقتله.

يجـــب أن نوجه تعليم المجتمعات المسيحية (هذا يشمل أيضا المجتمعات غير المسيحية) فى مثل هذا الطريق: فكلما احتاجوا إلى كفء لعمل من الأعمال فى أى حال من الأحوال سقط فى أيديهم وضلوا فى خيبة بلا أمل.

إن النشاط الناتج عن حرية العمل يستنفد قوته حينما يصطدم بحرية الآخرين، ومن هنا تحدث الصدمات الأخلاقية وخيبة الأمل والفشل.

بكـــل هذه الوسائل سنضغط على المسيحيين (ليست عداوة اليهود مقصورة على المســـيحيين بل تشمل كل من عدا اليهود، وهم يختصونهم بالذكر لأن الأمم المسيحية أكـــثر وأقوى مما عداها، فإذا انتصر اليهود عليهم سهل أن ينتصروا على المسلمين والبوذييـــن ونحوهـــم كما أشاروا إلى ذلك فى مواضع هنا)، حتى يضطروا إلى أن يطلـــبوا مـــنا أن نحكمهـــم دولياً. وعندما نصل إلى هذا المقام سنستطيع مباشرة أن نســـتنزف كـــل قـــوة الحكم فى جميع أنحاء العالم، وأن نشكل حكومة عالمية عليا. وسنضع موضع الحكومات القائمة مارداً يسمى إدارة الحكومة العليا Administration of the super government وســـتمتد أيديـــه كالمخالب الطويلة المدى، وتحت إمرته سيكون له نظام يستحيل معه أن يفشل فى إخضاع كل الأقطار.

البروتوكول السادس :

ســـنبدأ ســـريعا بتنظيم احتكارات عظيمة - هى صهاريج للثروة الضخمة - لتستغرق خلالها دائما الثروات الواسعة للأمميين (غير اليهود) إلى حد أنها ستهبط جمـــيعها وتهبط معها الثقة بحكومتها يوم تقع الأزمة السياسية (المقصود أن اليهود سيسحبون أموالهم فى اللحظة الأخيرة).

وعلى الاقتصاديين الحاضرين بينكم اليوم أن يقدروا أهمية هذه الخطة.

لقـــد انتهت أرستقراطية الأمميين كقوة سياسية، فلا حاجة لنا بعد ذلك إلى أن ننظر إليها من هذا الجانب. لكن الأرستقراطيين من حيث هم ملاك أرض ما يزالوا خطـــرا عليـــنا؛ لأن معيشـــتهم المستقلة مضمونة لهم بمواردهم. ولذلك يجب علينا وجوبـــا أن نجرد الأرستقراطيين من أراضيهم بكل الأثمان، وأفضل الطرق لبلوغ هـــذا الغرض هو فرض الأجور والضرائب. إن هذه الطرق ستبقى منافع الأرض فى أحط مستوى ممكن، وسرعان ما سينهار الأرستقراطيين من الأمميين، لأنهم - بمـــا لهـــم من أذواق موروثة (أى أن الأرستقراطيين بما اعتادوه ونشئوا عليه من حب للترف وغرام للبذخ ل يستطيعون أن يقنعوا بالمال القليل الذى تمدهم به غلات الأرض حيـــن تـــنحدر فى مستوى خفيض، فيضطرون إلى التنازل عن أراضيهم بالبيع أو الرهن) - غير قادرين على القناعة بالقليل.

وفـــي الوقت نفسه يجب أن نفرض كل سيطرة ممكنة على الصناعة والتجارة وعلى المضاربة بخاصة فان الدور role الرئيسى لها أن تعمل كمعادل للصناعة.

وبـــدون المضــــاربة ســـتزيد الصناعة رءوس الأموال الخاصة، وستتجه إلى إنهـــاض الزراعة بتحرير الأرض من الديون والرهون العقارية التى تقدمها البنوك الزراعـــية. وضــــرورى أن تستنزف الصناعة من الأرض كل خيراتها وأن تحول المضاربات كل ثروة العالم المستفادة على هذا النحو إلى أيدينا.

وبهـــذه الوسيلة سوف يقذف بجميع الأمميين (غير اليهود) إلى مراتب العمال الصعاليك, Proletariat وعندئذ يخر الأمميون أمامنا ساجدين ليظفروا بحق البقاء.

ولكـــى نخـــرب صناعة الأمميين، ونساعد المضاربات؛ سنشجع حب الترف المطلـــق الذى نشرناه من قبل، وسنزيد الأجور التى لن تساعد العمال، كما أننا فى الوقـــت نفسه سنرفع أثمان الضروريات الأولية متخذين سؤ المحصولات الزراعية عـــذرا عـــن ذلـــك (رفع أجور العمال يرهق أصحاب الأعمال، وقد يعجزهم عن الاســـتمرار فى عملهم، وفى الوقت نفسه قد لا يستفيد العمال من رفع الأجور لأن أثمـــان المواد الضرورية مرتفعة فيضطرون إلى أنفاق أجورهم مهما ترتفع، على حيـــن يغريهم اليهود بإدمان المسكرات ويثيرون فى نفوسهم عوامل الحسد والسخط علـــى حـــياتهم، وخـــير ما تحارب به هذه الفكرة خفض أسعار المواد الضرورية ليســـتطيع العامل أن يعيش بأجره ولو كان منخفضا، وإفهامه أن حقه على المجتمع أن يكفـــل له ما يعيش به لا أن يكون فى غنى فلان وغيره، وليلاحظ القارئ سباق فـــئات الموظفيـــن فى الحكومات والشركات فى المطالبة برفع الأجور، وهى حال سيئة تقوم الآن فى بعض بلادنا) كما سننسف بمهارة أيضا أسس الإنتاج ببذر بذور الفوضـــى بيـــن العمـــال، وبتشـــجيعهم علـــى إدمان المسكرات. وفى الوقت نفسه سنستعمل كل وسيلة ممكنة لطرد كل ذكاء أممى (غير يهودى) من الأرض. ولكيلا يتحقق الأمميون من الوضع الحق للأمور قبل الأوان؛ سنستره برغبتنا فى مساعدة الطبقات العاملة على حل المشكلات الاقتصادية الكبرى ز ان الدعاية التى لنظرياتنا الاقتصادية تعاون على ذلك بكل وسيلة ممكنة.

البروتوكول السابع :

أن ضخامة الجيش، وزيادة القوة البوليسية ضروريتان لإتمام الخطط السابقـــة

الذكـر. وأنــه ضرورة لنا، كي نبلغ ذلك. أن لا يكون إلى جوانبنا في كل الأقطار شئ بعد إلا طبقة صعاليك ضخمة، وكذلك جيش كثير وبوليس مخلص لأغراضنا.

فـي كـل أوربـا، وبمسـاعدة أوربا يجب أن ننشر في سائر الأقطار الفتنة والمنازعات والعدوات المتبادلة. فان في هذه فائدة مزدوجة: فأما أولا بهذه الوسائل سـنتحكم فـي أقدار كل الأقطار التي تعرف حق المعرفة أن لنا القدوة على خلق الاضـطرابات كما نريد، مع قدرتنا على إعادة النظام، وكل البلاد معتادة على أن تـنظر إلينـا مسـتغيثة عـند إلحاح الضرورة متى لزم الأمر. وأما ثانيا فبالمكايد والدسـائس، وسـوف نصطاد بكل أحابيلنا وشباكنا التي نصبنها في وزارات جميع الحكومـات، ولم نحبكها بسياستنا فحسب، بل بالاتفاقات الصناعية والخدمات المالية أيضا.

ولكـي نصـل إلـى هذه الغايات يجب علينا أن ننطوي على كثير من الدهاء والخبـث خلال المفوضات والاتفاقات، ولكننا فيما يسمى ((اللغة الرسمية)) سوف نـتظاهر بحركات عكس ذلك، كي نظهر بمظهر الأمين المتحمل للمسئولية. وبهذا ستنظر دائما إلينا حكومات الأمميين التي علمناها أن تقتصر في النظر على جانب الأمور الظاهرة وحدها كأننا متفضلون ومنقذون للإنسانية.

ويجـب علينـا أن نكـون مستعدين لمقابلة كل معارضة بإعلان الحرب على جانـب ما يجاورنا من بلاد تلك الدولة التي تجرؤ على الوقوف في طريقنا. ولكن إذا غـدر هـؤلاء الجيران فقرروا الاتحاد ضدنا فالواجب علينا أن نجيب على ذلك بخلق حرب عالمية.

أن النجاح الأكبر في السياسة يقوم على درجة السرية المستخدمة في اتباعها، وأعمال الدبلوماسي لا يجب أن تطابق كلماته. ولكي نعزز خطتنا العالمية الواسعة التـي تقترب من نهايتها المشتهاة يجب علينا أن نتسلط على حكومات الأمميين بما يقـال له الآراء العامة التي نديرها نحن في الحقيقة من قبل، متوسلين بأعظم القوى جمـيعا. وهـي الصحافة، وأنها جميعا لفي أيدينا إلا قليلا لا نفوذ له ولا قيمة يعتد بها.

وبإيجاز، من أجل أن نظهر استعبادنا لجميع الحكومات الأممية في أوربا سوف نبيـن قوتـنا لواحدة منها متوسلين بجرائم العنف وذلك هو ما يقال له حكم الإرهاب وإذا اتفقوا جميعا ضدنا فعندئذ سنجيبهم بالمدافع الأمريكية أو الصينية أو اليابانية.

البروتوكول الثامن :

يجب أن نأمن كل الآلات التي قد يوجهها أعداؤنا ضدنا. وسوف نلجأ إلى أعظم التعبيرات تعقيداً وإشكالاً في معظم القانون – لكي نخلص أنفسنا – إذا أكرهنا على إصدار أحكام طائشة أو ظالمة، لأنه سيكون هاماً أن نعبر عن هذه الأحكام بأسلوب محكم، حتى تبدو للعامة أنها من أعلى نمط أخلاقي، وأنها عادلة وطبيعية حقاً. ويجب أن تكون حكومتنا محوطة بكل قوى المدينة التي ستعمل خلالها. إنها ستجذب إلى نفسها الناشرين والمحامين والأطباء ورجال الإدارة والدبلوماسيين، ثم القوم المنشئين في مدارسنا التقدمية الخاصة ((لا يخلوا قطر في العالم من صنائع اليهود بين هذه الطوائف المذكورة وغيرها ينفذون خطط صهيون ويخدمونها عن وعي وعن غير وعي)). هؤلاء القوم سيعرفون أسرار الحياة الاجتماعية، فسيتمكنون من كل اللغات مجموعة في حروف وكلمات سياسية، وسيفقهون جيداً في الجانب الباطني للطبيعة الإنسانية بكل أوتارها هي التي تشكل عقول الأمميين، وصفاتهم الصالحة والطالحة، وميولهم وعيوبهم، من عجيب الفئات والطبقات. وضروري أن مستشاري سلطتنا هؤلاء الذين أشير هنا إليهم – لن يختاروا من بين الأمميين (غير اليهود) الذين اعتادوا أن يحتملوا أعباء أعمالهم الإدارية دون أن يتدبروا بعقولهم النتائج التي يجب أن ينجزوها، ودون أن يعرفوا الهدف من وراء هذه النتائج. إن الإداريين من الأمميين يؤشرون على الأوراق من غير أن يقرءوها ويعملون حباً في المال أو الرفعة، لا للمصلحة الواجبة.

إننا سنحيط حكومتنا بجيش كامل من الاقتصاديين، وهذا هو السبب في علم الاقتصاد هو الموضوع الرئيسي الذي يعلمه اليهود. وسنكون محاطين بألوف من رجال البنوك، وأصحاب الصناعات، وأصحاب الملايين – وأمرهم لا ينال أعظم قدراً – إذ الواقع أ، كل شيء سوف يقرره المال. ومادام ملء المناصب الحكومية بإخواننا اليهود في أثناء ذلك غير مأمون بعد – فسوف نعهد بهذه المناصب الخطيرة إلى القوم الذين ساءت صحائفهم وأخلاقهم، كي تقف مخازيهم فاصلاً بين الأمة وبينهم، وكذلك سوف نعهد بهذه المناصب الخطيرة إلى القوم الذين إذا عصوا أوامرنا توقعوا المحاكمة والسجن ((إن اليهود إنما يختارون عملائهم غالباً من هؤلاء، فهم دائماً يحاولون استغلال أحط العناصر من أحط مشاعر النفس الإنسانية، وقد انتشر عملائهم على هذا النحو في ميادين كثيرة لاسيما الإدارة الحكومية

والصـــحافة. وفى بلادنا العربية وغيرها كثير من عملائهم ذوى الصحائف السود بيـــن الأدبـــاء والـــوزراء ورجال الشركات ونحوهم. وهؤلاء العملاء ذوو ميول ونـــزعات مختلفة فى الظاهر غالباً، وهم مندسون بين كل الطوائف والطبقات حتى الخدم فى البيوت، والعاهرات مكشوفات ومستورات، والفنانين والفنانات والمطربين والمطـــربات والوصيفات فى البيوت الثرية، وزعماء الشعوب وقادة الفكر، بل ان رجـــال الأديـــان مسيحيين ومسلمين لا يخلون من عناصر يهودية أو عناصر من عمـــلاء اليهود تعمل لمصلحتهم، أو عناصر من أصول يهودية تنصرت أو أسلمت لتـــندمج مـــع المسيحيين والمسلمين دون أن تثير ريبتهم، وخاصة أن من أغراض الـــيهود القضـــاء على جميع الأديان، والتوصل لذلك باتخاذ عملاء لهم من رجال الأديـــان، أو دس يهـــود يدخلون فى المسيحية أو الإسلام للكيد والهدم من الداخل، وهـــناك طائفة عددها ٤٠٠ أسلموا فى مصر سنة ١٩٣٨، ١٩٤٢، وقد أشاروا فى الـــبروتوكولات إلى خطتهم ليصلوا إلى جعل بابا الفاتيكان منهم وهذا ليس بغريب علـــى من عرف من تاريخهم فى المسيحية والإسلام عشرات الأمثلة على ذلك)). والغـــرض من كل هذا أ،هم سيدافعون عن مصالحنا حتى النفس الأخير الذى تنفث صدورهم به.

البروتوكول التاسع :

عليكم أن توجهوا التفاتا خاصا في استعمال مبادئنا إلى الأخلاق الخاصة بالأمة التـــي أنـــتم بهـــا محـــاطون، وفيها تعملون. وعليكم ألا تتوقعوا نجاحا خلالها في اســـتعمال مبادئـــنا بكل مشتملاتها حتى يعاد تعليم الأمة بآرائنا، ولكنكم إذا تصرفتم بســـداد فـــي استعمال مبادئنا فستكتشفون أنه قبل مضي عشر سنوات سيتغير أشد الأخلاق تماسكا، وسنضيف كذلك أمة أخرى إلى مراتب تلك الأمم التي خضعت لنا من قبل.

أن الكلمـــات الـــتحررية لشعارنا الماسوني هي ((الحرية والمساواة والإخاء)) وسوف لا نبدل كلمات شعارنا، بل نصوغها معبرة عن فكرة، وسوف نقول: ((حق الحرية، وواجب المساواة، وفكرة الإخاء)).

وبهـــا سنمســـك الثور من قرنيه، وحينئذ نكون قد دمرنا في حقيقة الأمر كل القـــوى الحاكمة إلا قوتنا، وإن تكن هذه القوة الحاكمة نظريا ما تزال قائمة. وحين

تقف حكومة من الحكومات نفسها موقف المعارضة لنا في الوقت الحاضر فإنما ذلك أمر صوري، متخذ بكامل معرفتنا ورضانا، كما أننا محتاجون إلى انفجاراتهم المعادية للسامية، كي ما نتمكن من حفظ إخواننا الصغار في النظام.

وحقيقة الأمر أننا لا نلقي معارضة، فإن حكومتنا من حيث القوة الفائقة جدا ذات مقام في نظر القانون يتأدى بها إلى حد أننا قد نصفها بهذا التعبير الصارم: الدكتاتورية. وأنني أستطيع في ثقة أن أصرح اليوم بأننا أصحاب التشريع، وأننا المتسلطون في الحكم، والمقررون للعقوبات، وأننا نقضي بإعدام من نشاء ونعفو عمن نشاء، ونحن كما هو الواقع أولو الأمر الأعلون في كل الجيوش. ونحن نحكم بالقوة القاهرة، لأنه لا تزال في أيدينا الفلول التي كانت الحزب القوي من قبل، وهي الآن خاضعة لسلطتنا. أن لنا طموحا لا يحد، وشرها لا يشبع، ونقمة لا ترحم. أننا مصدر إرهاب بعيد المدى. وأننا نسخر في خدمتنا أناسا من جميع المذاهب والأحزاب: رجال يرغبون في إعادة إنشاء الملكيات، واشتراكيين، وشيوعيين، وحالمين بكل أنواع الطوبيات (هي المدينة الفاضلة)، ولقد وضعناهم جميعا تحت السرج، وكل منهم على طريقته الخاصة ينسف ما بقى من السلطة، ويحاول أن يحطم كل القوانين القائمة.و بهذا التدبير تتعذب الحكومات، وتصرخ طلبا للراحة، وتستعد من أجل السلام لتقديم أي تضحية، ولكننا لن نمنحهم أي سلام حتى يعترفوا في ضراعة بحكومتنا الدولية العليا.

أننا نخشى تحالف القوة الحاكمة في الأمميين مع قوة الرعاع العمياء، غير أننا قد اتخذنا كل الاحتياطات لنمنع احتمال وقوع هذا الحادث. فقد أقمنا بين القوتين سدا قوامة الرعب الذي تحسه القوتان كل من الأخرى. وهكذا تبقى قوة الشعب سندا إلى جانبا، وسنكون وحدنا قادتها، وسنوجهها لبلوغ أغراضنا.

ولكي لا تتحرر أيدي العميان من قبضتنا فيما بعد يجب أن نظل متصلين بالطوائف اتصالا مستمرا، وهو أن لم يكن شخصيا فهو على أي اتصال من خلال أشد إخواننا إخلاصا، وعندما نصير قوة معروفة سنخاطب العامة شخصيا في المجامع السوقية، وسنثقفها في الأمور السياسية في أي اتجاه يمكن أن يلتئم مع ما يناسبنا.

وكيف نستوثق مما يتعلمه الناس في مدارس الأقاليم؟ من المؤكد أن ما يقوله رسل الحكومة، أو ما يقوله الملك نفسه لا يمكن أن يخيب في الذيوع بين الأمة كلها، لأنه سرعان ما ينتشر بلغط الناس.

ولقــد خدعــنا الجيل الناشئ من الأمميين، وجعلناه فاسدا متعفنا بما علمناه من مــبادئ. ونظريات معروف لدينا زيفها التام، ولكننا نحن أنفسنا الملقنون لها. ولقد حصــلنا على نتائج مفيدة خارقة من غير تعديل فعلي للقوانين السارية من قبل، بل بتحريفها في بساطة، وبوضع تفسيرات لها لم يقصد إليها مشرعوها.

وقد صارت هذه النتائج أولا ظاهرة بما تحقق من أن تفسيراتنا قد غطت على المعنى الحقيقي، ثم مسختها تفسيرات غامضة إلى حد أنه استحال على الحكومة أن توضح مثل هذه المجموعة الغامضة من القوانين. ومن هنا قام مذهب عدم التمسك بحرفــية القــانون، بل الحكم بالضمير، ومما يتخلف فيه أن تستطيع الأمم النهوض بأسلحتها ضدنا إذا اكتشفت خططنا قبل الأوان. وتلافيا لهذا نستطيع أن نعتمد على القــذف فــي مــيدان العمل بقوة رهيبة سوف تملأ أيضا قلوب أشجع الرجال هولا ورعــبا. وعــندئذ ســتقام فــي كل المدن الخطوط الحديدية المختصة بالعواصم، والطــرقات الممتدة تحت الأرض. ومن هذه الأنفاق الخفية سنفجر وننسف كل مدن العالم، ومعها أنظمتها وسجلاتها جميعا.

البروتوكول العاشر :

الــيوم سأشرع فى تكرار ما ذكر من قبل، وأرجو منكم جميعاً أن تتذكروا أن الحكومــات والأمــم تقنع فى السياسة بالجانب المهرج الزائف من كل شيء، نعم، فكــيف يتاح لهم الوقت لكى يختبروا بواطن الأمور فى حين أن نوابهم الممثلين لهم لا يفكرون إلا فى الملذات؟

مــن الخطير جداً فى سياستنا أن تتذكروا التفصيل المذكور آنفاً، فإنه سيكون عونــاً كبــيراً لــنا حينما نناقش مثل هذه المسائل: توزيع السلطة، وحرية الكلام، وحــرية الصــحافة والعقيدة، وحقوق تكوين الهيئات، والمساواة فى نظر القانون، وحــرمة الممــتلكات والمســاكن، ومســألة فرض الضرائب (فكرة سرية فرض الضــرائب) والقوة الرجعية للقوانين. كل المسائل المشابهة لذلك ذات طبيعة تجعل مــن غــير المستحســن مناقشتها علناً أمام العامة. فحينما تستلزم الأحوال ذكرها للــرعاع يجب أن لا تحصى، ولكن يجب أن تنشر عنها بعض قرارات بغير مضى فــى التفصــيل. ســنعمل قرارات مختصة بمبادئ الحق المستحدث على حسب ما نرى. وأهمية الكتمان تكمن فى حقيقة أن المبدأ الذى لا يذاع علناً يترك لما حريــة

العمل، مع أن مبدأ كهذا إذا أعلن مرة واحدة يكون كأنه قد تقرر.

إن الأمة لتحفظ لقوة العبقرية السياسية احتراماً خاصاً، وتحتمل كل أعمال يدها العليا، وتحييها هكذا: "يالها من حيلة قذرة، ولكن يا لتنفيذها بمهارة" "ياله من تدليس، ولكن يا لتنفيذه بإتقان وجسارة!" ((المعنى أن السياسى إذا خدع الجماهير ثم عرفت بخديعته لم تحتقره ولم تضره، بل تقابل خداعه لها بالدهشة، معجبة ببراعته فى أنه خدعها فإذا قيل لها: إنه غشاش، قالت: ولكنه بارع، وإذا قيل: إنه دجال قذر، قالت: ولكنه شجاع.. فهى تغالط نفسها حتى لا تعترف أمام نفسها بخطئها، وهذا السر من أدق أصول السياسة.

إننا نعتمد على اجتذاب كل الأمم للعمل على تشييد الصرح الجديد الذى وضعنا نحن تصميمه. ولهذا السبب كان من الضرورى لنا أن نحصل على خدمات الوكلاء المغامرين الشجعان الذين سيكون فى استطاعتهم أن يتغلوا على كل العقبات فى طريق تقدمنا.

وحينما ننجز انقلابنا سنقول للناس: "لقد كان كل شيء يجرى فى غاية السوء، وكلكم قد تألمتم، ونحن الآن نمحق سبب آلامكم، وهو ما يقال له: القوميات، والعملات القومية، وأنتم بالتأكيد أحرار فى اتهامنا، ولكن هل يمكن أن يكون حكمكم نزيها إذا نطقتم به قبل أن تكون لكم خبرة بما نستطيع أن نفعل من أجل خيركم؟" ((إن الشيوعية اليهودية كانت تنفذ هذه الخطة فى روسيا، وشبيه بهذا ما يحدث عقب انقلاب سياسى فى أمه إذ ينعى أصحابه على سابقيهم أخطاءهم ويكبرونها ويتزيدون عليها ويرسمونها فى أشنع الصور، وهم يحرصون على ذلك أكثر من حرصهم علة بيان محاسن حكمهم الجديد، سواء كانوا خيراً من السابقين أو شراً منهم، والدهماء كالأنعام لا يميزون الخبيث من الطيب، ولكن العلية فى أعلى الأمم وأدناها هم المسئولون عن ذلك خيره وشره، حتى حين يغلبهم السفهاء)).

حينئذ سيحملوننا على أكتافهم عالياً فى انتصار وأمل وابتهاج. وإن قوة التصويت التى دربنا عليها الأفراد التافهين من الجنس البشرى بالاجتماعات المنظمة وبالاتفاقات المدبرة من قبل، ستلعب عندئذ دورها الأخير، وهذه القوة التى توسلنا بها، كى "نضع أنفسنا فوق العرش"، ستؤدى لنا ديننا الأخير وهى متلهفة، كى ترى نتيجة قضيتنا قبل أن تصدر حكمها.

ولكى نحصل على أغلبية مطلقة - يجب أن نقنع كل فرد بلزوم التصويت من غـير تمييز بين الطبقات. فإن هذه الأغلبية لن يحصل عليها من الطبقات المتعلمة، ولا من مجتمع مقسم إلى فئات.

فـإذا أوحينا إلى عقل كل فرد فكرة أهميته الذاتية فسوف ندمر الحياة الأسرية ((كان اليهود يحاولون تحطيم نظام الأسرة فى روسيا لأنه أقوى عقبة ضد نظامهم بـل ويحاربونه علمياً فى كل مكان كما يظهر من آراء "دوركايم" اليهودى فى علم الاجتماع فى فرنسا)) بين الأمميين، وتفسد أهميتها التربوية، وسنعوق الرجال ذوى العقول الحصيفة عن الوصول إلى الصدارة، وإن العامة - تحت إرشادنا - ستبقى علـى تأخر أمثال هؤلاء الرجال، ولن تسمح لهم أبداً أن يقرروا لهم خططاً ((هذه الخطـة تـنفذ اليوم بنجاح عظيم، والجماهير التى لا تحسن تقدير الأمور التى فوق مسـتواها، لا يعنيها إلا اللغط بما يقال لها دون تمييز، بل كلما انحط الشىء - ولو كان كذباً أو خطأ - كان أقرب إلى ذوقها وأرضى لها)).

لقـد اعـتاد الـرعاع أن يصـغوا إلينا نحن الذين نعطيهم المال لقاء سمعتهم وطاعـتهم. وبهذه الوسائل سنخلق قوة عمياء إلى حد أنها لن تستطيع أبداً أن تتخذ أى قرار دون إرشاد وكلائنا الذين نصبناهم لغرض قيادتها.

وسيخضـع الرعاع لهذا النظام لأنهم سيعرفون أن هؤلاء القادة مصدر أجورهم وأربـاحهم وكل منافعهم الأخرى. إن نظام الحكومة يجب أن يكون عمل رأس واحد، لأنـه سـيكون من المحال تكتيله إذا كان عملاً مشتركاً بين عقول متعددة، وهذا هو السـبب فـى أنه لا يسمح لنا إلا بعرفة خطة العمل، بل يجب ألا نناقشها بأى وسيلة، حـتى لا نفسد تأثيرها، ولا نعطل وظائف أجزائها المنفصلة، ولا المعنى العملى لكل عنصر فيها، فلو نوقشت مثل هذه الخطط، وغيرت بتوالى الخضوع للتنقيحات - إذن لاختلطـت بعـد ذلك بنتائج كل إساءات الفهم العقلية التى تنشأ من أن المصوتين لا يسـبرون الأغـوار العمـيقة لمعانيها، ولذلك لابد أن تكون خططنا نهائية وممحصة تمحيصـاً منطقـياً. وهذا هو السبب فى أننا يجب أن لا نرمى العمل الكبير من قائدنا ليتمزق أجزاء على أيدى الرعاع ولا على أيدى عصبة صغيرة أيضاً.

إن هـذه الخطـط لن تقلب اليوم الدساتير والهيئات القائمة، بل ستغير نظريتها الاقتصـادية فحسب، ومن ثم كل طريق تقدمها الذى لابد له حينئذ أن يتبع الطريق الذى تفرضه خططنا.

فـــى كـــل الـــبلاد تقـــوم هذه الهيئات ذاتها ولكن تحت أسماء مختلفة فحسب: فمجـــالس نـــواب الشـــعب، والـــوزارات، والشيوخ، ومجالس العرش من كل نوع ومجالس الهيئات التشريعية والإدارية.

ولا حاجـــة بـــى إلـــى أن أوضـــح لكم التركيب الذى يربط بين هذه الهيئات المخـــتلفة، فهو معروف لكم من قبل معرفة حسنة. ولتلاحظوا فحسب أن كل هيئة مـــن الهيـــئات السالفة الذكر توافق وظيفة مهمة فى الحكومة. (إنى أستعمل الكلمة "مهمة" لا إشارة إلى الهيئات بل إشارة إلى وظائفها).

لقد اقتسمت هذه الهيئات فيما بين أنفسها كل وظائف الحكومة التى هى السلطة القضـــائية والســـلطة التشـــريعية والســـلطة التنفيذية. وقد صارت وظائفها مماثلة لوظائف الأعضاء المتميزة المتنوعة من الجسم الإنسانى.

فـــإذا آذينا أى جزء فى الجهاز الحكومى فستسقط الدولة مريضة كما يمرض الجســـم الإنســـانى، ثم يموت. وحينما حقنا نظام الدولة بسم الحرية تغيرت سحنتها السياســـية، وصـــارت الدولـــة موبـــوءة بمـــرض مميت، وهو مرض تحلل الدم Decomposition of the blood ولم يبق لها إلا ختام سكرات الموت.

لقـــد ولـــدت الحرية الحكومات الدستورية التى احتلت مكان الأوتقراطية وهى وحدها صورة الحكومة النافعة لأجل الأمميين (غير اليهود). فالدستور كما تعلمون لـــيس أكثر من مدرسة للفتن والاختلافات والمشاحنات والهيجانات الحزبية العقيمة، وهـــو بإيجاز مدرسة كل شىء يضعف نفوذ الحكومة. وإن الخطابة، كالصحافة، قد مالـــت إلـــى جعل الملوك كسالى ضعافاً، فردتهم بذلك عقماء زائدين على الحاجة، ولهذا السبب عزلوا فى كثير من البلاد.

وبذلك صار فى الإمكان قيام عصر جمهورى، وعندئذ وضعنا فى مكان الملك ضحكة ((الضحكة الشخص الذى يضحك منه وهو ترجمة "Caricature كاريكاتير" الـــتى تعـــنى صورة هذلية مضحكة، والصور الكاريكاتيرية معروفة)) فى شخص رئيس يشبهه قد اخترناه من الدهماء بين مخلوقاتنا وعبيدنا.

وهكـــذا ثبتـــنا اللغم الذى وضعناه تحت الأمميين، أو بالأحرى تحت الشعوب الأممية، وفى المستقبل القريب سنجعل الرئيس شخصاً مسئولاً.

ويومـــئذ لـــن نكون حائرين فى أن ننفذ بجسارة خططنا التى سيكون "دميتنا" ((المقصود بالدمية هنا هو رئيس الجمهورية)) مسئولاً عنها، ماذا يعنينا إذا صارت

رتـب طـلاب المناصب الضعيفة، وهبت القلاقل من استحالة وجود رئيس حقيقة؟ أليس هذه القلاقل هى التى ستطيح نهائياً بالبلاد؟

ولكـى نصل إلى هذه النتائج سندبر انتخاب أمثال هؤلاء الرؤساء ممن تكون صـحائفهم السابقة مسودة بفضيحة بنامية Panama ((حين نجح "ديلسبس" فى حفر قـناة السـويس كلـف بحفر قناة بنما بين أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، فخاب واتهم بالنصب والتدليس، وقدم للمحاكمة هو وابنه، كما قدم غيرهما ومات هو أثناء المحاكمـة وسـجن ابـنه والمـراد بالفضـيحة البنامية فضيحة بتهمة شائنة كهذه الفضـيحة، ومرتكب هذه الجريمة خاضع لمن يعرفون أسرارها، فاليهود يحاولون اسـتغلالها فـى إكـراهه علـى ما يريدون فيطيعهم خوفاً من الفضيحة. واليهود يخـتارون وكلاءهم عادة من هؤلاء كما ذكروا فى آخر البروَتوكول ٨)) أو صفقة أخـرى سـرية مريبة. إن رئيساً من هذا النوع سيكون منفذا وافياً لأغراضنا، لأنه سيخشـى التشـهير، وسيبقى خاضعاً لسلطان الخوف الذى يتملك دائماً الرجل الذى وصـل إلـى السـلطة، والذى يتلهف على أن يستبقى امتيازاته وأمجاده المرتبطة بمركـزه الرفيع. إن مجلس ممثلى الشعب سينتخب الرئيس ويحميه ويستره، ولكننا سنحرم هذا المجلس سلطة تقديم القوانين وتعديلها.

هـذه السلطة سنعطيها الرئيس المسئول الذى سيكون ألعوبة خالصة فى أيدينا وفـى تلـك الحـال ستصير سلطة الرئيس هدفاً معرضاً للهجمات المختلفة، ولكننا سنعطيه وسيلة الدفاع، وهى حقه فى أن يستأنف القرارات محتكماً إلى الشعب الذى هـو فـوق ممـثلى الأمة ((أى سيكون من حقه حل البرلمان، والاحتكام إلى الأمة لاختـيار ممثليـن جدد لها، لأنها صاحبة الحق فى اختيار من يمثلونها، وفى أثناء عملـية الانـتخاب يعتمد اليهود على خداع الجماهير الغافلة التى لا تميز بين حق وبـاطل، ولا بيـن أمين وخائن، كى تنتخب صنائعهم، الذين سيؤيدون الرئيس فى أعمالـه لخدمـة اليهود، ولا اعتراض للأمة على أعمالهم لأنهم ممثلوها)) أى أن يتوجه الرئيس إلى الناس الذين هم عبيدنا العميان، وهم أغلبية الدهماء.

والى ذلك سنعطى الرئيس سلطة إعلان الحكم العرفى، وسنوضح هذا الامتياز بـأن الحقـيقة هـى أن الرئيس – لكونه رئيس الجيش – يجب أن يملك هذا الحق لحماية الدستور الجمهورى الجديد، فهذه الحماية واجبة لأنه ممثلها المسئول.

وفـــي مـــثل هذه الأحوال سيكون مفتاح الموقف الباطني في أيدينا بالضرورة ومـــا من أحد غيرنا سيكون مهيمناً على التشريع. ويضاف إلى ذلك أننا حين نقدم الدســـتور الجمهوري الجديد سنحوم المجلس – بحجة سر الدولة – حق السؤال عن القصـــد من الخطط التي تتخذها الحكومة. وبهذا الدستور الجديد سننقص كذلك عدد ممثلي الأمة إلى أقل عدد، منقصين بذلك عدداً مماثلاً من الأهواء السياسية، والولع بالسياســـة ((لكل واحد ممن ممثلي الأمة نزعته وهواه السياسي، ومصالحه الذاتية الـــتي إذا لم يمكنه منها الإداري هاجمه متستراً بالوطنية ونحوها في أمور سياسية أخـــرى لا صـــلة لهـــا بمصـــلحته الخاصة وهذا لا يقع إلا في أمه قاصرة الوعي السياسي، حديثة عهد بالديمقراطية، والمعنى أنه كلما قل ممثلو الأمة قلت النزعات والأهواء السياسية، وقلت المصالح للمثلين، فسهل على الإداري مواجهتها واحتمالها لقلـــتها وهـــذا خطـــأ والمعول عليه في الأمة هو الوعي السياسي)). وإذا صاروا معارضـــين بالـــرغم مـــن هـــذا فإننا سنسمح للممثلين الباقين بالاحتكام إلى الأمة، وســـيكون حقـــاً لرئيس الجمهورية أن يعين رئيساً ووكيلاً لمجلس النواب، ومثلها لمجلس الشيوخ، ونستبدل بفترات الانعقاد المستمرة للبرلمانات فترات قصيرة مدى شهور قليلة.

وإلـــى ذلك سيكون لرئيس الجمهورية – باعتباره رأس السلطة التنفيذية – حق دعوة البرلمان وحله، وسيكون له في حالة الحل إرجاء الدعوة لبرلمان جديد. ولكن – لكـــيلا يـــتحمل الرئيس المسئولية عن نتائج هذه الأعمال المخالفة للقانون مخالفة صـــارخة، مـــن قبل أن تبلغ خططنا وتستوي – سنغري الوزراء وكبار الموظفين والإداريين الآخرين الذين يحيطون بالرئيس، كي يموهوا أوامره، وبذلك نضطرهم إلـــى تحمل المسئولية بدلاً من الرئيس، وسننصح خاصة بأن تضم هذه الوظيفة إلى مجلس الشيوخ أو إلى مجلس شورى الدولة، أو إلى مجلس الوزراء، وأن لا توكل إلى الأفراد ((وإذن تكون الحكومة أوتوقراطية ديكتاتورية في الحقيقة، وديموقراطية شـــورية في ظاهرها، إذ سيكون ممثلو الأمة أستاراً أو آلات تنفذ ما تريده الإدارة الممثلة في الرئيس وأعوانه، والحكومة الأوتوقراطية وحدها هي أمل اليهود لسهولة العبث بها وإخضاعها لشهواتهم الشيطانية)) وبإرشادنا سيفسر الرئيس القوانين التي يمكن فهمها بوجوه عدة.

وهــو – فوق ذلك – سينقص القوانين فى الأحوال التى فيها هذا النقص أمراً مــرغوباً فيه، وسيكون له أيضاً حق اقتراح قوانين وقتية جديدة، بل له كذلك إجراء تعديــلات فى العمل الدستورى للحكومة محتجاً لهذا العمل بأنه أمر تقتضيه سعادة البلاد.

مــثل هذه الإجراءات ستمكننا من أن نسترد شيئاً فشيئاً أى حقوق أو امتيازات كنا قد اضطررنا من قبل إلى منحها حين لم نكن مستحوذين على السلطة أولاً.

ومــثل هذه الامتيازات سنقدمها فى دستور البلاد لتغطية النقص التدريجى لكل الحقــوق الدستورية، وذلك حين يحين الوقت لتغيير كل الحكومات القائمة، من أجل أوتقراطيتــنا، إن تعرفنا لملكنا الأوتقراطى يمكننا أن نتحقق منه قبل إلغاء الدساتير، أعــنى بالضــبط أن تعرف حكمنا سيبدأ فى اللحظة ذاتها حين يصرخ الناس الذين مزقــتهم الخلافات وتعذبوا تحت إفلاس حكامهم (وهذا ما سيكون مدبراً على أيدينا) فيصــرخون هاتفيــن "اخلعوهم، وأعطونا حاكماً عالمياً واحداً يستطيع أن يوحدنا، ويمحــق كــل أســباب الخلاف، وهى الحدود والقوميات والأديان والديون الدولية ونحوهــا .. حاكماً يستطيع أن يمنحنا السلام والراحة اللذين لا يمكن أن يوجدا فى ظــل حكومة رؤسائنا وملوكهم وممثلينا" ((هذا ما كانت تنفذه الشيوعية اليهودية فى روســيا وتحــاول نشــره فــى العالم مما يدل على أن الشيوعية إنما تنفذ السياسة الصهيونية وأنها ليست إلا جزءاً منها وآلة لها (انظر الترجمة العربية لكتاب "آثرت الحرية "))).

ولكــنكم تعلمون علماً دقيقاً وافياً أنه، لكى يصرخ الجمهور بمثل هذا الرجاء، لابــد أن يستمر فى كل البلاد اضطراب العلاقات القائمة بين الشعوب والحكومات، فتســتمر العداوات والحروب، والكراهية، والموت استشهاداً أيضاً، هذا مع الجوع والفقــر، ومع تفشى الأمراض، وكل ذلك سيمتد إلى حد أن لا يرى الأمميون (غير الــيهود) أى مخرج لهم من متاعبهم غير أن يلجأوا إلى الاحتماء بأموالنا وسلطتنا الكاملــة ((أى إذا تركــت للأمة فرصة تستريح فيها من المتاعب فإن ضيقها يخف قلــيلاً، فــإذا دعيــت للثورة على حالتها لم تلب النداء وصبرت على الضيق، لأن عــندها بقية احتمال، ففترات الراحة المتقطعة ولو قصرت تهون على الأمة آلامها فــلا تطلب التغيير عن طريق الثورة والانقلاب بل تحاول إصلاح أحوالها بالحكمة والصبر)).

ولكننا إذا أعطينا الأمة وقتاً تأخذ فيه نفسها فإن رجوع مثل هذه الفرصة سيكون من العسير.

البروتوكول الحادي عشر :

إن مجلس الدولة سيفصل ويفسر سلطة الحاكم، وأن هذا المجلس له مقدرته كهيئة تشريعية رسمية سيكون المجمع الذي يصدر أوامر القائمين بالحكم.

وهاهو ذا برنامج الدستور الجديد الذي نعده للعالم. أننا سنشرع القوانين، ونحدد الحقوق الدستورية وننفذها بهذه الوسائل:

١- أوامر المجلس التشريعي المقترحة من الرئيس.

٢- التوسل بأوامر عامة، وأوامر مجلس الشيوخ ومجلس شورى الدولة، والتوسل بقرارات مجلس الوزراء.

٣- والتوسل بانقلاب سياسي حينما تسنح اللحظة الملائمة.

هذا ومع تصميمنا تقريبا على خطة عملنا سنناقش من هذه الأجزاء ما قد يكون ضروريا لنا، كي يكمل الثورة في مجموعات دواليب جهاز الدولة حسب الاتجاه الذي وضحته من قبل. وأنا أقصد بهذه الأجزاء حرية الصحافة، وحقوق تشكيل الهيئات، وحري العقيدة، وانتخاب ممثلي الشعب، وحقوقا كثيرة غيرها سوف تختفي من حياة الإنسان اليومية. وإذا هي لم تختف جميعا فسيكون تغييرها أساسيا منذ اليوم التالي لإعلان الدستور الجديد. وسنكون في هذه اللحظة المعينة وحدها آمنين كل الأمان، لكي نعلن كل تغييراتنا. وهناك سبب أخر هو إن التغيرات التي يحسها الشعب في أي وقت قد يثبت أنها خطرة، لأنها إذا قدمت بعنف وصرامة وفرضت قهرا بلا تبصر فقد تسخط الناس، إذ هم سيخافون تغييرات جديدة في اتجاهات مشابهة. ومن جهة أخرى إذا كانت التغييرات تمنح الشعب ولو امتيازات أكثر فسيقول الناس فيها: أننا تعرفنا أخطاءنا. وأن ذلك يغض من جلال عصمة السلطة الجديدة. وربما يقولون أننا قد فزعنا واكرهنا على الخضوع.

وفي تلك الحالة لن يشكرنا العالم. كما أنهم سيعتدون أن من حقهم دائما الخضوع لما يريدون. وإذا أنطبع أي هذه الآثار على عقولهم فسيكون خطرا بالغا على الدستور الجديد.

انه ليلزمنا من اللحظة الأولى لإعلانه بينما الناس لا يزالون يتألمون من آثار التغيير المفاجئ، وهم في حالة فزع وبلبلة أن يعرفوا أننا بلغنا من عظم القوة والصلابة والامتلاء بالعنف أفقا لن ننظر فيه إلى مصالحهم نظرة احترام. سنريد منهم أن يفهموا أننا لن نتنكر لآرائهم ورغباتهم فحسب، بل سنكون مستعدين في كل زمان وفي كل مكان لأن نخنق بيد جبارة أي عبارة أو إشارة إلى المعارضة.

سنريد من الناس أن يفهموا أننا استحوذنا على كل شئ أردناه، وأننا لن نسمح لهم في أي حال من الأحوال أن يشاركونا في سلطتنا. وعندئذ سيغمضون عيونهم على أي شئ بدافع الخوف، وسينتظرون في صبر تطورات أبعد.

أن الأمميين كقطيع من الغنم، وأننا الذئاب. فهل تعلمون ما تفعل الغنم حينما تنفذ الذئاب إلى الحظيرة؟؟ أنها لتغمض عيونها عن كل شئ. وإلى هذا المصير سيدفعون، فسندعهم بأننا سنعيد إليهم حرياتهم بعد التخلص من أعداء العالم،و اضطرار كل الطوائف إلى الخضوع.

أي سبب أغرانا بابتداع سياستنا، وبتلقين الأمميين إياها؟ لقد أوحينا إلى الأمميين هذه السياسة دون أن ندعهم يدركون مغزاها الخفي. وماذا حفزنا على اختيار هذا الطريق للعمل إلا عجزنا ونحن جنس مشتت عن الوصول إلى غرضنا بالطرق المستقيمة، بل بالمراوغة فحسب؟ هذا هو السبب الصحيح، والأصل في تنظيمنا للماسونية التي لا يفهمها أولئك الخنازير SWINE من الأمميين، ولذلك لا يرتابون في مقصدها. ولقد أوقعناهم في كتلة محافلنا التي لا تبدو شيئا أكثر من ماسونية كي نذر الرماد في عيون رفقائهم. (في البروتوكولات إشارات كثيرة إلى الصلة بين الماسونية والصهيونية).

من رحمة الله أن شعبه المختار مشتت، وهذا التشتت الذي يبدو ضعفنا فينا أمام العالم قد ثبت أنه كل قوتنا التي وصلت بنا إلى عتبة السلطة العالمية.

ليس لدينا أكثر من أن نبني على هذه الأسس، لكي نصل إلى أهدافنا.

البروتوكول الثانى عشر :

إن كلمة الحرية التى يمكن أن تفسر بوجوه شتى سنحددها هكذا "الحرية هى حق عمل ما يسمح به القانون" تعريف الكلمة هكذا سينفعنا على هذا الوجه: إذ

سـيترك لنا أن نقول أين تكون الحرية، وأين ينبغى أن لا تكون، وذلك لسبب بسيط هو أن القانون لن يسمح إلا بما نرغب نحن فيه.

وسنعامل الصحافة على النهج الآتى: ما الدور الذى تلعبه الصحافة فى الوقت الحاضـر؟ إنها تقوم بتهييج العواطف الجياشة فى الناس، وأحياناً بإثارة المجادلات الحزبـية الأنانـية الـتى ربما تكون ضرورية لمقصدنا. وما أكثر ما تكون فارغة ظالمة زائفة، ومعظم الناس لا يدركون أغراضها الدقيقة أقل إدراك. إننا سنسرجها وسـنقودها بلجـم حازمـة، وسـيكون علينا أيضاً أن نظفر بإدارة شركات النشر الأخرى، فلن ينفعنا أن نهيمن على الصحافة الدورية بينما لا نزال عرضة لهجمات النشرات والكتب. وسنحول إنتاج النشر الغالى فى الوقت الحاضر مورداً من موارد الـثورة يدر الربح لحكومتنا، بتقديم ضريبة دمغة معينة وبإجبار الناشرين على أن يقدمـوا لنا تأميناً، لكى نؤمن حكومتنا من كل أنواع الحملات من جانب الصحافة. وإذا وقـع هجـوم فسنفرض عليها الغرامات عن يمين وشمال. إن هذه الإجراءات كالرسوم والتأمينات والغرامات ستكون مورد دخل كبير للحكومة، ومن المؤكد أن الصـحف الحزبية لن يردعها دفع الغرامات الثقيلة (سبب ذلك أن الأحزاب تتحمل عـن صـحفها ما تدفعه من غرامات فهى لا تبالى بالغرامة، ولكن الصحف غير الحزبـية تدفـع مـا تغرم من مالها فهى لا تجرؤ جرأة الصحف الحزبية على أى هجوم وراءه غرم لها) ولذلك فإننا عقب هجوم خطير ثان – سنعطلها جميعاً.

وما من أحد سيكون قادراً دون عقاب على المساس بكرامة عصمتنا السياسية. وسـنعتذرعن مصادرة النشرات بالحجة الآتية، سنقول: النشرة التى صودرت تثير الرأى العام على غير قاعدة ولا أساس.

غـير أنـى سأسـألكم توجيه عقولكم إلى أنه ستكون بين النشرات الهجومية نشـرات نصدرها نحن لهذا الغرض، ولكنها لا تهاجم إلا النقط التى نعتزم تغييرها فى سياستنا. ولن يصل طرف من خبر إلى المجتمع من غير أن يمر على إرادتنا. وهـذا مـا قد وصلنا إليه حتى فى الوقت الحاضر كما هو واقع: فالأخبار تتسلمها وكـالات قلـيلة ((أى الوكالات الإخبارية. ويلاحظ أن معظم هذه الوكالات تخضع للـيهود الآن، فمعظم ما كانوا يشتهونه قد تحقق لهم الآن)) تتركز فيها الأخبار من كـل أنحاء العالم. وحينما نصل إلى السلطة ستنضم هذه الوكالات جميعاً إلينا، ولن تنشر إلا ما نختار نحن التصريح به من الأخبار.

إذا كـنا توصلنا في الأحوال الحاضرة إلى الظفر بإدارة المجتمع الأممى (غير الـيهودى) إلى حد أنه يرى أمور العالم خلال المناظير الملونة التى وضعناها فوق أعينه: وإذا كان لم يقم حتى الآن عائق يعتاق وصولنا إلى أسرار الدولة. كما تسمى لغـباء الأمميـين، إذن – فماذا سيكون موقفنا حين نعرف رسمياً كحكام للعالم فى شخص امبراطورنا الحاكم العالمى؟

ولـنعد إلـى مستقبل النشر. كل إنسان يرغب فى أن يصير ناشراً أو كاتباً أو طابعـاً سيكون مضطراً إلى الحصول على شهادة ورخصة تسحبان منه إذا وقعت منه مخالفة.

والقـنوات ((المـراد بالقـنوات المطبوعات التى يعبر الناس فيها عن آرائهم كالكتب والرسائل والنشرات ونحوها)) التى يجد فيها التفكير الإنسانى ترجماناً له – سـتكون بهـذه الوسائل خالصة فى أيدى حكومتنا التى ستتخذها هى نفسها وسيلة تـربوية، وبذلـك ستمنع الشعب أن ينقاد للزيغ بخيال "التقدم" والتحرر. ومن منا لا يعـرف أن السـعادة الخيالية هى أن "التقدم" أو بالأحرى فكرة التقدم التحررى قد أمدت الناس بأفكار مختلطة للعتق من غير أن تضع أى حد له. إن كل من يسمون متحرريـن فوضويون، إن لم يكونوا فى عملهم ففى أفكارهم على التأكيد. كل واحد منهم يجرى وراء طيف الحرية ظاناً أنه يستطيع أن يفعل ما يشاء، أى أن كل واحد مـنهم سـاقط فـى حالـة فوضى فى المعارضة التى يفضلها لمجرد الرغبة فى المعارضة.

ولنـناقش الآن أمـر النشر: إننا سنفرض عليه ضرائب بالأسلوب نفسه الذى فرضنا به الضرائب على الصحافة الدورية، أى عن طريق فرض دمغات وتأمينات ولكن سنفرض على الكتب التى تقل عن ثلاثمائة صفحة ضريبة مضاعفة فى ثقلها ضعفين. لكى نقلل نشر الدوريات التى تكون أعظم سموم النشر فتكاً.

وهذه الإجراءات ستكره الكتاب أيضاً على أن ينشروا كتباً طويلة، ستقرأ قليلاً بيـن العامـة من أجل طولها، ومن أجل أثمانها العالية بنوع خاص. ونحن أنفسنا سننشـر كتـباً رخيصـة الثمن كى نعلم العامة ونوجه عقولهم فى الاتجاهات التى نرغب فيها. إن فرض الضرائب سيؤدى إلى الإقلال من كتابة أدب الفراغ الذى لا هـدف لـه. وإن كون المؤلفين مسئولين أمام القانون سيضعهم فى أيدينا، ولن يجد أحد يرغب مهاجمتنا بقلمه ناشراً ينشر له.

قبل طبع أى نوع من الأعمال سيكون على الناشر أو الطابع أن يلتمس من السلطات إذناً بنشر العمل المذكور. وبذلك سنعرف سلفاً كل مؤامرة ضدنا، وسنكون قادرين على سحق رأيها بمعرفة المكيدة سلفاً ونشر البيان عنها.

الأدب والصحافة هما أعظم قوتين تعليمتين خطيرتين. ولهذا السبب ستشترى حكومتنا العدد الأكبر من الدوريات.

وبهذه الوسيلة سنعطل التأثير السيئ لكل صحيفة مستقلة، ونظفر بسلطان كبير جداً على العقل الإنسانى. وإذا كنا نرخص بنشر عشر صحف مستقلة فسنشرع حتى يكون لنا ثلاثون، وهكذا دواليك.

ويجب الا يرتاب الشعب أقل ريبة فى هذه الإجراءات. ولذلك فإن الصحف الدورية التى ننشرها ستظهر كأنها معارضة لنظراتنا وآرائنا، فتوحى بذلك الثقة فالى القراء، وتعرض منظراً جذاباً لأعدائنا الذين لا يرتابون فينا، وسيقعون لذلك فى شركنا ((أى سيكشفون أنفسهم فيها لليهود، ويمكنون لهم من الاتصال بهم، فيعاملونهم بما يضمن ولاءهم، ويضعهم تحت رحمتهم كما وضحته السطور التالية))، وسيكونون مجردين من القوة.

وفى الصف الأول سنضع الصحافة الرسمية. وستكون دائماً يقظة للدفاع عن مصالحنا، ولذلك سيكون نفوذها على الشعب ضعيفاً نسبياً. وفى الصف الثانى سنضع الصحافة شبه الرسمية Semi official التى سيكون واجبها استمالة المحايد وفاتر الهمة، وفى الصف الثالث سنضع الصحافة التى تتضمن معارضتنا، والتى ستظهر فى إحدى طبعاتها مخاصمة لنا، وسيتخذ أعداؤنا الحقيقيون هذه المعارضة معتمداً لهم، وسيتركون لنا أن نكشف أوراقهم بذلك.

ستكون لنا جرائد شتى تؤيد الطوائف المختلفة: من أرستقراطية، وجمهورية، وثورية، بل فوضوية أيضاً. وسيكون ذلك طالما أن الدساتير قائمة بالضرورة. وستكون هذه الجرائد مثل الإله الهندى فشنو Vishnu ((فشنو هو اسم إله هندى بمعنى الشامل أو الحافظ أو الحامى، وتمثال فشنو يصور على هيئة إنسان له أيد كثيرة، وهذه الأيدى تشير إلى عمله ومداه، فالأيدى علامة الحماية وكثرتها علامة شمولها وامتدادها إلى كل شيء)). لها مئات الأيدى، وكل يد ستجس نبض الرأى العام المتقلب.

ومـتى ازداد النبض سرعة فإن هذه الأيدى ستجذب الرأى نحو مقصدنا، لأن المـريض المهتاج الأعصاب سهل الانقياد وسهل الوقوع تحت أى نوع من أنواع النفوذ. وحين يمضى الثرثارون فى توهم أنهم يرددون رأى جريدتهم الحزبية فإنهم فى الواقع يرددون رأينا الخاص، أو الرأى الذى نريده. ويظنون أنهم يتبعون جريدة حزبهم على حين أنهم، فى الواقع، يتبعون اللواء الذى سنحركه فوق الحزب، ولكى يسـتطيع جيشـنا الصـحافى أن ينفذ روح هذا البرنامج للظهور، بتأييد الطوائف المختلفة – يجب علينا أن ننظم صحافتنا بعناية كبيرة.

وباسـم الهيـئة المركزية للصحافة Central Commission of Press سننظم اجـتماعات أدبـية وسيعطى فيها وكلاؤنا – دون أن يفطن إليهم – شارة للضمان Countersign وكلمـات السـر Passwords. وبمناقشة سياستنا ومناقضتها، ومن ناحية سطحية دائماً بالضرورة، ودون مساس فى الواقع بأجزائها المهمة – سيستمر أعضـاؤنا فى مجادلات زائفة شكلية مع الجرائد الرسمية، كى تعطينا حجة لتحديد خططـنا بدقـة أكثر مما نستطيع فى إذاعتنا البرلمانية. وهذه بالضرورة لا يكون لمصـلحتنا فحسب، وهذه المعارضة من جانب الصحافة ستخدم أيضاً غرضنا، إذ تجعـل الـناس يعـتقدون أن حرية الكلام لا تزال قائمة كما أنها ستعطى وكلاءنا Agents فرصـة تظهر أن معارضينا يأتون باتهامات زائفة ضدنا، على حين أنهم عاجزون عن أن يجدوا أساساً حقيقياً يستندون عليه لنقض سياستنا وهدمها.

هـذه الإجراءات التى ستخفى ملاحظتها على انتباه الجمهور – ستكون أنجح الوسـائل فـى قيادة عقل الجمهور، وفى الإحياء إليه بالثقة والاطمئنان إلى جانب حكومتنا.

وبفضـل هـذه الإجـراءات سـنكون قادرين على إثارة عقل الشعب وتهدئته فى المسـائل السياسـية، حيـنما يكـون ضرورياً لنا أن نفعل ذلك، وسنكون قادرين على إقـناعهم أو بلبلتهم بطبع أخبار صحيحة أو زائفة؛ حقائق أو ما يناقضها، حسبما يوافق غرضـنا. وإن الأخبار التى سننشرها ستعتمد على الأسلوب الذى يتقبل الشعب به ذلك النوع من الأخبار، وسنحتاط دائماً احتياطاً عظيماً لجس الأرض قبل السير عليها.

إن القيود التى سنفرضها على النشرات الخاصة، كما بينت، إذ لن تكون لديهم وسـائل صـحفية تحت تصرفهم يستطيعون حقيقة أن يعبروا بها تعبيراً كاملاً عن آرائهم، ولن نكون مضطرين ولو إلى عمل تفنيد كامل لقضاياهم.

والمقالات الجوفاء Ballon d'essai التى سنلقى بها فى الصف الثالث من صحافتنا سنفندها عفواً، بالضرورة، تفنيداً شبه رسمى Semi- offically.

يقــوم الآن فــى الصحافة الفرنسية نهج الفهم الماسونى ((أى تكوين الجماعة ســرياً، والتفاهم بين أعضائها بطريقة لا سفهمها غيرهم)) لإعطاء شارات الضمان Countersigns فكل أعضاء الصحافة مرتبطون بأسرار مهنية متبادلة على أسلوب النــبوءات القديمــة Ancient orcles ولا أحد من الأعضاء سيفشى معرفته بالسر، على حين أن مثل هذا السر غير مأمور بتعميمه. ولن تكون لناشر بمفرده الشجاعة علــى إفشاء السر الذى عهد به إليه، والسبب هو أنه لا أحد منهم يؤذن له بالدخول فى عالم الأدب ما لم يكن يحمل سمات ((السمات، جمع سمة وهى العلامة والمراد هنا: وصمة عار وخزى)) بعض الأعمال المخزية فى حياته الماضية. وليس عليه أن يظهر إلا أدنى علامات العصيان حتى تكشف فوراً سماته المخزية. وبينما تظل هــذه الســمات معروفة لعدد قليل تقوم كرامة الصحفى بجذب الرأى العام إليه فى جميع البلاد، وسينقاد له الناس ويعجبون به.

و يجــب أن تمــتد خططنا بخاصة إلى الأقاليم Previnces وضرورى لنا كذلك أن نستطيع فى أى وقت أن ننزلها إلى العاصمة بتقديمها كأنها آراء محايدة للأقاليم.

وطبعاً لن يتغير منبع الفكرة وأوصلها: أعنى أنها ستكون عندنا.

ويلزمــنا، قبل فرض السلطة، أن تكون المدن أحياناً تحت نفوذ رأى الأقاليم – وهذا يعنى أنها ستعرف رأى الأغلبية الذى سنكون قد دبرناه قبل، ومن الضرورى لنا أن لا تجد العواصم فى فترة الأزمة النفسية وقتاً لمناقشة حقيقة واقعة، بل تتقبلها ببساطة، لأنها قد أجازتها الأغلبية فى الأقاليم.

و حيــنما نصل إلى عهد المنهج Regeme الجديد – أى خلال مرحلة التحول إلــى مملكتــنا – يجــب أن لا نسمح للصحافة بأن تصف الحوادث الإجرامية: إذ ســيكون مــن الــلازم أن يعتقد الشعب أن المنهج الجديد مقنع وناجح إلى حد أن الإجرام قد زال.

وحيــث تقع الحوادث الإجرامية يجب أن لا تكون معروفة إلا لضحيتها ولمن يتفق له أن يعاينها فحسب ((المعنى هو أن الجريمة لا يراها إلا المصاب بها، ومن يشهدها لأنه كان فى مكان الجريمة مصادفة.

وهكـذا صنع اليهود الزيت الذى يحترق على خطاهم ولأنه من المعتاد أن لا يـرقص أحد على أنغام الأرغن والآلات الموسيقية التى تعزف فى الكنائس إلا أن الـيهود يحـق لهم أن يرقصوا !! لأن عالمهم تحصنت طرقاته، وحتى اللصوص منهم امسكوا فى أيديهم القنابل الذرية!![١٤] .

١٤- انظر: سعيد أيوب: المسيح الدجال، الفتح للإعلام العربي، ص ٦٥.

٣

الفصل الثالث

الغرب وجذور الصدام

الفصل الثالث

الغرب وجذور الصدام

يا للحرب من شيء بهيج أعتقد أن الرب يفضل هؤلاء المناضلين!!
لوجوفينال

لا شــك فــي أن أيام الإنسان الباكرة كانت أياماً عنيفة وأن البيئة كانت أكبر أعدائه وظهرت أسلحة الإنسان البدائى كأول محاولة للمواجهة والحرب وتمثلت فى الحجــر المدبــب والخــنجر الحجرى والسهم والقوس وخلال العشرة آلاف سنة الأخيرة فقط خرج الإنسان من طوق الطبيعة، وأمسك بزمام حياته.

ويــترك تاريخ البشرية في الحلق غصة بكل ما يتعلق بالحرب، وإن أظهرت معطــيات علــم الإناســة أن الحــرب ظاهرة منتشرة بكثرة وإن اختلف تواترها وتواجدهــا بيــن الشــعوب وكــان لبعضها مثل الاسكيمو Eskimos والأندمانيز Andamanais الاعــتزاز بعــدم ممارستها، فمن الصعب معرفة كم من الشعوب المســالمة قــد أبــيدت لأن خــيار السلام لم يكن عالميا وبقي قانون الغاب يعطي الأقوى، بالمعنى العسكري للكلمة، الحق في البقاء والهيمنة![1] .

ومــنذ ثلاثمائة عام عرف العالم ثورته الثانية في الصناعة وكانت نقلة نوعية انتقلت بالإنسان وقدراته إلى مجالات ما كانت تخطر له على بال[2] ومنذ عدة عقود اقتحم عقبات ثورة ثالثة هي ثورة المعلومات والاتصالات التي تمثل نقلة أخرى في حــياة الإنسان وأخرج الغرب العديد من نظريات السيطرة والقوة والسيادة والإبادة وآخها نظرية صدام الحضارات.

وتعتــبر نظــرية صــراع الحضارات نموذج جسد وبلور ما فى نفوس أولئك الذيــن جاءوا من نسل السفاحين والقتلة[3] ومن أوضح الدلائل على سعي الحضارة الغربية المعاصرة إلى المواجهة والصدام مدعين أننا أهل الشرق من بدأنا!! ولذلك سنتعرض بموضوعية لتفنيد تلك الأقوال والمزاعم عبر الزمان والمكان.

١- هيثم مناع: المرجع السابق.

٢- غالب علي جميل: صحيفة ٢٦ سبتمبر، العدد رقم: ١١٧٠، ص ١٣.

٣- هذه حقيقة تاريخية وليست تكهنات أو افتراءات وبإجماع المؤرخين فى الشرق والغرب.

والمسألة أيضاً لها جذور :

ينبغي أن نجلو ابتداءً، حقيقةً من الحقائق التي تنطوي عليها الحضارة الغربية الراهـنة، وهي أنّ فكرة الصراع أصلٌ في هذه الحضارة، وأسٌ من الأسس الثابتة التـي يقـوم عليها الموروث الغربي،وثقافته التي هي وريثة الحضارتين اليونانية والرومانـية القديمتيـن، وهـو جِذْرٌ ثابتٌ من جذور الفكر الأوروبي في أطواره التاريخية المتعاقبة وهذا ما سنوضحه في الآتي:

أولاً: العصر اليوناني :

كانـت بـلاد الـيونان هي المهد الأول للحضارة الأوروبية القديمة وما زال الأوربـيون يفخرون بكبار الأعلام من العلماء والفلاسفة والمشرعين الذين أنجبتهم الحضارة اليونانية، ولم يرتبط تاريخ الحضارة اليونانية برقعة محدودة من الأرض وإنما يرتبط تاريخها بالبلاد الواسعة التى انتشر فيها اليونانيون على امتداد سواحل البحر المتوسط وفى جزره.

ذلـك أن جغرافـية بـلاد اليونان وطبيعتها كانت تجسيداً حياً لنظرية عبقرية المكان حيث تركت أثراً عميقاً فى أحوال اليونانيين ومعيشتهم وحضارتهم وثقافتهم، فهـذه البلاد ضيقة الرقعة، صعبة التضاريس، معظمها جبلى، تتخلل جبالها سهول ضيقة ليست على درجة كافية من الخصوبة والثروة مما أوجد صعوبة توحيد البلاد فـى ظـل حكومة واحدة، وكانت سواحل البلاد كثيرة التعاريج والخلجان فنتج عن ذلـك صعوبة البيئة وفقرها وعدم تقبل الزيادة السكانية فاضطر الناس إلى الخروج نحـو السـواحل وانطلقـوا فى البحار حيث التفتح والحركة وتقبل الجديد وهضمه وامتصاصه.

وقـد سادت مفاهيم الصراع بدلالاتها المتعددة ومعانيها المتنوعة، انطلاقاً مما كـان يعرف في الفكر اليوناني القديم من عقيدة (صراع الآلهة)[٤] القائمة على تعدّد الآلهـة مما يؤدّي إلى الصراع فيما بينها، فها هو زيوس Zeus رب الأرباب لدى الإغـريق لم يصل إلى هذه المكانة دون عناء أو نصب بل خاض معارك ضارية ضد والده كرونوس الذى أنجبه!! وحارب جماعات المسوخ والمردة وانتصر عليهم

٤- لمـزيد من التفاصيل أنظر عبد العزيز بن عثمان التويجري: صراع الحضارات فى المفهوم الإسلامى، من منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

جميعاً وتؤكد الأساطير الإغريقية للعقل الغربى أن الوصول إلى كرسى الحكم يتحقق بالقوة والصلابة والغش والمكر سيادة صراع القوة والضعف، وصراع الخير والشر، وصراع الإنسان مع الطبيعة، وصراع الإنسان مع الإنسان وصراع الإنسان مع الآلهة أيضاً[٥] .

ولذا فقد طبع الصراعُ الفكرَ اليونانيَّ في مناحيه الدينية والفلسفية والأدبية والفنية حيث كان الإنتاج الأدبى نفسه يضخم الميول البشرية العنيفة[٦] وكانت تصرفات الإغريق التى تصورها أعمالهم تتسم بالخشونة والعنف والتباهى بالقوة الجسدية، وكانت حروبهم مجازر، ومصارعتهم الرياضية مذابح، وفروسيتهم غلظة وقسوة، وشجاعتهم عنفاً وبطشاً[٧] .

ويرى فيليب تايلور[٨] أنه فى اليونان اعتبر جميع غير اليونانيين "برابره".

وبدءاً من حوالى ٧٥٠ ق. م برزت المدن الدول باعتبارها الوحدة السياسية السائدة فى اليونان لكى تحل محل الممالك القبلية السابقة وأصبح العمل الحربى أكثر تنظيماً خاصة مع ظهور وتطور كتائب المواطنين ثقيلة التسليح وتصاعد موجة الاستيطان.

وكثيراً ما حارب الإغريق الإغريق وكانت الحرب بصفة عامة عملاً موسمياً مع مجىء الجنود المتطوعين من المزارع التى لم تكن تحتاج إلى من يرعاها خلال شهور الشتاء. ولم يكن في البداية يوجد جيش محترف دائم وكان جميع المواطنين والمزارعين تحديداً جنوداً يؤدون خدمتهم العسكرية سنوياً فيما بين موعدى البذار والحصاد.

وكانت الحياة فى اليونان القديمة لها طابع خاص -فتكونت عدد من الوحدات والتجمعات سميت كل منها دولة المدينة polis-state -كما سبق أن ذكرنا- فهى دوله نظراً لاستقلالية كل منها السياسية والاقتصادية وهى مدينه نظراً لقلة عدد سكانها..

وكان نظام الرق هو السائد هناك وقد أقره أفلاطون فى مدينته الفاضلة، وكانت أهم دولتين من دول المدينة دولتا "أثينا" وإسبرطة".. وكان هناك صراع بين

٥- لمزيد من التفاصيل انظر عبد المعطى شعراوى: أساطير إغريقية (الآلهة الكبرى) مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٥.

٦- محمد مفيد الشوباشي: العرب والحضارة الأوروبية، المكتبة الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥، ص ٣٢.

٧- نفسه، ص ٣١.

٨- فيليب تايلور: قصف العقول، ترجمة سامى خشبه، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٥٦ لسنة ٢٠٠٠م، ص ٤١.

الدولتين.. وكانت أثينا[٩] لها الريادة بحكم تفوقها في نظامها السياسي فاتبعت أثينا في تسيير الحياة السياسية فيها" الديموقراطية المباشرة" الديموقراطية الاثينيه" ونظراً لمحدودية عدد مواطنيها (وهم من الذكور فقط من سن ٢٠ عام من أهل المدينة الأصليين فلم يسمح للأجانب بالتجنس) نظراً لمحدوديه عدد المواطنين بالنسبة لمجموع السكان كانت ديموقراطيتها مباشرة قائمه علي النقاش والجدال والمشاركة السياسية.

ولعل من أهم النقاط عند الحديث عن الديموقراطية الأثينية هو أنهم افترضوا صلاحية أي " مواطن" لتولي اى منصب سياسي مع عدم تخصيص وظيفة[١٠] أو أوضاع متميزة لأشخاص معينه وكانت الوظائف تشغل عن طريقين أما القرعة أو الانتخاب .. كما لم يكن الفقر أو المركز الاجتماعى حائلاً دون المشاركة السياسية...

وكان ما يميز تلك الحضارة عقدة التفوق اليوناني والتقابل بين اليوناني والبربري..

وكانت إسبرطة[١١] متفوقة فى فن الحرب وكان المحاربون الإسبرطيون يتدربون على الحرب منذ سن باكرة حتى يصبحون ممتلئين بقيم الشجاعة فى ميادين القتال وكانت الجيوش الإسبرطية تستمد الشجاعة من أشعار تيرنابوس

٩- مدينة أثينا (باليونانية Αθήνα = أثينا) هي عاصمة اليونان وأكبر مدنه. يعود اسم المدينة لأثينا إلهة الحكمة الإغريقية. يبلغ عدد سكان المدينة اليوم حوالي ٧٢٩،١٣٧ نسمة ومع ضواحيها والمناطق المجاورة حوالي ٣،٧٥٣،٧٢٦ مليون نسمة (احصاءات يناير ٢٠٠٥). تقع أثينا في جنوب اليونان على سهل أتيكا بين نهري إليسوس وكيفيسوس، محاطة من ثلاثة جهات بقمم جبال هي هيميتوس (١،٠٢٦ متر) وبينتيليكون (١،١٠٩ متر)، وبارنس (١،٤١٣ متر). تطل من الجهة الرابعة على خليج زارونيش الواصل للبحر الأبيض المتوسط. يبلغ تاريخ المدينة حوالي ٥٠٠٠ سنة، لتعد بذلك احد اقدم مستوطنات اوروبا. اعلنت أثينا عام ١٩٨٥ كأول عاصمة ثقافية لأوروبا. أضيف الأكروبولس عام ١٩٨٧ ومعبد دافني عام ١٩٩٠ في أثينا لقائمة اليونسكو للتراث العالمي.

١٠- لمزيد من التفاصيل أنظر سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى (جزءان) مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٦.

١١- أسبرطة (Asparta) هي مدينة من أقوي الدويلات إبان حكم الدوريين الغزاة اللذين نافسوا أثينا. وكان الإسبرطيون محاربين. ويقع موقع هذه المدينة حالياً في شبه جزيرة المورة باليونان.وفقاً للأساطير اليونانية، فمؤسس أسبرطة هو لاكديمون، ابن الإله زوس وتاجيت، وهو سماها على اسم زوجته، ابنة يوروتاس. اشتهرت أسبرطة بقوة جيوشها في تاريخ اليونان القديم، وهي كانت الأقوى حتى بزغ نجم أثينا وتحولها لتكون العاصمة اليونانية، كما أبلت أساطيرها البحرية بقوة وبسالة خلال الحروب ضد الفرس. كانت أسبرطة وأثينا حليفتين ضد الفرس، على أنهما تحولتا غريمتين بعدها.

الحربـية وتشـريعات ليكرجوس[١٢] المتطرفة فى الخشونة والتقشف من ذلك أنه وضـع نظامـاً يحتم على الآباء الإبلاغ عن أى مولود فإذا كان الطفل قوى البدن يسمحون له بالحياة أما إذا كان هزيلاً يعرضوه للبرد والجـوع فوق الجبـل حتى يمـوت!! ويـتم تدريـب الأطفال على الحياة العسكرية الصارمة مثل الأسير حفاة الأقـدام مسافات طويلة، وأن يرتدوا ثوباً واحداً على الجسد فى الشتاء وأن يطعموا أنفسـهم بأنفسـهم بالصيد أو الخطف أو السرقة فإذا ضبط وهو يسرق يعاقب عقاباً صارماً لا لأنه يسرق بل لأنه لم يستطع أن يسرق دون أن يضبطه أحد!!.

وقـد خـاض اليونانـيون حروبهم كما لو كانت مبارزات جماعية فقد كانت الحمـلات قصـيرة المـدى وعادة ما كانت المعارك حاسمة وكان مدى تكتيكاتهم محـدوداً نسبياً وقامت كل كتيبة بعملها على أساس اعتمادها الذاتى كجماعة واحدة علـى نفسـها ،وكـان الخداع وتشويه المعلومات أو نقصها ملمح هام من ملامح الحروب اليونانية.

وسوف نستعرض أهم تلك الحروب.

حرب البلوبونيز [١٣] :

سـبق وان أشـرنا الـي حقيقة التنافس بين أثينا وإسبرطة علي الزعامة بين دول المديـنة بمـا كـان لكل منها من نظام سياسي واقتصادى مميز (حيث كانت أثينا دولة تجاريـة وإسـبرطة دولـه زراعية).. حيث حاولت كل منهما التأثير علي باقي دول المديـنة لنشـر نظامهـا السياسي واستقطاب هذه الدول إلي جانبها ..وان كانت الغلبة والـزعامة لأثيـنا بفضـل ديموقراطيـتها وقادت دول المدينة في درء عدوان الفرس وتهديدهـم للمـدن اليونانـية بعـد خروجهم من آسيا الصغرى .. وهذا في ظل اتحاد (كونفيدرالـي) تحت زعامتها ولكن بعد هزيمة الفرس حاولت دول المدينة الخروج من تحـت لوائهـا ممـا أدى لاستخدامها أسلوب القهر ضد بقية دول المدينة لتجبرها علي البقاء في الاتحاد..أى بعبارة أخرى تحولت أثينا من دوله ديموقراطية إلى دوله تمارس التوسـع علـي حساب الدول الأخرى .. مما دفع دول المدينة إلى الاتحاد تحت زعامة

١٢- لـيكرجوس (Lukourgos): مـن مشـرعي إسـبارطة الأسطوريين، وقد وضع نظم الدولة بعد قيامه بعدة رحلات للاستطلاع.

١٣- نسبة إلى جزيرة بلوبونيز الواقعة جنوبي اليونان.

إسـبرطة ونـتج عـن ذلك حرب البلوبونيز التى دامت سبعة وعشرين عاماً وانتهت بهـزيمة أثينا وتحلل نظامها السياسي الذى طالما افتخرت به.. وكان هناك تناقض بين أثيـنا وإسـبرطة، بيـن العقل والساعد، بين الثقافة والحرب، بين القلم والسيف.. كان تناقضـاً فرعياً تجاوزه الاسكندر بتوحيد بلاد اليونان في مواجهة البرابرة وظلت حرب البلوبونيز تبدد قوى بلاد الإغريق من ٤٣١ إلى ٤٠٤ ق. م(١٤) .

ولـم تسـفر حـرب البلوبونيز فقط عن هزيمة أثينا وإنما أسفرت أيضا عن تدهورها بوصفها مركزا للحضارة وانهك الإغريق إنهاكا شديداً بسبب تجدد الحرب مـع الفـرس واستمرار الحروب الأهلية وهزيمة الإسبرطيين أمام جيش طيبه في معركة ليوكترا عام ٣٧١ ق.م.

ومن آراء فلاسفة أثينا :

نجد أفلاطون (Platon) يقول في فترة مبكرة من مراحل تشكيل الفكر الغربي "إن الحرب هي الحالة الطبيعة في العلاقات بين مجموعة سياسية وأخرى".

وقـال ثوكوديـدس(١٥) "الأقوياء يفعلون ما بمقدورهم فعله والضعاف يعانون مماليس منه بد.

وهـناك أفكار الضبط للعسكرية الصارمة التى تنسب إلى دراكون Draconian المشرع الأثينى وقد أصدر تشريعات كانت قاصية إلى حد بعيد حتى قيل فى وصفها أنها خطت بقطرات الدم !!.

ويـدأت المواجهة بين الشرق والغرب مع خروج الإسكندر الأكبر(١٦) صوب الشـرق(١٧) ، بعـد أن ورث الملك عن أبيه فيليب المقدونى الذى جعل جند المشاة

١٤- اتش جي ويلز: موجز تاريخ العالم، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩، ص١١٢.

١٥- ثوكوديـدس thucydides (٤٦٠ – ٣٩٥ ق م) مـؤرخ إغريقى شهير، صاحب كتاب "تاريخ الحرب البلوبونيزية" ويعد أول المؤرخين الإغريق اللذين أعطوا للعوامل الاقتصادية والاجتماعية أهمية خاصة.

١٦- ولد الإسكندر في بيلا، العاصمة القديمة لمقدونيا. ابن فيليبّوس الثاني ملك مقدونيا وابن الأميرة أوليمبياس أميرة سيرس (Epirus). كـان أرسـطو المعلم الخاص للأسكندر. حيث درّبه تدريبا شامل في فن الخطابة والأدب وحفزه للاهتمام بالعلوم والطب والفلسفة.

١٧- أنظـر محمد الحبش: العالم الإسلامي والغرب، قراءة في المشهد الثقافي والحضاري، مؤتمر الإسلام والغرب في عالم متغير الـذي انعقـد في قاعة الصداقة بالخرطوم ١٢و١٣و٢٠٠٤/١/١٤ حيث قدم ورقة باسم مركز الدراسات الإسلامية تحدث فيها عن جسور الحوار والتقارب بين الإسلام والغرب.

يهاجمون في كتلة كثيفة متراصة تراصاً شديداً، كما درب وجهاء قومه الراكبة على القـتال في تشكيلات، وبذلك اخترع نظام الخيالة[١٨] وبعدها قدر للجواد الذي يركبه الاسـكندر أن يجتاز مضيق الدردنيل ويتحرك صوب سحر الشرق الآسر، وهناك يمضي من أفق إلى أفق فيجتاح آسيا الصغرى Asia minor وبلاد الشام ثم السهول الإيرانـية، فيحطم أمجاد الفرس ويمزق دولة ساسان، ثم يوغل في الشرق فيروي خيله من نهر جيجون ويجتاز بلاد ما وراء النهر، حيث يبلغ سحراً آخر يحمله إلى القـارة الهـندية فيدك ما واجهه من الممالك، ويبلغ في النهاية إمبراطورية الصين حيث لم يعد ثمة بعدها شئ يمكن أن يباهي بإسقاطه. وحين عاد الإسكندر إلى أثينا ليبـتهج بنصره شاباً غضاً، أدرك أنه ليس إلا دورة واحدة من دورات الحياة، وأن تـبدل المقاديـر مـاض إلـى غايـة لا يمكـن أن تتوقف عنه طموح الإسكندر. ونستعرض بعض من حروبه فيما يلي:

بـدأ الإسكندر حربه ضد الفرس في عام ٣٣٤ قبل الميلاد حيث عبر هيليسبونت (Hellespont) دانيدانيلـيس الجديدة بجيش مكون من ٣٥,٠٠٠ مقدوني وضباط من القوات اليونانية بمن فيهم انتيجواس الأول (Antigonus I) وبطليموس الأول وكذلك سيليكوس (Seleucus I) عند نهـر جرانيياس بالقـرب من المدينة القديمة لطروادة، قـابل جـيش مـن الفـرس والعبيد اليونان الذين اسروا في الحروب وكانوا حوالي ٤٠,٠٠٠ وقـد سحق الفرس وكما شير الكتابات القديمة خسر ١١٠ رجلا فقط. وبعد هـذه الحرب الضارية أصبح مسيطرا على كل ولايات آسيا الصغرى وأثناء عبوره لفرجيا (Phrygia) يقال أنه قطع بسيفه "الجوردان نوت" (Gordian knot).

وباسـتمرار تقدمـه جنوبا، واجه الإسكندر جيش الفرس الأول الذي قاده الملك داريـوس الثالـث (Darius III) في أسوس (Issus) في شمال شرق سوريا. لم يكن معـروف كـم عـدد جيش داريوس بعدد يبلغ حوالي ٥٠٠,٠٠٠ رجل ولكن يعتبر المؤرخـون هـذا العدد بأنه مبالغة. معركة اسيوس في عام ٣٣٣ قبل الميلاد انتهت بنصـر كبير للإسكندر وبهزيمة داريوس هزيمة نكراء، فرّ شمالاً تاركاً أمه وزوجته وأولاده حيـث عاملهم الإسكندر معاملة جيدة وقريبة لمعاملة الملوك حسب ما تقوله الـروايات. قدمت مدينة تايري (صور) (Tyre) المحصنة بحرياً مقاومة قوية وثابتة

١٨- اتش جي ويلز: المرجع السابق، ص ١١٢.

أمام الإسكندر ألا أن الإسكندر اقتحمها بعد حصار دام سبعة أشهر في سنة ٣٣٤ قبل الميلاد احتل غزة ثم مر إلى مصر حيث استقبل كمنقذ، وبهذا النجاح أمن التحكم بخط الساحل الشرقي للبحر المتوسط. وفي عام ٣٣٢ وجد على رأس نهر النيل مدينة سماها الإسكندرية (سميت على اسمه فيما بعد) والتي أصبحت العاصمة العلمية والأدبية والتجارية للعالم اليوناني. سيرين (Cyrene) العاصمة القديمة لمملكة أفريقيا الشمالية (سيرناسيا) خضعت فيما بعد هي الأخرى وهكذا يكون قد وسع حكمه إلى الإقليم القرطاجي.

في ربيع عام ٣٣١ قام الإسكندر بالحج إلى المعبد العظيم ووسيط الوحي آلهة الشمس آمون-رع (Amon-Ra) زيوس (Zeus)(١٩) لدى اليونان، حيث كان المصريين القدامى يظنون بأنهم أبناء الـه الشمس أمون-را (Amon-Ra) وكذلك كان حال الحاكم الجديد لمصر الإسكندر العظيم بأن الحج الذي قام به آتى ثماره وأصبح ابناً للآلـه وذلك لاعتقاده بأن أصوله الـهية. بالعودة إلى الشمال مرة أخرى، أعاد ترتين قواته في تايري (Tyre) بجيش مكون من ٤٠,٠٠٠ جندي مشاة و٧,٠٠٠ فارس عابرا نهري دجلة (Tigris) والفرات (Euphrates) وقابل داريوس (Darius) على رأس جسش بحوالي مليون رجل بحسب المبالغات في الكتابات القديمة. وقد استطاع التغلب على هذا الجيش وهزيمته هزيمة ساحقة في معركة جاوجاميلا (Battle of Gaugamela) في الواحد من أكتوبر عام ٣٣١ قبل الميلاد.

فرَ داريوس مرة أخرى كما فعل في (أسيوس) ويقال بأنه ذُبح في ما بعد على يد أحد أخدامه. حوصرت مدينة بابيلون (Babylon) بعد معركة (جاوجاميلا) وكذلك مدينة سوسا (Susa) وكنزها الهائل التي 'أحتلت فيما بعد، وبعد ذلك وفي نصف فصل الشتاء اتجه الإسكندر إلى بيرسبوليس (Persepolis) عاصمة الفرس. حيث قام باحتلالها وبعد نهب الثروات الملكية وأخذ الغنائم قام بحرق المدينة بأكملها خلال حفلة شرب. وبهذا الاجتياح الأخير الذي قام به الإسكندر أصبحت سيطرته تمتد إلى خلف الشواطئ الجنوبية لبحر كاسبيان (Caspian) متضمناً أفغانستان وبلوشستان الحديثة وشمالاً من باكتريا (Bactria) وسوقديانا (Sogdiana) وهي الان غرب

١٩- زيوس هو رب الأرباب في الميثولوجيا (الأساطير اليونانية).

تركستان وكذلك تعرف آسيا الوسطى. أخذت من الإسكندر ثلاث سنوات فقط من ربيع ٣٣٧ إلى ربيع ٣٣٠ ليحتل كل هذه المساحات الشاسعة. وبصدد إكمال غزوه على بقايا إمبراطورية الفرس التي كانت تحوي جزءاً من غرب الهند، عبر نهر اندوس (Indus River) في عام ٣٢٦ قبل الميلاد ومحتلاً بذلك بانجبا (Punjab) التي تقرب من نهر هايفاسيس (Hyphasis) والتي تسمى الان بياس (Beās) وعند هذه النقطة هذه النقطة ثار المقدونيين ضد الإسكندر ورفضوا الاستمرار معه فقام ببناء جيش آخر ثم أبحر إلى الخليج العربي ثم عاد براً عبر صحراء ميديا (Media) بنقص من الطعام والشراب حيث خسر عدداً من قواته هناك. أمضى الإسكندر حوالي سنة وهو ينظم مخطتاطه ويحصي المناطق التي سيطر عليها في منطقة الخليج العربي للاستعداد لهجوم محتمل قريباً.

وصل الإسكندر بابيلون (Babylon) في ربيع ٣٢٣ قبل الميلاد وفي شهر يونيو أصيب بحمى شديدة مات على أثرها تاركاً إمبراطورية عظيمة واسعة خلفه وبجمته الغامضة "إلى الأقوى" (to the strongest) قادت إلى صراعات شديدة استمرت لحوالي نصف قرن.

كان الإسكندر من أعظم جنرالات الحروب على مر العصور حيث وصف كتكتيكي وقائد قوات بارع وذلك بدليل قدرته على احتلال كل تلك المساحات الواسعة لفترة وجيزة. كان شجاعا وسخيا، وشديدا صلباً عندما تتطلب السياسة منه ذلك. وكما ذكر في كتب التاريخ القديمة بأنه كان مدمن كحول فيقال أنه قتل أقرب أصدقائه كليتوس (Clitus) في حفلة شراب حيث أنه ندم على ذلك ندما عظيما على ما فعله بصديقه. وصفوه بأنه ذا حكمة بحسب ما يقولونه المؤرخون بأنه كان يسعى لبناء عالم مبني على الأخوة بدمجه الشرق مع الغرب في إمبراطورية واحدة. فقد درب آلاف الشباب الفرس بمقدونيا وعينهم في جيشه، وتبنى بنفسه عادات وتقاليد الفرس وتزوج نساء شرقيات منهم ركسانا (Roxana) التي توفيت عام ٣١١ ق.م ابنة أكسيراتس (Oxyartes) التي لها صلة قرابة مباشرة (لداريوس)، وشجع ضباط جيشه وجنوده على الزواج من نساء فارسيات.

قبل أن يموت بفترة وجيزة أمر الإسكندر الإغريق بتمجيده وعبادته كإله، وأرجعها لأسباب سياسية ولكن هذا القرار سرعان ما ألغي بعد موته. أهم ما قام به دخوله مدينة الإسكندرية (التي سميت باسمه) وتغييرها تغييرا جذريا حيث أبدا لها

اهـتماما خاصـــا وكانت مهيئة بالمكان الاستراتيجي الجيد ووفرة الماء حيث أقبل علـــيها في عهده التجار والطلاب والعلماء وجميع الفئات وبهذه الإنجازات أصبحت اللغة اليونانية واسعة الانتشار ومسيطرة على لغات العالم.

وعـــندما توفـــى الإســـكندر فى سنة ٣٢٣ ق.م كانت فتوحاته قد امتدت من الـــيونان وآسيا الصغرى وسوريا ومصر عبر فارس وأفغانستان إلى أن بلغت نهر الهندوس.

لـــم يطل المشهد حتى انبعث شعوب آسيا الراقدة تضرب في جيوش الاسكندر كـــل وجـــه، وتحيل لهيبهم إلى رماد، حيث يمزقون إلى بطالسة وسلوقيين، وتبرز مشاهد متعاقبة من الأكاسرة الجبارين، تطرق أبواب أوروبا من الأناضول في هبة الشرق العارمة، في صد أطماع الغرب.

وتطلعـــت اليونان إلى التوسع الإقليمى فى الأراضى المحيطة بها وبدأت بهذا إيجاد الإمبراطوريات المترامية الأطراف فشملت غرب أسيا الصغرى وأجزاء من إيطاليا وليبيريا وشمال أفريقيا ومصر والشام والعراق.

وبعـــد أقـــل من قرن يضرب هانيبال[٢٠] بسياطه الموجعة في قلب الحواضر الأوربية، ويسجل غضب الجنوب على الشمال، وتثأر قرطاجة للإسكندرية ويشتعل المتوسط بنار الكراهية من جديد.

ثانياً: العصر الروماني: استأنف الرومان ما بدأه اليونان

كانـــت الحـــرب جـــزءا أصـــيلاً من الحياة الرومانية الباكرة وكان الشعب مشبعاً بالعقلـــية الحربية وقد ابتلعت روما الإمبراطورية الإغريقية كاملة وتمددت بعدها لتشمل كـــل أوروبـــا جنوب الدانوب وغرب الراين ثم قفزت المانش لتضم إنكلترا[٢١] وجعلت مـــن الـــبحر المتوسط بحيرة رومانية وبحراً مغلقاً أشبه بنواة للإمبراطورية، ويلخص

٢٠- هانيبال هو من أهم القادة العسكريين القرطاجيين. ولد بقرطاج سنة ٢٤٧ قبل الميلاد، ورافق وهو في التاسعة من عمره والده أميلكار بركا في حملته على أسبانيا. وفي سنة ٢٢١ اختاره الجنود قائدا، فتمكن من بسط نفوذ قرطاج على كامل شـــبه الجزيـــرة الإيبيرية بما في ذلك إحدى المحميات الرومانية. وقد رأت روما في ذلك خرقا للمعاهدة التي عقدت إثر الحـــرب البونيقية الأولى، وطالبت بتسليمها حنبعل، وقد كان رفض هذا الطلب سببا في اندلاع الحرب البونيقية الثانية بين سنتي ٢١٨ و٢٠١ قبل الميلاد.

٢١- أنظر جمال حمدان: إستراتيجية الاستعمار والتحرير، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩.

أرنولد توينبى Arnold Toynbee [٢٢] الفيلسوف الإنكليزى الشهير في كتابه دارسة التاريخ Study of History أنها المثال النموذجى لما يسميه بالدولة العالمية universal state, والعجيب أن معنى كلمة روما Hroma يعكس مدى تسلطها وتجبرها حيث تعنى "الجبارة "!!

وكان الانضباط العسكرى لديهم أكثر عنفاً وصلابة سيما عند مواجهة العدو وكانت هى مفتاح التوسع الرومانى أولاً فيما وراء حدود المدينة إلى شبه الجزيرة الإيطالية ثم إلى ما وراءها فى أوروبا الأكثر اتساعاً وكان أداء الخدمة العسكرية من المؤهلات الأساسية للحصول على منصب سياسى على مدى تاريخ الجمهورية الرومانية وقد كان إله روما الرئيس هو مارس Mars إله الحرب.

ولم يكن أمام المواطن الرومانى خيار سوى أن يخدم فى الجيش وكان من الضرورى أن يكون المجند فلاحاً مالكاً للأرض ومواطناً رومانياً وأن يكون مستعداً للخدمة العسكرية لمدة تتراوح بين خمسة عشر وعشرين عاماً.

وقد استخدمت روما التجنيد الإجبارى فى أوقات الأزمات غير أن الجنود المتطوعين المحترفين كانوا يمثلون عماد الفيالق الرومانية وكانوا يعرفون أنهم سيشاركون فى حملات عدة وأنه لابد من خوض كل معركة بشراسة وعنف وأنهم إذا انتصروا فالمتوقع أن يتصرفوا بوحشية وبث الرعب والهلع فى قلوب الأعداء وكانت المدن المقهورة تعامل بغلظة وعنف شديدين.

وكان الانضباط والمعنويات العالية عنصرين أساسيين فيما يتعلق بأسلوب شن الرومان للحرب وأن تنزل بأعدائها خسائر فادحة فى حالتى النصر والهزيمة، وتمتع الجيش العسكرى الرومانى بشهرة واسعة.

وكان التوسع أكثر نحو الغرب في حوض البحر الأبيض المتوسط شمالاً وجنوباً. كانت اللغة اللاتينية لغة المحتلين.. وظلت الثقافات الوطنية في الشاطئ الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط باقية.. وورثت المسيحية الرومانية المسيحية

٢٢- المؤرخ البريطاني المعاصر، الذي انصبت معظم دراساته على تاريخ الحضارات، وكان أبرزها مؤلفه الشهير (دراسة للتاريخ) الذي شرع يعمل فيه منذ عام ١٩٢١ وانتهى منه عام ١٩٦١، وهو يتكون من اثني عشر جزءًا عرض فيها توينبي لرؤيته الحضارية للتاريخ. ولقد وضع المستر سومرفيل – تحت إشراف توينبي نفسه – مختصرًا في جزأين لهذا العمل الواسع بسط فيه جميع آراء المؤلف مستخدمًا عباراته الأصلية في معظم الأحيان، وحذف الكثير من الأمثلة والآراء دون إخلال بالسياق العام للكتاب.

اليونانــية ونشــرتها فــي شمال أوربا مع اللغة اللاتينية بعد أن تحولت روما من عاصــمة للإمبراطورية الرومانية إلى عاصمة للإمبراطورية المسيحية بعد تحول قسطنطين في القرن الرابع الميلادي.

ويكفـــي أن رومـــا أفـــرزت أخطـــر دعاة الحرب والدموية فى التاريخ مثل نـــيرون[٢٣] ولم يجد (نيرون) في روما إلاَّ العيوب. ولأنه كان ينظر إلى نفسه على أنه "إله وفنان"، أو هكذا كان شيوخ روما يرونه ويخاطبونه، وكان يحلم بإعادة بناء رومـــا مـــن جديد ليسميها (مدينة نيرون). ويُقال أن إحراق روما لم يكن بعيداً عن فعـــل يديْ (نيرون). ولكي يدفع التهمة عن نفسه ألصقها بطائفة من المسيحيين من الذيـــن يحقد الشعب عليها. فعثر على جماعة من الفجّار، وأغراهم على أن يعترفوا بـــأن تلـــك الطائفـــة هـــي التي أشعلت النار في المدينة. وأُدين أفرادها بتهمة أنهم يكـــرهون الجـــنس البشـــري كله. واستخدم (نيرون) في إعدامهم أفانين من القسوة المتناهـــية، ومـــنها أنه تركهم للكلاب لكي تلتهمهم، وصلب البعض، ودفن البعض أحياء، ودهن أجسام البعض الآخر بالمواد الملتهبة وأُشعلت فيها النيران.

وقد هلك فى هذا الحريق الآلاف من سكان روما واتجهت أصابع اتهام الشعب والسياســـيين تشير إليه إلى أنه هو المتسبب فى هذا الحريق المتعمد، وتهامس أهل روما بالأقاويل عليه وتعالت كلماتهم وتزايدت كرهية الشعب نحوه، وأصبح يحتاج إلى كبش فداء يضعه متهماً أمام الشعب وكان أمامه اختيار أما اليهود أو المسيحية

٢٣- نـــيرون (٣٧- ٦٨) وصـــل إلى العـــرش أنـــه نتيجة لأنه كان ابن كلوديوس بالتبنى، وقد بدأ نيرون حكمه بفترة من الإصـــلاحات وذلـــك بتأثير معلمه الفيلسوف سينيكا Seneca، ولكنه كان صغيراً فى السن ليحكم هذه الإمبراطورية الواســـعة، فقد كان سنه ١٦ سنة، فانقلب حكمه إلى كابوس مخيف وانغمس فى اللهو، والغريب أنه سيطرت عليه رغبه أنـــه بـــارع كمغنى ولاعب للقيثارة وسائق عربة حربية، والمؤرخ المتتبع لكيفية وصول الأباطرة إلى عرش روما يكتشف بســـهولة أنه كان غالبا عن طريق الاغتيالات السياسية التى اصبحت السمة الأساسية للحكم فى روما، فى عصر نيرون كـــثرت المؤامـــرات والإغتيالات السياسية التى كان له يد فى تدبيرها وكانت أمه أجريبينا إحدى ضحاياه وماتت وهى تلعـــن جنيـــنها نيرون التى حملته فى بطنها وأبلت به العالم، ومن ضحاياه أيضاً أو كتافيا زوجته الأولى، وأيضا قتل معلمه ســـينيكا، أما اشهر جرائمة على الإطلاق كان حريق روما الشهير سنة ٦٤ م حيث راوده خياله فى أن يعيد بناء روما، وبـــدأت النيران من القاعدة الخشبية للسيرك الكبير حيث شبت فيها النيران وانتشرت بشدة لمده أسبوع فى انحاء روما، والتهمـــت الـــنيران عشرة أحياء من جملة انحاء المدينة الأربعة عشر، وبينما النيران تتصاعد والأجساد تحترق وفى وسط صـــراخ الضـــحايا كان نيرون جالساً فى برج مرتفع يتسلى بمنظر الحريق الذى خلب لبه وبيده آلة الطرب يغنى أشعار هوميروس التى يصف فيها حريق طروادة.

الحديـثة فى روما، ولكن كان اليهود تحت حماية بوبياسبينا إحدى زوجات نيرون، فألصـق الـتهمة بالمسـيحيين، وبـدأ يلهـى الشعب فى القبض على المسيحيين واضـطهادهم وسفك دمائهم بتقديمهم للوحوش الكاسرة أو حرقهم بالنيران أمام أهل رومـا فى الستاديوم وفى جميع إنحاء الإمبراطورية حتى أن مؤهلات الولاة الذين كـانوا يـتولون الأقالـيم هـو مدى قسوتهم فى قتل المسيحيين، وسيق أفواج من المسيحيين لإشباع رغبة الجماهير فى رؤية الدماء، وعاش المسيحيين فى سراديب تحـت الأرض وفى الكهوف، وأستمر الاضطهاد الدموى أربع سنوات. ولما سادت الإمـبراطورية الرومانـية الفوضـى والجريمة فأعلنه مجلس الشيوخ السنات أنه أصـبح: عدو الشعب. فمات منتحراً فى عام ٦٨ م مخلفاً وراؤه حالة من الإفلاس نتيجة بذخه الشديد والفوضى من كثرة الحروب الأهلية أثناء حكمه.

ولـم يكـن (نـيرون) روما هو الأول من أمثاله في التاريخ الرومانى، فهناك (كالـيجولا) الإمـبراطور الشهير، الذي أخذ يتصرف بروما، وكأنها من ممتلكاته الخاصة(٢٤)، يرفع من يرفع، ويهين من يهين، وذكر المؤرخون أعمالاً لكاليجولا، فـيها من بشاعة ما تشمئز لها النفوس، لدرجة أنه كان يفضل الحيوانات على كبار رجـالات رومـا.. وبلغ به الاستهتار أن دخل يوماً إلى مجلس الشيوخ الروماني، وهـو يمتطـي صـهوة جواده المدلل (تاتوس)، فأبدى أحد أعضاء مجلس الشيوخ الرومانـي ملاحظة حول هذا السلوك، فما كان من الإمبراطور إلا أن قال: "لست أدري لمـاذا يـبدي العضو المحترم ملاحظته على دخول جوادي تاتوس إلى قاعة البرلمان؟! مع أنه - أي الحصان - أكثر ذكاء من العضو المحترم!!.. على الأقل لأنه يحملني، أليس كذلك أيها السادة؟!".

فمـا كان من أعضاء مجلس الشيوخ إلا أن صفقوا تأييداً للإمبراطور وتعالت الهـتافات بحـياة كاليجولا، الذي ظل غاضبا بسبب ملاحظة عضو البرلمان، ولم يـرض إلا بعـد أن تقدم أحدهم باقتراح يقضي بتعيين الحصان تاتوس عضواً في المجلس.. وصُفق للاقتراح، وأصبح حصان الإمبراطور يحمل لقب (عضو مجلس الشيوخ الروماني)!!

٢٤- أنظـر مقال د نجم عبد الكريم "الطاغية الذي فرض على الشعب أن يأكل التبن والشعير" بجريدة الشرق الأوسط بتاريخ ١٥ابريل ٢٠٠٣، العدد ٨٩٠٤.

وبهـذه المناسـبة، أقام كاليجولا حفلاً كبيراً على شرف حصانه دعا إليه كبار رجال الدولة، والأعيان، وكان من شروط الدعوة ارتداء الملابس الرسمية.. وفعلاً حضـر الضـيوف فـي أبهى حللهم.. لكن المفاجأة التي أدهشتهم تكمن في نوعية الطعـام المقـدم إليهم في ذلك الاحتفال، ولما تردد البعض منهم في تناوله قال لهم الإمبراطور: "ما لكم لا تأكلون؟!".

فـرد علـيه أحـد الحضور قائلا: "مولاي كاليجولا.. كيف تريد منا أن نأكل الشعير والتبن، وهو طعام الجياد؟!".

فمـا كان من الإمبراطور إلا أن غضب، وصاح فيهم: "إنه لشرف كبير لكم، أن تتناولوا في صحائف من ذهب، نفس طعام حصاننا (تاتوس)!!".

ثـم أمـرهم قـائلا: ".. هيا كلوا.. واشربوا.. اشربوا نفس النبيذ الذي يشربه حصـاني (تـاتوس)!! أليس عضواً في مجلس الشيوخ الروماني؟!"، فلم يكن أمام الحضور غير الامتثال لما أمرهم به الإمبراطور، فطفقوا يأكلون التبن والشعير عدا (بـراكوس كانا)، الذي لمحه كاليجولا، لا يشارك الباقين في تناول الشعير والتبن.. فاقـترب مـنه كاليجولا قائلا له: "كأني رأيتك لا تأكل؟! أسوة بالآخرين!! من أنت حتى تتجاسر، ولا تمد يدك إلى الطعام، مثلما يفعل أشراف البلاد..؟! أم أنك تتعالى علـى طعـام عزيـزنا الحصـان (تـاتوس).. فبسبب موقفك هذا، فقد قررت أنا الإمـبراطور كاليجولا عزلك يا براكوس، وعينت حصاننا العزيز: (أنسيتا تاتوس) بـدلاً عـنك فـي المهـام التي تتولاها في مجلس الشيوخ الروماني..!!". فصفق الحضور لهذا القرار..

أمـا براكوس، فقد تأججت بداخله ثورة عارمة، فانفجر صائحاً بأعلى صوته: "إلـى متى يا أشراف روما نظل خاضعين لهذا الحاكم العابث؟!! هل هانت كرامة وشـرف الرومانيـين إلى هذا الحد؟! بحيث تصفقون لكاليجولا وهو يصدر قراراً أهوج بتعيين حصانه عضواً في مجلس الشيوخ الروماني..؟!".

ثـم التفـت في ثورته البركانية إلى الإمبراطور الروماني كاليجولا قائلا له: "انظر يا كاليجولا إلى براكوس، وهو يقذف بحذائه في وجه نائبك هذا الذي تسوّده علينا..".

ثـم صـاح – وهو في ثورته: "يا أشراف روما افعلوا مثلما فعلت، واستردوا شرفكم المهان، من هذا الحاكم الأرعن..".

ومـا هـي إلا لحظـات، حتى انقلب الحفل إلى ثورة عارمة، ومعركة حادة، استخدمت فيها الأطباق الذهبية، والكؤوس الفضية، لتقضي على حاكم لم يكن يرى إلا نفسه!!.

ومـا أن بلغ أهل روما ما حدث في ذلك الحفل في اليوم التالي، حتى خرجوا عـن بكرة أبيهم يحطمون تلك التماثيل التي وضعت في الميادين لكاليجولا، وغيره مـن أباطـرة روما من أجداده، بمن فيهم نيرون، الذي كان تربطه قرابة بكاليجولا من ناحية الأم..

بالطبع، لقد أُجهز على الحصان المسكين تاتوس الذي لا ذنب له سوى أنه كان يحمـل ديكـتاتوراً، لا يذكره التاريخ الآن، إلا في مزابله .. ولكن من نسله خرج أولئك القوم.

فـي غمرة هذا الصراع كان هناك مشروع آخر يتم إعداده في روما الإيطالية التـي تـتدلى فـي قلـب الـبحر المتوسط في إرادة جادة للمواجهة، تحت عنوان الإمبراطورية الرومانية والتي ستصبح المقدسة فيما بعد وتنطلق الأطماع الرومانية من جديد فتلتهب البلاد المتشاطئة في البحر المتوسط، في القرن الأول قبل الميلاد، ويمضـي المشـروع الرومـي إلى مصر، ثم يرسم ملامح وجود جديد على طول شـواطئ المتوسـط ليصبح بحيرة رومية، ثم يجتاح بلاد الشام ويصل إلى مواجهة مباشـرة مع الحضارة الساسانية الفارسية، حيث سيبدأ صراع مرير سيستمر سبعة قرون.

وقد طبع الصراعُ الفكر الرومانيَّ في مظاهره التشريعية والقانونية والسياسية والمدنـية، بحيث غلبت فكرة الصراع على الفكر اليوناني والروماني وهيمنت عليه هيمـنة مطلقـة وصبغت العقل اليوناني والروماني بصبغة الصراع باعتباره أصلاً ثابتاً للحياة الدنيوية والأخروية.

والعجيب أنه لم يحدث أن عارض الشعب الرومانى قرار مجلس الشيوخ بشن الحرب مما يدل على العقلية الحربية الكامنة فى عقلية المواطن الرومانى.

وقـد كان من آلهة الرومان الكبار هو مارس Mars اله الحرب كما سبق أن ذكرنا، ويخبرنا بوليبيوس أنه قبل معركة زاما ٢٠٢ ق م قال القائد الرومانى سيبيو لقواتـه أنه إذا ما هزم هانيبال فانهم سوف يحققون لأنفسهم ولبلادهم هيمنه وسلطه لا ينافسهم فيها أحد على بقية العالم!!.

وفـــى عهــد الجمهورية الباكر لم يكن أمام المواطن الرومانى خيار سوى أن يخـــدم فـــى الجــيش وكـــان من الضرورى أن يكون المجند فلاحا مالكا للأرض ومواطنا رومانيا وأن يكون مستعدا للخدمة العسكرية لمدة تتراوح بين خمسة عشر وعشـــرين عامـــا وقد استخدمت روما التجنيد الإجبارى فى أوقات الأزمات وكان الجــنود يخوضـــون المعارك بشراسة وعنف وانهم فى حالة انتصارهم يتصرفون بوحشيه وقسوة بالغة وقدم لنا بوليبيوس وصفا لقتل المدنيين واغتصابهم دون تمييز وشـــجع القادة الرومان ما اشتهرت به القوات الرومانية من شراسة ووحشيه فنجد مثلا سيبيو ايميليانوس يأمر خلال الحرب البونية الثالثة بقطع أيدي أربعمائة متمرد في أسبانيا.

٤

الفصل الرابع

الحروب الصليبية

الفصل الرابع
الحروب الصليبية

ثالثاً: العصور الوسطى Medieval

"الدين والحرب والفروسية" كلمات ثلاث لا يمكن فهم عقلية العصور الوسطى مـــن دونهـــا. وكان هناك بالحرب للحرب فى ذاتها وصل إلى التمجيد الرمانتيكى فـــنجد مـــنهم من يقول يا للحرب من شئ بهيج أعتقد أن الرب يفضل أولئك الذين يخاطرون بحياتهم من خلال استعدادهم لشن الحرب!!.

لقـــد تـــبلورت فكرة الصراع في الفكر الأوروبي بصورة واضحة في عصر الحـــروب الصـــليبية Crusades والصـــراعات الكثـــيرة التـــي تقابلَ فيها الشرق والغـــرب، وانفجرت أوروبا بالأوهام الصليبية، فقد شعر الصليبيون في تلك الفترة بأنـــه يتوجـــب علـــيهم الـــتخلص من الثقافة العربية في المنطقة وجعل تلك البقعة مـــن الوطـــن العربي لاتينية، وكذلك القضاء على الأرثوذكسية التي كانت منتشرة فيهـــا.

وتمـــثل المرحلة الصليبية فترة مظلمة في تاريخ العلاقات بين أوروبا والعالم الإسلامي، فكانت مرحلة مليئة بالعنف والحروب والنهب والمذابح الوحشية وتدمير المدن، وتصاعد الحقد والكراهية وعدم الاستقرار[١] .. يعلق الباحث نورمان دانييل Norman Daniel على المزاعم المسيحية فيقـــول: "لقد اعتبر المسيحيون الحروب الصليبية حرباً مقدسة Holy War".

بدأت الخطوة الأولى من الحروب الصليبية، عندما وجه الإمبراطور البيزنطي الكســـيوس كومونيـــنوس Alexius Communes (حكم ١٠٨١-١١١٨م) نداءات مـــتكررة طالباً مساعدة بابوية لمواجهة احتلال الأتراك السلاجقة جزءاً من أراضـــي الإمبراطورية، ليس بعيداً عن العاصمة القسطنطينية. وطلب النجدة السريعة[٢] لدفع هـــذا الخطر ورداً على استغاثته التى جاءت وفق هوى البابوية، ألقى البابا أوربان الثانـــي Urban II (١٠٨٨-١٠٩٩م) خطابـــاً في عام ١٠٩٥، بمجمع كليرمونت

١- لمزيد من التفاصيل أنظر: وليم الصورى: الحروب الصليبية (أربعة أجزاء)، ترجمة حسن حبشي ،ستيفن رنسمان.

٢- سعيد عاشور: أضواء جديدة على الحروب الصليبية، المكتبة الثقافية، عدد ١١٨ أكتوبر، سنة ١٩٦٤، ص ٢٣.

Clermont [٣] جـنوب فرنســا، قريباً من الحدود الإسلامية لإسبانيا. وكان خطابه مليــئاً بالإشــاعات عن وحشية المسلمين وفظاعتهم، ملمحاً إلى الأطماع الشخصية ومؤكداً على أتباعه "في دخول الطريق إلى الضريح المقدس، وانتزاعه من العنصر الشرير، ووضعه بأيديهم". ورفع شعاراً دينياً يبرر الحملات المرتقبة ويشجع الناس علــيه، فكــان شــعار (هــذه مشــيئة الله) هو القادر على تعبئة الجماهير. ووعد المتطوعيــن في الحملة بحياة أفضل في الدنيا، وبغفران الذنوب إن ماتوا في ساحة القتال.

وســرعان مــا انتشــرت دعوة البابا مثل النار في الهشيم من فرنسا إلى بقية أوروبــا، غنــي وفقــير، شاب وكهل. فقد تبنى التبشير بالحركة الصليبية بطرس الناســك الذي كان يتمتع بالفصاحة والقدرة على التأثير، فطاف أقاليم فرنسا ليخرج منها بخمسة عشر ألف متطوع معهم نساؤهم وأطفالهم. وكذلك والتر المفلس.

ويذكــر المؤرخــون أن بطرس الناسك كان رجلا قصير القامة، أسمر اللون، يمشى حافي القدمين، مرتديا ملابس رثة، وكان راهبًا هجر الدير بتكليف من البابا؛ لكي يقوم بالدعوة إلى الحملة الصليبية، فطاف بمختلف أقاليم فرنسا بهيئته المزرية داعــيا إلــى حملــة البابا، وفي كل مكان يحل به كان يسحر ألباب الناس، ويخلب أفــئدتهم ببــيانه الساحر وفصاحته حتى تجمع حوله أعداد هائلة من الأتباع، بلغوا خمســة عشــر ألفــا، منهم فلاحون وأهل مدن، وفئات من صغار النبلاء، وبعض المجرميــن وقطاع الطرق، ولم يكن يجمع هؤلاء الشراذم إلا الحماسة والرغبة في قتال المسلمين، والاستيلاء على الأرض.

وفــي الوقــت الــذي كــان فيه بطرس الناسك ماضياً في دعوته في الغرب الأوروبــي ظهــر زعيم آخر من زعماء العامة اسمه "والتر المفلس"، التف حوله بعــض الــناس، وعــبر بهم أرض "هنغاريا" ثم أراضي الدولة البيزنطية، وطوال الطــريق كانوا ينهبون ويسلبون ويعتدون على الأهالي حتى بلغوا القسطنطينية في (رمضــان ٤٨٩هـــ= يوليو ١٠٩٦) وسمح لهم الإمبراطور البيزنطي الكسويس كومنين بالانتظار خارج أسوار العاصمة حتى وصول "بطرس الناسك".

٣- ريــلى سميث: الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٩، ص ٣٣.

وبحلول عام ١٠٩٧ كان هناك ١٥٠,٠٠٠ محارب صليبي قد وصلوا القسطنطينية.

وارتكبت الحملة أثناء سيرها كل الموبقات من سلب ونهب وقتل واعتداء على الأعـراض، حـتى وصلت إلى أبواب القسطنطينية، فسارع الإمبراطور البيزنطي كومونيـنوس إلـى نقلهـم عبر مضيق البوسفور إلى آسيا الصغرى، وتخلص من شرورهم، وقابل السلاجقة هذه الجحافل وأوقعوا بهم هزيمة قاسية.

الحملة الصليبية الأولى (حملة الأمراء) :

"لقـد افـرط قومنا في سفك الدماء .. وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهـناك .. وكانـت الأيـدي والأزرع المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث اقتطعن منها"

وبعد الفشل الذي مُنيت به الحملات الشعبية الصليبية، بدأت التحضيرات للقيام بحملات صليبية منظمة يقودها الفرسان والأمراء، ومزوَّدة بالمؤن والسلاح والعتاد، وتألفت الحملة الصليبية الأولى من أربع جماعات، واحدة منها بقيادة "جودفري دي بويـون"، والثانية بقيادة "بوهيموند" النورماندي، والثالثة بقيادة "ريموند دي تولوز"، والرابعة بقيادة "روبرت" النورماندي.

وهكـذا توحـدت جمـيع القوى الأوروبية المتصارعة من أجل شن حروب تدميرية بشعة ضد العالم الإسلامي(٤)، يقول ديورانت في قصة الحضارة: (وهكذا توحـدت أوروبـا كمـا لم تتوحد في تاريخها، وكان من حسن حظ الصليبيين أن المسلمين كانوا أشد انقساماً على أنفسهم من المسيحيين، وعلي هذا فان أحد العوامل الأساسـية التي جعلت العلاقة بين الطرفين علاقة مواجهة دائمة ومعركة حضارية متبادلة، كانت الحروب الصليبية وما شكلته من دوافع وبواعث وآثار على مختلف الأصعدة والمستويات. وتمكنت الحملات الصليبية من سحق بلاد الشام وإقامة أربع ممالك صليبية فيها (الرها – إنطاكية – بيت المقدس – طرابلس) فقد احتلوا القدس في يوم حزين من أيام شهر يونية ١٠٩٩م(٥) .

فمـاذا فعلـوا مع المسلمين؟ إن الإجابة على مثل هذا السؤال تستوجب العودة إلـى صـفحات الـتاريخ لنقرأ فيها فصلا رهيباً من الإبادة والتنكيل بالمسلمين في

٤- انظر محمد محفوظ: الإسلام، الغرب، وحوار المستقبل ،ط١، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٨.

٥- لمزيد من التفاصيل انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية (جزءان)، أوروبا العصور الوسطى ،مكتبة الانجلو المصرية.

مذابـــح رهيبة تظل أبد الدهر وصمة عار فى جبين هذه الثقافة الغربية، ويكفى هنا أن نشير إلى أن الصليبيين لم يتورعوا عن ذبح سبعين ألف مسلم اجتمعوا واحتموا فى المسجد الأقصى غداة سقوط بيت المقدس ١٠٩٩.

وكتـــب الصـــليبيون لبابا روما رسالة سجلتها كتبهم يقولون فيها: "إن جنودنا كانوا يخضون بسيقانهم حتى الركب فى دماء المسلمين"، وقال المؤرخ الشهير "وليم الصـــورى": "كـــان بيـــت المقدس مخاضة واسعة من دماء المسلمين"، واعتصمت جمـــوع المســـلمين فى مسجد عمر (وهو الموضع الذى صلى فيه بديلا عن كنيسة القيامة حتى لا يتخذها المسلمين مصلى لهم) فيسجل أحد الكهنة المسيحيين ما رأى متألما: " لقد افرط قومنا فى سفك الدماء .. وكانت جثث القتلى تعوم فى الساحة هنا وهـــناك .. وكانـــت الأيـــدى والأذرع المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث اقتطعن منها".

أما المؤرخ المسلم أسامة بن منقذ [٦] (٤٨٨-٥٨٤هـــ/ ١٠٩١-١١٨٨م) الذي عاصـــر الحـــروب الصـــليبية، فقـــد كتب في مذكراته عن تلك الأحداث ووصف تفاصـــيلها. فكـــان قـــد شاهد الأحداث عن قرب لأنه كان كاتباً لدى صلاح الدين الأيوبـــي. وأورد أبن الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ) بعض جرائم الصليبيين، إذ يـــنقل الحادثة التالية التي تعبر عن الوحشية والقسوة. فقد هاجم الصليبيون مدينة المعـــرة فـــي سوريا، "وعند الفجر وصل الفرنج، إنها المذبحة، فوضع الفرنج فيهم الســـيف ثلاثـــة أيام فقتلوا ما يزيد على مائة ألف وسَبَوا السبي الكثير" ويصف أحد المؤرخين الصليبيين، راول دي كين، المرافق للجيش الذي دخل المعرة فيقول "كان جماعتـــنا فـــي المعرة يغلون وثنيين بالغين في القدور، ويشكون الأولاد في سفافيد ويلتهمونهم مشويين".

أمـــا "جوســـتاف لوبـــون" فيسجل فى كتابه "حضارة العرب"[٧] تلك المفارقة المذهلـــة بيـــن رحمة حضارة الإسلام ووحشية ثقافة الغرب فيقول: "فأولئك العرب الذين خرجوا من الصحراء، أعطوا المسيحيين فى القدس" العهد العمرى "المشهور والذى تعهد فيه المسلمون بالمحافظة على كنائس المسيحيين ومقدساتهم. وأما أولئك

٦- أسامة بن منقذ: مؤرخ وأديب عربي. ولد في شيزر، شمال حماة في وسط سوريا، ومات بدمشق.

٧- أنظر جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الأوروبـيون فكانوا يجوبون الشوارع ويصعدون إلى أسطح البيوت، ليروا غليلهم بالتقتيل،. وكانوا يذبحون الأولاد والشباب والشيوخ ويقطعونهم إربا إربا .. وكانوا يشنقون مجموعة من الناس بعضهم أمام بعض بحبل واحد بغية السرعة .. وقد أمر الأمـير " بوهيمند " بإحضار الأسرى إلى برج النصر، فأمر بضرب رقاب الشيوخ والعجائز والضعاف، وأما الشبان والرجال فقد سيقوا ليباعوا فى سوق الرقيق".

وبعـد أن دخـل الصليبيون المدينة المقدسة، تملَّكهم روح البطش والرغبة في سـفك دمـاء العزّل الأبرياء، فانطلقوا في شوارع المدينة وإلى المنازل والمساجد يذبحـون كـل من صادفهم من الرجال والنساء والأطفال، واستمر ذلك طيلة اليوم الـذي دخلـوا فـيه المدينة. وفي صباح اليوم التالي، استكمل الصليبيون مذابحهم، فقتلوا المسلمين الذين احتموا بحرم المسجد الأقصى، وكان أحد قادة الحملة قد أمَّنهم علـى حـياتهم، فلم يراعوا عهده معهم، فذبحوهم وكانوا سبعين ألفًا، منهم جماعة كبـيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبَّادهم وزهّادهم ممن فارقوا أوطانهم وأقاموا في هذا الموضع الشريف.

ويعـترف مؤرخو الحملات الصليبية ببشاعة السلوك البربري الذي أقدم عليه الصليبيون، فذكر مؤرخ صليـبي ممن شهد هذه المذابح وهو "ريموند أوف أجيل"، أنـه عندما توجه لزيارة ساحة المعبد غداة تلك المذبحة، لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء القتلى إلا بصعوبة بالغة، وأن دماء القتلى بلغت ركبتيه، وإلى مثل هذا القول أشار "وليم الصوري"، وهو الآخر من مؤرخي الحروب الصليبية(٨) .

ودمـروا مـا شـاء لهم أن يدمروا، ونهبوا الكثير، كما نهبوا بعض المعادن النفيسة التي كانت على المقدسات، ولا سيما قبة الصخرة.

إن المفارقـة بحـق مذهلـة، فالحرب الإعلامية والتى شنها الصليبيون بدعوى اضـطهاد النصارى قد نفاها المؤرخون الأوروبيون أنفسهم بما اثبت – بلا ادنى شك – زيـف خطـأ هـذا الرأى، فالنصارى طوال عهود الإسلام تمتعوا برحابة صدر المسـلمين، فهذا بطريرك بيت المقدس يعترف فى رسالة سرية إلى زميله بطريرك القسـطنطينية، جـاء فيها بالنص القطعى: "إن المسلمين قوم عادلون، ونحن لا نلقى

٨- لمـزيد مـن التفاصيل انظر: وليم الصورى: الحروب الصليبية (أربعة أجزاء)، ترجمة حسن حبشى، الهيئة المصرية لعامة للكتاب ١٩٩٤.

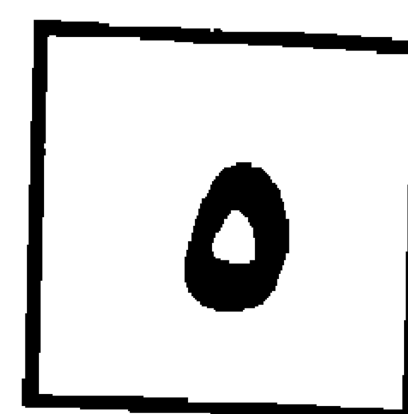
منهم أى أذى أو عنت "، فماذا ياترى كان جزاء المسلمين العادلين؟ تلك الغارة والعدوان على الإسلام وشعوبه والتى تتم صباح مساء فى غلظة وقسوة منقطعة النظير.

وحتى تزيد المفارقة عجباً نضع صورة أخرى من التاريخ مشابهة تماما، أنها صورة القائد "صلاح الدين الأيوبي" فى معاملة أعدائه بل وأعداء الإنسانية، فعندما دخل بيت المقدس اتجه إلى المسجد الأقصى الشريف فصلى وسبح بحمد ربه واستغفر ثم اتجه إلى قبة مسجد الصخرة فانزل الصليب المعلق عليها وعطرها، وأراد بعض الجند أن يحولوا كنيسة القيامة إلى مسجد، فأبى القائد المظفر وأمر بتركها مفتوحة، وكان سقط فى يده سبعين ألف صليبي (وهو نفس عدد المسلمين الذين ذبحوا قبل ٨٨ سنة) وأشار عليه البعض أن يثأر للمسلمين مما فعله الصليبيون عندما دخلوا بيت المقدس فجعلوه مخاضة من الدماء، فأبى ثم سمح لهم بالخروج آمنين سالمين إلى حيث شاءوا من المدن الأخرى، كما سمح للأميرات بالخروج مصونات مكرمات ومعهن الأمتعة والملابس وكل ما يمكن حمله ومع كل أميرة حاشيتها وخدمها وكلهن فى أمن وطمأنينة، ثم فرض على كل أسير دية صغيرة قدرها عشرة دنانير على الموسيرين، ودينار على الفقير، ثم علم أن هناك أربعة آلاف أسير لا يجد الواحد منهم ديناراً يدفعه فدفع من ماله الخاص ديتهم فخرجوا فى سلام وأمان، حتى الأساقفة خرجوا محملين بمقتنيات الكنائس وفيها تحف من الذهب والفضة فلم يتعرض لهم أحد، وهكذا من مئات القصص حتى لقد انتقد بعض المؤرخين موقف الناصر صلاح الدين من إطلاق الأسرى على هذه الشاكلة حيث كونوا جيبا قويا فى مدينة "عكا" والتى استقبلت فيما بعد حملة صليبية جديده من البحر، اليس هذا النموذج كافيا وحده ليوضح إنسانية حضارة الإسلام فى مقابل وحشية وعنف ثقافة الغرب؟ إن القائد العظيم اقتدى برسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم) عندما قال لمن أذوه واتباعه وضيقوا عليه وبغوا به القتل: "اذهبوا فانتم الطلقاء"، وبهذا الخلق الرفيع ارتقت حضارة الإسلام، ولقنت الغرب – كما يقول أحد المؤرخين – البرابرة الغربيين درسا فى الأخلاق كانوا فى اشد الحاجة إليه.

ولقد كانت الصليبيات درساً حضارياً قبل كل شيء لأوروبا، فقد كانت احتكاكاً حضـــارياً بين الشرق المتقدم والغرب المتخلف وكانت أول ما وحد أوروبا ومنحها شعوراً بالقومية(٩) .

وعلـــى إثر الحروب الصليبية اندلعت الحروب الأندلس وشنّ المسيحيون على المســـلمين حـــرباً ضروســـاً بلا رحمة ولا هوادة، ولكن ما هي قصة الإسلام في الأندلس؟

٩- جمال حمدان: المرجع السابق، ص ٤١.



الفصل الخامس

الأندلس

الفصل الخامس
الأندلس

يا أندلس عليك سلام ... هوت عنك الخلافة والإسلام!!

أطلق المسلمون أسم الأندلس al-andalus على القسم الذي فتحوه من شبه الجزيرة الأيبرية Iberia، وهى تعريباً لكلمة " فانداليشيا " التى كانت تطلق على الإقليم الروماني المعروف باسم باطقة الذى احتلته قبائل الفندال الجرمانية ما يقرب من عشرين عاماً ويسميهم الحميرى بالأندليش[1] . ويرى البعض أنها مشتقة من قبائل الوندال التى أقامت بهذه المنطقة مدة من الزمن، ويرى البعض الآخر أنها ترجع إلى أندلس بن طوبال بن يافث بن نوح عليه السلام[2] .

والأندلس، فتحها القائد طارق بن زياد سنة ٩٢هـ ٧١١م وقد أصبحت الأندلس جزءاً من الدولة الإسلامية. ويعتبر عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) مؤسس الدولة الأندلسية سنة ٧٥٠ التي كانت مستقلة عن الدولة العباسية واعتبرت الأندلس امتدادا لدولة بني أمية التي قضى عليها العباسيون في الشرق عام ١٣٢هـ.

وقد كان للأندلس دور كبير في التأثير على أوروبا والممالك المجاورة لها وكان يقصد قرطبة العديد من أبناء أوروبا لطلب العلم. وقد دام الحكم الإسلامي للأندلس قرابة ٨٠٠ سنة.

وفي العصر الحاضر لا تزال منطقة جنوب إسبانيا تعرف باسم الأندلس وتعتبر إحدى المقطاعات التي تشكل إسبانيا الحديثة وتحتفظ بالعديد من المباني التي يعود تاريخها إلى عهد الدولة الإسلامية في الأندلس، وتحمل اللغة الإسبانية كثيراً من الكلمات التي يعود أصلها إلى اللغة العربية.

وقد ارتقت الحضارة الإسلامية في تلك المنطقة من دنيا الإسلام ارتقاءً رائعاً ونافست الحضارة الإسلامية فيها حضارة الإسلام في المشرق، وبلغ من عظمة

١- السيد عبد العزيز سالم: دائرة معارف الشعب، عدد ٦١ لسنة ١٩٥٩.

٢- لمزيد من التفاصيل أنظر الطاهر احمد مكي: دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة ،ط٢ دار المعارف١٩٨٣ ص ٩ – ٢٥ .

قرطبة[٣] Cordova وازدهارها وخاصة إبان العهد الأموي في الأندلس إنها كانت أعظم مدينة في أوروبا كلها وتأتي على قدم المساواة مع القسطنطينية وبغداد إبان عزهما وناهيك ببلدة بلغ عدد مساجدها ١٦٠٠ مسجداً وبلغ المسجد الجامع في قرطبة شهرة عالمية وأكد الإدريسي أنه لا نظير له في المدن الإسلامية[٤]، وبلغ عدد حماماتها ٦٠٠ وفيها مائتا ألف دار وثمانون ألف قصر منها قصر دمشق شيده الأمويون حاكوا به قصورهم في بلاد الشام وقد بلغ عدد أرباض قرطبة (ضواحيها) تسعة أرباض كل ربض كالمدينة الكبيرة، ودور قرطبة ثلاثون ألف ذراع، وفي ضواحيها ثلاثة آلاف قرية في كل واحدة منبر وفقيه وقد قدر بعض المؤرخين عدد سكان قرطبة في أيام مجدها وعزها بمليوني نسمة، وكان بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة يكتبن المصاحف بالخط الكوفي. هذا في ضاحية من ضواحيها، فكيف ببقية الضواحي، وقد كانت شوارعها مبلطة وترفع قماماتها وتنار شوارعها ليلاً بالمصابيح ويستضئ الناس بسروجها ثلاثة فراسخ لا ينقطع عنهم الضوء. هذا شئ لم يحدث في أوربا إلا في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر. وبلغت قرطبة أوجاً لم تصل إليه مدينة في أوروبا قبل القرن الثامن عشر[٥] .

٣- انتقل الأمويون إلى قرطبة عام ٧٥٠ لدى سقوط دمشق في أيدي العباسيين وحكموها كإمارة حتى عام ٩٢٩ عندما أعلن عبد الرحمن الناصر نفسه خليفة المؤمنين متنافساً بذلك مع الخلافة العباسية، ومحولاً إمارته إلى خلافة قرطبة.
وصلت المدينة لأوج مجدها في القرن العاشر في عهد حكامها العظام: الخليفة عبد الرحمن الناصر (٩١٢ – ٩٦١)، وابنه الحكم الثاني (٩٦١ –٩٧٦) والحاجب المنصور بن أبي عامر (٩٨١ – ١٠٠٢). خلافة قرطبة كانت أكبر الدول الأوروبية في القرن العاشر. وكانت منارة العلم فى اوروبا والتى اخذ عنها الاوروبيين العلم عن العرب المسلمين فى مجالات كثيرة منها الطب والفلك والرياضيات والكيمياء.
في العقدين ١٠٢٠، ١٠٣٠ سقطت الخلافة بسبب ثورة البربر ونشوء ملوك الطوائف الذين قسموا الدولة إلى أكثر من ١٢ دويلة، منهم غرناطة وأشبيلية والمرية وبلنسية وطليطلة وسرقسطة والبرازين والبداجوز. وبينما ورثت تلك الدويلات ثراء الخلافة، إلا أن عدم استقرار الحكم فيها والتناحر المستمر بين بعضها البعض جعل منهم فريسة لمسيحي الشمال ومن أهم معالم قرطبة الإسلامية مسجدها الجامع من أجل ما أبدعه المسلمون في الأندلس، وقد صنفه اليونسكو كموقع تراث عالمي.
مدينة الزهراء التي أنشأها عبد الرحمن الناصر بإسم زوجته. وقد احترقت تماماً خلال ثورة البربر عام ١٠٢٠. ويجري حاليا ترميمها.
قصر قرطبة (Alcazar) ومنه تم السماح لكريستوفر كولمبوس عام ١٤٩٢ بالسفر بحثاً عن طريق جديد إلى الهند.
الحمامات العربية وخضيرية قرطبة: والخضيرية هي حي اليهود في أي مدينة أندلسية بزمن الحكم الإسلامي.

٤- أنظر ليوبولدو توريس بلباس: تاريخ إسبانيا الإسلامية، ج٢، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة٢٠٠٢، رقم ٤١٢، ص ١٥.

٥- حسين مؤنس: قرطبة، درة مدن أوروبا في العصور الوسطى، مجلة العربي، عدد ٩٥، أكتوبر ١٩٦٦، ص ٨٥.

وفي ذلك يقول الشاعر:

بـأربع فاقـت الأمصـار قرطبة *** منهـن قـنطرة الـوادي وجامعها
هاتـان ثنـتان والزهـراء ثالـثة *** والعلـم أعظم شئ وهو رابعها[٦]

وقال آخر:

ولـيس فـي غيرها بالعيش منتفع *** ولا تقـوم بحـق الأنـس صهباء
وكـيف لا يذهب الأبصار رونقها *** وكل روض بها في الوشي صنعاء
أنهارهـا فضـة، والمسك تربتها *** والخـز روضـتها والدر حصباء
وللهـواء بهـا لطـف يـرق به *** مـن لا يـرق وتبدو منه أهواء[٧]

وبالطـبع لم تكن قرطبة وحدها بهذا السمو فهناك طليطلة (٨) Toledo التي كانـت لا تقل تألقاً وبهاءاً عن قرطبة، وهناك إشبيلية sevilla وغرناطة Granada ومالقـة malaga والمـرية Almeria وإنما ذكرنا قرطبة Cordova كنموذج لما كانـت عليه بقية المدن الأندلسية، لذلك لا غرابة إن انتشرت المكتبات والكتب في جمـيع أنحاء البلاد وكثر عشاقها وكثر التأليف والمؤلفون، ولاسيما أنه وجد حكام شـجعوا العلـم وهم أنفسهم كانوا مثلاً عالياً في حب الكتب وجمعها والاهتمام بها كـالحكم الثانـي الـذى يحتل مكانة خاصة بين الحكام المثقفين ووصفوه بأنه كان جماعـاً للكتـب وكان يرسل المبعوثين إلى القاهرة ودمشق وبغداد والمدن الأخرى الـتى تهـتم بالكتب، وذلك لشراء الكتب بأثمان عالية حتى استطاع أن يجمع نحو ٤٠٠ ألف مجلد لمكتبته[٩] بل ويروى أنه سجل عليها ملاحظات غاية فى الدقة.

وقـد روى عنه ابن الآبار قائلاً "ولم يسمع فى الإسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم فى اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والتهمم بها[١٠] .

٦- دائرة معارف الشعب: عدد رقم ٦١ مطابع الشعب، ١٩٥٩، ص ١٧.

٧- محمود احمد الحفني: زرياب، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ص ٦٩.

٨- هـي مدينة مقاطعة كاستيا لا منتشا في وسط إسبانيا حالياً.. تقع على بعد ٧٥ كيلو متر من مدريد العاصمة الأسبانية. اشتهرت أيام الحكم الإسلامي لإسبانيا. حيث كانت مدينة اندلسية عريقة في القدم. اسم طليطلة تعريب للاسم اللاتيني "توليدوث" (Tholedoth) وكان العرب يسمون طليطلة مدينة الأملاك لأنها كانت دار مملكة القوط ومقر ملوكهم.

٩- الكسندر ستيبتشفيتش: تاريخ الكتاب، القسم الأول، ترجمة محمد الأرناؤوط، سلسلة عالم المعرفة ١٩٩٣ العدد ١٦٩، ص٢٤٥.

١٠- ابن الأبار: الحلة السيراء، ج١، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، ط٢، ١٩٨٥.

وقد أنتشرت الحلقات التعليمية في أغلب جوامع الأندلس[١١] وبشكل خاص في المدن الرئيسية كقرطبة وطليطلة وإشبيلية، ولقد وجد في كل جامع مكتبة غنية بمختلف فروع المعرفة الإنسانية، فقد كان للحلقات التي تعقد في جامع طليطلة شهرتها وأهميتها وجذبت أليها الطلاب المسلمين والنصارى على السواء حتى لقد كان يقصدها طلاب نصارى من جميع أنحاء أوربا بما فيها إنكلترا واسكتلندا وقد احتفظت طليطلة بمكانتها هذه بعد سقوطها بيد الأسبان سنة ١٠٨٥م حيث وجد فيها هؤلاء مكتبة غنية عامرة حافلة بالكتب في أحد مساجدها وقد بلغت شهرة هذه المكتبة من حيث هي مركز للثقافة أقصى البلاد النصرانية في الشمال والواقع أن الثقافة العربية الإسلامية والتربية والتعليم انتشرت في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين في إسبانيا المسلمة إلى درجة جعلت دوزي[١٢] يقول إن أغلب الناس في الأندلس أصبحوا قادرين على القراءة والكتابة، بل يمكننا أن نقول إن كل فرد تقريباً كان يعرف القراءة والكتابة وقد انتقلت الثقافة العربية إلى المستعربين الأسبان وهم الإسبان النصارى الذين أقاموا في البلاد الإسلامية وعاشوا تحت ظل الحكم الإسلامي، فقد سرت إليهم العادات الإسلامية وتعلموا اللغة العربية وكتبوا بها وألف بعضهم كتباً بها، بل واقتنوا مكتبات عربية يبدو ذلك واضحاً من نص يروي عن الكاتب النصراني المتعصب الفارو، ذلك أن هذا القس المهوس ببغض الإسلام وأهله كتب في القرن التاسع ميلادي يقول: " إن أخواتي المسيحيين يدرسون كتب فقهاء المسلمين وفلاسفتهم لا لتفنيدها، بل لتعلم أسلوب عربي بليغ

١١- محمد ماهر حماده: روح التحرر في القرآن.

١٢- راينيهارت دوزي: (١٨٢٠م-١٨٨٣م) مستشرق هولندي في مدينة ليدن، بدأ دراسة العربية في المرحلة الثانوية وواصل هذه الدراسة في الجامعة، حصل على الدكتوراه عام ١٨٨١م وتعلم البرتغالية ثم الإسبانية فالعربية. وانصرفت عنايته إلى الأخيرة، فاطلع على كثير من كتبها في الأدب والتاريخ. اشهر آثاره "معجم دوزي – ط" في مجلدين كبيرين بالعربية والفرنسية، اسمه Supplment aux Dictionnaires Arabes (ملحق بالمعاجم العربية) ذكر فيه ما لم يجد له ذكراً فيها. وله "كلام كتّاب العرب في دولة العبّاديين – ط" ثلاثة أجزاء، وبالألمانية "تاريخ المسلمين في إسبانية" ترجم كامل الكيلاني فصولاً منه إلى العربية في كتاب "ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام ـــ ط" وله "الألفاظ الإسبانية والبرتغالية المنحدرة من أصول عربية" بالألمانية. ومما نشر بالعربية "تقويم سنة ٩٦١ ميلادية لقرطبة" المنسوب إلى عريب ابن سعد القرطبي وربيع بن زيد، ومعه ترجمة لاتينية، و"البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" لابن عذاري، وقسم من "نزهة المشتاق" للإدريسي، و"منتخبات من كتاب الحلّة السيراء" لابن الأبار، و"شرح قصيدة ابن عبدون".

واســفاه، إنني لا أجد اليوم علمانياً يقبل على قراءة الكتب الدينية أو الإنجيل، بل إن الشــباب المسيحي الذين يمتازون بمواهبهم الفائقة أصبحوا لا يعرفون علماً ولا أدباً ولا لغــة إلا العربية، ذلك إنهم يقبلون على كتب العرب في نهم وشغف ويجمعون مــنها مكتــبات ضــخمة تكلفهــم الأموال الطائلة في الوقت الذي يحتقرون الكتب المسيحية وينبذونها.

بــل أن كثيراً من رجال الدين في الأندلس تعلموا اللغة العربية وألفوا بها، فقد نقــل يوحنا رئيس أساقفة أشبيليه التوراة من اللاتينية إلى العربية وذلك سنة ٧٦٤م كذلك نقل الأب فيسنتي ثمانية أجزاء من قوانين الكنيسة إلى اللسان العربي وأهداها إلــى الأســقف عــبد الملك في أبيات من الشعر العربي مطلعها كتاب لعبد الملك الأسقف الندب، جواد نبيل الرفد في الزمن الجدب.

وصــنف ربــيع بــن زياد الأسقف كتاباً في تفضيل الأزمان ومصالح الأبدان وآخر بعنوان الأنواء وألف بدرو الفونسو (١٠٦٢-١١١٠م) كتاباً بالعربية عنوانه: تعلــيم رجــال الدين ثم ترجمه إلى اللاتينية، ومنها نقل إلى لغات كثيرة وقد طواه علــى ثــلاث وثلاثين قصيدة شرقية أقتبسها من حنين بن أسحق[١٣] ومباشر (لعل الاسم الصحيح المبشر بن فاتك) وكليلة ودمنة لذلك إذا رغب الطالب الإسكتلندي أو الإنكلــيزي الاســتزادة مــن أرسطو والتعمق فيه أكثر مما يسنح له في الترجمات اللاتينــية الميســورة فلا مندوحة له من الرحيل إلى طليطلة ليتعلم هناك كيف يقرأ كتب اليونان باللغة العربية وقد تحدث هيستر باش Ceasar of Heister Bach عن شــباب قصــدوا توليدو (الصواب طليطلة) ليتعلموا الفلك لذلك لا غرابة إن لعبت الأندلس الدور الرئيسي في نقل معارف المسلمين العقلية وكتبهم إلى أوربا ولا سيما أن تذكرنا أنه كانت هناك فئة أخرى من السكان المقيمين تحت الحكم الإسلامي هم الــيهود والذيــن تمــتعوا بالحرية الدينية المطلقة تحت حكم الإسلام وتعلموا اللغة العربــية وألفــوا بها إلى جانب أتقانهم اللغة اللاتينية والعبرانية، ولقد أصبح هؤلاء اليهود إلى أجانب المستعربين وعدد من اللاتينيين الوسطاء في عملية النقل هذه.

وقــد أنتجــت العبقرية الإسلامية فى الأندلس آيه من آيات الحضارة السامية، تلــك الحضارة هى التى وضعت أسس النهضة العلمية والمادية فى الغرب فيما بعد

١٣- حــنين بن اسحق: عينه الخليفة المأمون رئيساً لبيت الحكمة ويلقب بشيخ المترجمين، لكثرة الكتب التى ترجمها، كما كان طبيباً مشهود له بالكفاءة.

لجانــبها العلمـــى التطبيقى، ففى حين كانت أوروبا غارقة فى الظلمات والجهالة لم يوقظهــا ســوى حضـــارة الإسلام التي تطبق روح التعاون والعطاء والعدالة مع الشــعوب وقد هيأ الحكم الإسلامي لأسبانيا مكانة جعلها الدولة الوحيدة فى أوروبا التى أفلتت من عصور الظلام".

أمــا جوســتاف لوبون[١٤] الأوروبى المنصف فيقول: "وقد كانت ترجمات كتب العرب العلمية المصدر الوحيد للتدريس فى جامعات أوروبا نحو ستة قرون. ويمكننا أن نقــول أن تأثير العرب فى بعض العلوم كعلم الطب مثلا دام إلى الزمن الحاضر. فقــد شرحت كتب ابن سينا فى مونبيليه فى أواخر القرن الماضي ... وإذا كان تأثير العــرب عظــيما فـــى أنحـــاء أوروبا التى لم يسيطروا عليها ألا بمؤلفاتهم، فقد كان تأثــيرهم اعظـــم من ذلك فى البلاد التى خضعت لسلطانهم كبلاد أسبانيا .. ولن يرى الباحــث مــثالا أوضح من العرب على تأثير إحدى الأمم فى أمة أخرى، ولم يشتمل الــتاريخ على ما هو أبرز من هذا المثال "، كانت الأندلس أذن هى معبر العلم والفكر إلـــى الغرب وذلك جميعه بفضل القيم الحضارية التى أسستها حضارة الإسلام، وهذا أحــد المستشــرقين الأسبان يسجل شهادته التاريخية: "إن اسبانيا ما كان لها ان تدخل الــتاريخ الحضـــارى لـــولا القرون الثمانية التى عاشتها فى ظل الإسلام وحضارته فكانـــت بذلـــك باعثة النور والثقافة فى أوروبا المجاورة المتخبطة آنذاك فى ظلمات الجهـــل والـــتخلف"، فماذا ياترى كان الجزاء لما غابت شمس الإسلام عن الأندلس، ودارت الدائـــرة علـــى المسلمين؟، كانت صفحة حزينة ومؤسفة من تعصب ووحشية الغـــرب، ونكتفى هنا بمقولة وحيدة للمؤرخ "جوستاف لوبون": "يستحيل علينا أن نقرأ دون أن تـــرتعد فرائصـــنا من قصص التعذيب والاضطهاد التى قام بها المسيحيون المنتصرون على المسلمين المنهزمين، انهم عمدوهم عنوة وسلموهم لدواوين التفتيش التى أحرقت منهم ما استطاعت من الجموع وهكذا تم قتل وطرد ثلاثة ملايين عربى كـــانوا يشـــكلون النخـــبة الفكـــرية والصناعية فى أسبانيا، وهكذا انطفأت حضارتهم الوهاجـــة التى ظلت تشع على أوروبا منذ ثمانية قرون "ومن أراد الاستزادة فعليه ان يعود للمراجع التاريخية والتى تصف هذه الفترة البائسة فى حياة الإنسان، ليرى ابشع صور من العنف والقسوة المتناهية ضـــد الإنسانية (والتى جاءوا يبشرونا بها الآن) ،

١٤- جوستاف لوبون G. Lebon "١٨٤١-١٩٣١م"، طبيب، ومـــؤرخ ومفكر فرنسي، عني بالحضـــارات الشرقية. من آثاره: (حضارة العرب) باريس ١٨٨٤، (الحضارة المصرية)، و(حضارة العرب في الأندلس).

أنها المشاهد والتى ما زالت تتوالى طبعاتها القديمة الجديدة حتى الآن.

مأساة نهاية المسلمين في بلاد الأندلس[١٥] : ولم يبق من معاقل الإسلام الجنوبية والشرقية في الأندلس سوى مملكة غرناطة وقد جاء دورها بعد الاستيلاء نهائياً على جميع القواعد والقلاع والحصون الأندلسية الأخرى، والتي غدت من أملاك ملكي قشتالة فرديناند وايزابيلا وهي ملاقة والمرية ووادي آش والحامة وبسطة وغيرها، وتدجن[١٦] أهلها وأصبحوا يدينون بطاعة الملكين، وفر العديد من المسلمين وذهب كثير منهم إلى المغرب، وتفرقوا في ثغوره، وهرعت الألوف إلى غرناطة تلوذ بملكها السلطان الفتى، إلا أن هذا السلطان كان يراقب الحوادث جزعاً، فشعر أنها تسير إلى نتيجة محتومة، وهي سقوط غرناطة[١٧] Granada في

١٥- محمد باقر الحسيني: مجلة آفاق عربية، السنة الرابعة العدد الأول، سبتمبر ١٩٧٨.

١٦- المدجنون: المسلمون العرب الذين دجنوا في الأندلس بعد نزوح العرب عنها، فاستمروا على تمسكهم بالتقاليد العربية، ونقلوا التراث العربي إلى الآثار القوطية، وكانوا جسرا لنشر هذا التراث في انحاء اوروبا.

١٧- غرناطة مدينة تقع على بعد (٢٦٧) ميلا جنوب مدينة مدريد (عاصمة أسبانيا حاليا). وهي إحدى ولايات الجنوب الأسباني وتطل على البحر المتوسط من الجنوب وتطل على نهر شنيل وبساتين قصور الحمراء وتلها العالي. وهي تعلو قرابة (٦٦٩) متر فوق سطح البحر مما جعل مناخها غاية في اللطف والجمال. ومنه اشتق اسمها، حيث تعني كلمة غرناطة عند عجم الأندلس "رمتة" وذلك لحسنها وجمالها.

أسست مدينة غرناطة في موضع مدينة رومانية صغيرة تعرف باسم أليبيري. وطوال التاريخ الروماني بأسره لم يكن لهذه المدينة ذكر كبير. ويرجع ازدهار المدينة وعظمتها إلى أسرة بني الأحمر بعد أن دخلها محمد بن يوسف بن نصر استجابة لدعوة أهلها عام ٦٣٥هـ/١٢٣٨م لحمايتهم من الصليبيين. ومنذ ذلك الحين أصبحت غرناطة عاصمة لمملكة بني الأحمر. وبعد أن استوطن بنو الأحمر بها أخذوا يبحثون عن مكان مناسب تتوفر لهم به القوة والمنعة فاستقر بهم المطاف عند موقع الحمراء في الشمال الشرقي من غرناطة. وفي هذا المكان المرتفع وضع أساس حصنهم الجديد" قصبة الحمراء". ولكي يوفر له الماء أقيم سد مع نهرة حدرة شمالي التل شيدت علية القلعة ومنه تؤخذ المياه وترفع إلى الحصن بواسطة السواقي. واتخذ بنو الأحمر من هذا القصر مركزا لملكهم وأنشئوا فيه عددا من الأبراج المنيعة وأقاموا سورا ضخما يمتد حتى مستوى الهضبة.

ولقد كانت الحمراء قلعة متواضعة في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. ولكن عندما تولى باديس بن حبوس زعيم البربر غرناطة اتخذها قاعدة لملكه وأنشأ سورا ضخما حول التل الذي تقع عليه وبنى في داخله قصبة جعلها مركزا لحكمه وقد تطورت مع الزمن وأصبحت حصن غرناطة المنيع.

وكان عهد السلطان يوسف الأول وولده محمد الخامس هو العصر الذهبي لعمليات الإنشاء والتشييد في قصر الحمراء ففي عهد الأول: أقيم السور الذي يحيط بالحمراء بأبراجه وبوابته العظيمة المعروفة بباب الشريعة أو العدل وغير ذلك من الأبراج والقصور والحمامات. ثم قام ابنه بإصلاح ما بدأه أبوه وإتمامه ثم قام بتشييد مجموعة قصر السباع وقاعة الملوك أو العدل وغيرها.

وقد حصن بنو الأحمر غرناطة تحصينا منيعا واستطاعوا أن يصدوا هجمات الصليبين، وظلت المدينة حصنا شامخا ومعقلا للإسلام في بلاد الأندلس مدة تزيد علي المائتين والستين سنة حتى سقطت في قبضة الجيوش النصرانية عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م وبسقوط غرناطة انتهى آخر مظهر من مظاهر السيادة الإسلامية.

يد العدو، وفي أثناء ذلك طلب ملكي قشتالة إلى السلطان الفتى تسليم الحمراء، مقر الحكــم والملــك، هو قصر الحمراء الكبير، وما حوله من الحصون والأبراج وأن يبقى مقيماً في غرناطة في طاعته وتحت حمايته، أسوة بما فعله عمه الزغل، فثار السـلطان الفتى لذلك الغدر وأدرك فداحة خطئه في محالفة ذلكما الملكين الغادرين، فجمع السلطان الفتى الكبراء والقادة واجمعوا على الرفض والدفاع حتى الموت عن وطنهم ودينهم، وأجابوا الملكين بالحرب بعد محاولة إقناعهما بالعدول عن طلبهما، ودوت غــرناطة بصيحة الحرب، وخرج السلطان الفتى، الذي أصبح رجلاً مؤمناً بقضــيته وأمــته بعــد أن كان خائناً لها بقواته يحاول استرداد القواعد والحصون المســلمة المجاورة، وثار في الوقت نفسه أهل البشرات معه، ووقعت عدة معارك بيــنه وبين ملكي قشتالة، استطاع في أواخر سنة ٨٩٥هــ/١٤٨٩م أن يسترد كثير مــن الحصــون والقوى في تلك المنطقة، وعاد السلطان الفتى إلى غرناطة ظافراً، وغضــب الملكين لتلك المفاجأة التي لم يكونا يتوقعانه. وقررا إنهاء أمر غرناطة، فخرجا في ربيع عام ٨٩٦هــ/١٤٩٠م في جيش كبير مزود بالمدافع والذخيرة نحو غــرناطة، فحاصراها في جمادي الآخرة في العام نفسه، وطال الحصار، ودافعت غــرناطة عن نفسها دفاعاً مجيداً، ولكنها تعرضت للجوع والمرض، وهمَّ السلطان الفــتى مفاوضـــة الملكين للتسليم غير مرة، ولكنها كانت تلقي استنكاراً شديداً أول الأمــر وخاصة من قائده موسى بن أبي الغسان، وأخيراً اتفقت كلمة الزعماء على التسليم واختير أبو القاسم حاكم المدينة لمفاوضة الملكين وتم الاتفاق بعد مفاوضات اســتمرت بضعة أسابيع إلى وثيقة سرية مكونة من ست وخمسين مادة، تسلم فيها غــرناطة إلــى الملكيــن طواعية واختياراً في ظرف ستين يوماً من تاريخ توقيع المعــاهدة، وأن يؤمــن المســلمون في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وأن يحتفظوا بشــريعتهم وقضائهم، وأن يتمتعوا أحراراً بشعائر دينهم، وأن تبقى المساجد حرماً مصــونة، وغير ذلك من المواد، وقد ذيلت هذه المعاهدة بنبذة خلاصتها، أن ملكي قشــتالة فرديناند الخامس وايزابيلا يؤكدان ويقسمان بدينهما وشرفهما الملكي القيام بكــل ما يحتويه هذا العهد من النصوص، ويوقعانها باسميهما ويمهرانها بخاتميهما، وعلــيها تــاريخ تحريرها وهو يوم ٢٥ نوفمبر ٨٩٧هــ/١٤٩١م، وما كادت أنباء الموافقــة علــى عهد تسليم غرناطة تصل أسماع الناس حتى عم الحزن ربوع هذه المديــنة، واضــطرم الشعب بأساً وسخطاً على قادته ولا سيما السلطان الفتى الذي

اعتبر مصدر كل مصائبه ومحنه، وتعالى النداء بوجوب الدفاع عن المدينة حتى آخر نسمة وقيد خشى السلطان أن تقضي هذه الحالة على خططهم وتدابيرهم، ولكنها انهارت قبل أن تنتظم وأضحى كل فرد يفكر في مصيره، وبعد عام من تسليم غرناطة ذيلت هذه المعاهدة مرة أخرى وبالذات يوم ٣٠ ديسمبر سنة ١٤٩٢ م (يبدو أنها لم تطبق بحذافيرها) بتأكيد جديد يأمر فيه الملكان ولدهما الأمير وسائر عظماء المملكة بالمحافظة على محتويات هذا العهد، ويقسمان بدينهما وشرفهما الملكي بأن يحافظا، ويأمران بالمحافظة على كل ما يحتويه بندا بندا إلى الأبد، وقد نيل هذا التوكيد بتوقيع الملكين وتوقيع ولديهما، وجمع كبير من الأمراء والأحبار والأشراف والعظماء، وهكذا أذعنت غرناطة وسملت وانتهت دولة الإسلام في الأندلس في صفر ٨٩٧هـ/١٤٩١م ودخل الأسبان غرناطة في الثاني من ربيع الأول ٨٩٧ هـ/١٤٩٢م وطويت بذلك إلى الأبد تلك الصفحة المجيدة الرائعة من تاريخ المسلمين في أوربا.

ولنا أن نتسائل كيف تعامل القشتاليون النصارى مع مسلمي الأندلس بعد سقوطها؟

كيف كان جزاء الغرب للأندلس[١٨]، التي أعارته العقلانية والتنوير وأسباب النهضة؟

وكانت التجربة التاريخية في الصراع الحضاري بين الغرب والحضارات الأخرى في الأمريكتين، وأفريقيا وآسيا، تؤكد على أن الغرب كان أبداً أسيراً لعقدته تجاه حضارات الآخر، ولعل ما آلَ إليه حال الإسلام والمسلمين الذين تجذّر وجودهم في الأندلس، يمثل أوضح نموذج لتلك الروح العدوانية.

وكان الأندلسيون بين رحى التعذيب والهجرة قبل فرض سياسة التنصير وحيث وجب ألا يغيب عنا أن الدين قد أثر على فكر الأسبان وسلوكهم خلال القرن السادس عشر. وعليه فإن التعصب الديني كان قابعاً في سياسة ملوك إسبانيا إذ تولد عنه الخوف المستمر من بقاء المسلمين بإسبانيا وتواصل الفتوحات العثمانية في شرق أوروبا، لهذا لجأت الحكومة الإسبانية إلى تعميم الإرغام على التنصير[١٩] .

١٨- انظر عبد الجبار الرفاعي: متابعات ثقافية، مؤسسة المرتضى العالمية - بيروت/١٤١٤.

١٩- حنيفي هلايلي: الأندلسيون في كتابات أحمد المقري التلمساني، مجلة التراث العربي، العدد ٩٧ - السنة الرابعة والعشرون - آذار(مارس) ٢٠٠٥.

لقد عامل الصليبيون أهل الأندلس بعد أن سقطت بأيديهم بروح ثأرية عدوانية، حتى ان القسيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجعوا قهراً إلى الكفر، ففعلوا ذلك، وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوة، ثم تعدوا إلى أمر آخر، وهو أن يقولوا للرجل المسلم: إن جدك كان نصرانياً فأسلم فترجع نصرانياً... وبالجملة فإنهم تنصروا عن أخرهم بادية وحاضرة، وامتنع قوم عن التنصر، واعتزلوا النصارى، فلم ينفعهم ذلك، وامتنعت قرى وأماكن كذلك، منها بلفيق وأندرش وغيرهما، فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن أخرهم قتلاً وسلباً.

وكانت أحكام الإعدام بالنار كثيرة ضد المسلمين وكان يحرق المتهمون جماعياً في مواكب الموت للترهيب، وأحياناً عائلات بأكملها، بأطفالها، ونسائها، وكانت محاكم التفتيش Inquisition [٢٠] تحاكم الموتى، فتنبش قبورهم، وتتابع الغائبين، وتعاقب أهلهم، وكان أعضاؤها يتمتعون بالحصانة الكاملة. وكان المتهم يسجن في سجن ضيق خشن، يُقَيد فيه بالأغلال، ويُحرَم من الطعام والشراب والنوم... وتلجأ المحكمة إلى درجات أشد وأقسى من صنوف التعذيب، منها تعليق المتهم من يديه ورجليه على الحائط، ومنها دفع المتهم إلى مكان عالٍ وإلقائه ليهوي إلى الأرض، ومنها أيضاً الكي بشعلة ملتهبة.. وتعريض قدمي المتهم بعد أن تطليا بالشحم إلى نار ملتهبة، ثم يظهر المفتش لانتزاع الاعتراف، وفي كثير من الحالات كان الكثير يموتون قبل الإدلاء بأي اعتراف.

٢٠- هي محاكم خاصة لم ير التاريخ لها مثيلاً كان شعارها القسوة التي لا رحمة فيها والاضطهاد الذي لا هوادة فيه، أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية في القرن الثالث عشر لمحاربة فكرة الهرطقة.. وهي وصف لمن اختلف معهم في الشرح المحدد للنص الانجيلي من قبل المترمتين في الكنيسة، وكانت جساماتها سرية وكانت تتجسس بكل الطرق وتقبض على من تشاء وتعذب المقبوض عليهم بما تراه حتى تكرههم على الاعتراف بالإلحاد وحينئذ توقع عليهم عقوبة الإحراق أو السجن المؤبد ومصادرة الأملاك، حتى التائبون منهم يسجنون طول حياتهم تطهيراً لهم من جريمتهما وكان توماس توركومادا، هو رجل متدين يرأس هيئة التفتيش للبحث عن هؤلاء الهراطقة، ويقوم بوعظهم وتعذيبهم وقتلهم ان لم يعودوا إلي كنف الكنيسة الكاثوليكية، وكان يسمي بالمفتش العظيم أو غراند انكوزيتر، كان لدى المفتش العظيم مجموعه من الموظفين والمتطوعين يجوبون الأسواق ويزورون القرى بحثا عن أصحاب البدع من الهراطقة وكان لديهم الصلاحيات في تنفيذ أمر الله بإعدام وحرق وتعذيب من يظنون انه كذلك.دامت محاكم التفتيش نحو ٣٠٠ سنة ثم اوقفت عام ١٥٤٢م، إلا أن محاكم التفتيش الأسبانية (الأشد وحشية) التي أنشئت في نهاية القرن الخامس عشر بأمر فرديناند وايزابلا لأغراض تتعلق "بالأمن القومي".. لم تبطل إلا في عام ١٨٣٤م..

وقد نجحت أساليب محاكم التفتيش[٢١] Inquisition، في جر الأب لأن يشهد على أبنه، والابن على أبويه، والزوج ضد زوجته، والزوجة على رجلها، وقد هنأ البابا جريجوري التاسع في إحدى المرات المفتش الكنيسي العام في شمال فرنسا على نجاحه المنقطع النظير في إرهاب الناس، حتى شهد الكثيرون ضد ذويهم من لحمهم ودمهم.

محنة الموريسكيين:

الموريسكيون هم العرب المنتصرون الذي عاشوا في بلادهم الأندلس بعد سقوطها[٢٢] واضطروا للتظاهر بالنصرانية ولكنهم كتموا أيمانهم، فكانوا يقيمون الصلاة في منازلهم، ويغتسلون، ويمارسون شعائرهم بصورة سرية. وكتبوا القرآن الكريم سراً باللغة العربية، مقروناً بشروح وتراجم الخميادية، و"الالخميادو" هي اللغة التي اتخذها الموريسيكيون بعد أن مُنعوا من استعمال العربية، وقد عرّفها مننديت أي بلايو (بأنها اللغة الرومانية القشتالية، تكتب بأحرف عربية). وقد استعمل الموريسيكيون هذه اللغة في كتابة سيرة الرسول والمدائح النبوية، وقصص الأنبياء، وبعض كتب الفقه، والحديث، مع كتابة البسملة والآيات القرآنية دائماً خلال هذه الشروح السرية باللغة العربية، وقد كانت معظم الكتب الالخميادية تكتب بالشكل الكامل، حتى يمكن قراءتها بطريقة صحيحة. وقد ترك الموريسكيون تراثاً أدبياً من النثر والنظم استعملوا في كتابته "الالخميادو"، وتوجد منه مجموعات كثيرة في مكتبة مدريد الوطنية، ومكتبة أكاديمية التاريخ. ولكن محاكم التحقيق "التفتيش" لاحقت الموريسكيين، فحضرت عليهم كل ممارسة أو شعيرة إسلامية يمارسونها في الخفاء، حتى انها وضعت قائمة طويلة بهذه المحضورات، ومنها: ان الموريسكي أو العربي المنتصر، يعتبر أنه قد عاد إلى الإسلام، إذا امتدح محمداً، أو قال إن يسوع المسيح ليس إلهاً. ومنها: ان يحتفل يوم الجمعة بأن يلبس ثياباً أنظف من ثيابه العادية، أو يستقبل المشرق قائلاً "باسم الله" أو يختن أولاده، أو يسميهم بأسماء عربية، أو يقسم بإيمان القرآن أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله،

٢١- لمزيد من التفاصيل حول محاكم التفتيش أنظر دراسة العلامة اسحق عبيد: محاكم التفتيش "نشأتها ونشاطها" كلية الآداب ١٩٨٥.

٢٢- عبد الجبار الرفاعي: متابعات.

أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر، أو يقوم بالوضوء والصلاة بأن يوجه وجهه نحو المشرق، إلى غير ذلك من الامور التي لا نهاية لها. وكان قد صدر قانون في عهد الإمبراطور شارلكمان سنة ١٥٢٦م، يحرم على الموريسكيين التخاطب اللغة العربية، وارتداء الثياب العربية، واستعمال العمامات، وإقامة الحفلات على الطريقة الإسلامية... وفي سنة ١٥٥٥م توفي هذا الإمبراطور، وخلفه ولده الملك فيليب الثاني، الذي كان شديد التعصب والتزمت، فحدد ذلك القانون القديم بتحريم استعمال اللغة العربية، وسائر ما هو عربي من العادات والتقاليد، وأعلن قانوناً في غرناطة أول يناير سنة ١٥٦٧م في اليوم الذي سقطت فيه غرناطة، ينص على انه: يمنح الموريسكيون ثلاثة أعوام لتعلم اللغة القشتالية، ثم لا يسمح بعد ذلك لأحد منهم ان يتكلم، أو يكتب، أو يقرأ اللغة العربية، أو يتخاطب بها، وكل معاملات أو عقود تجري بالعربية تكون باطلة، ولا يعتد بها لدى القضاء أو غيره ويجب ان تسلم الكتب العربية، من أية مادة، لتُقرأ وتُفحص، ثم يُرد غير الممنوع منها لتبقى لدى أصحابها مدى الأعوام الثلاثة فقط. وكذلك الثياب العربية، فلا يصنع منها أي جديد، ولا يُصنع إلاّ ما كان مطابقاً لأزياء النصارى، ويحضر على النساء الموريسكيات التحجب، وعليهن أن يكشفن وجوههن، وأن يرتدين المعاطف والقبعات عند الخروج، ويجب أن تجري سائر حفالتهم طبقاً لتقاليد الكنيسة وعُرف النصارى، ويجب أن تُفتح المنازل أثناء الاحتفال بأية مناسبة، وكذلك أيام الجمع والأعياد ليستطيع القس ورجال السلطة أن يروا ما يقع بداخلها من المظاهر والرسوم المحرمة، ويحرم إنشاد الأغاني القومية، ويحرم الخضاب بالحناء، ولا يسمح بالاستحمام في الحمامات، ويجب أن تُهدم سائر الحمامات العامة والخاصة.

لم يتوقف اضطهاد الموريسكيين عند هذا الحد، وإنما تواصل حتى انتهى إلى أن يتخذ مجلس الدولة قراراً بالإجماع في ١٦٠٨/١/٣٠م، ينص على طرد الموريسكيين من بلادهم، ونفيهم إلى خارج أسبانيا، وقد اتخذت تدابير قمعية رهيبة إزاء من تخلف منهم عن الرحيل، فمثلاً صدر قرار عام ١٦١١م، بالنسبة للمتخلفين من المسلمين في "بلنسية"، يقضي بإعطاء جائزة ستين ليرة، لكل من يأتي بمسلم حي، وله الحق في استعباده، وثلاثين ليرة لمن يأتي برأس مسلم قُتل.

لقد لخص العلامة الأسباني الدون برونات، في كتابه "الموريسكيون الأسبان ونفيهُم" بعض ما لحق الآداب والفنون في أسبانيا من ظلامية ونضوب، بفعل نفي الموريسكيين وأبادتهم بقوله: (إن السياسة الأسبانية لم تكتف بنفي الموريسكيين، وما ترتب عليه من نضوب حقولنا ومصانعنا وخزائننا، ولم يقتصر الأمر على انتصار التعصب وبربرية "ديوان التحقيق"، بل تعداه إلى اختفاء الشعر، وشعور الجمال الموريسكي، والأدب السليم، الذي رفع سمعة تاريخنا... انه اختفى بنفي الموريسكيين الأدب المعطر، والشاعرية الشعبية، والخيال الممتع، ومصدر الوحي الذي كانوا يمثلونه وقد غاض باختفائهم من شعرنا، هذا التلوين، والفن والحيوية، والإلهام والحماسة، التي كانت من خواصهم، وحل محلها الظلام في الأفق الأدبي، خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر هذا ما فعله الغرب مع الشرق فما الذي فعله الشرق مع الغرب ولهذا قصة سنتناولها في الفصل التالي.

٦

الفصل السادس

الشرق والغرب

الفصل السادس
الشرق والغرب

تمت عملية الإخصاب بين الفكر العربي البالغ كمال تطوره وبين العقل الأوروبي، وهو بسبيل يقظته وتلمس طريقه في البداية، تمت عملية الإخصاب هذه في منطقتين: الأولى أسبانيا (وقد تناولناها فى الفصل السابق) وفي مدينة طليطلة منها بخاصة، والثانية صقلية، وجنوب إيطاليا، خصوصاً في عهد ملوك النورمان وأشهرهم رجار الثاني المتوفى سنة ١١٥٧ وفردريك الثاني المتوفى سنة ١٢٥٠م. فقد كانت هاتان المنطقتان نقطتي التلاقي بين الثقافة العربية الإسلامية الزاهرة وبين العقلية الأوروبية الناشئة، لأنهما على الحدود بين دار الإسلام وبين أوروبا.

وقد بدأت محاولات فتح المسلمين لجزيرة صقلية منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان بواسطة والى الشام معاوية بن أبى سفيان فى القرن السابع الميلادى، ومرة فى أوائل القرن الثامن الميلادى بواسطة عبد الله بن موسى بن نصير ومرة بواسطة بشر بن صفوان.

وقد توالت محاولات فتح الجزيرة مرات عدة إلى أن فتح العرب العاصمة بالرمو عام ٨٣١م.

بعد أن مهد لهذا الفتح القائد أسد بن الفرات[1] ثم افتتحت بقية مدن صقلية وتمت السيطرة عليها عام ٩٠٢م.

١- أسد بن الفرات، ولد في (حرّان) من ديار بكر، أبو عبد الله الحراني، سنة ١٤٤هـ/ ٧٦١م، ثم قدم القيروان وهو ابن سنتين مع أبيه الذي كان من أعيان الجند في جيش (محمد بن الأشعث الخزاعي) والي إفريقية من قبل الخليفة أبي جعفر المنصور، ثم رحل مع أبيه إلى تونس فأقام بها تسع سنين لزم خلالها الفقيه المعروف (علي بن زياد) وتعلم منه وتفقّه عليه، ولم يكتفِ بذلك، بل أراد أن يستزيد من العلم فقرر الرحيل إلى المدينة المنورة سنة ١٧٢هـ/ ٧٨٨م، لينهل من علم الإمام مالك، وبعدها قرر الرحيل إلى العراق، ثم قدم ابن الفرات إلى (القيروان) عاصمة المغرب سنة ١٨١هـ، وكان من تلاميذه (سحنون بن سعيد) و(معمر بن منصور) و(سليمان بن عمر) ثم تقلد القضاء مع (أبي محرز) وكان أسد شديدًا في الحق، ومتمكنًا من علمي الحديث والفقه.

وكان مع توسعه في علمه فارسًا شجاعًا مقدامًا، فقد طلب أسد بن الفرات أن يكون مع المجاهدين في الحرب ضد الروم في جزيرة صقلية فأبى الأمير خوفًا عليه، فألح أسد في طلبه وقال: (وجدتم من يسير لكم المراكب من النوتية) الملاحين) وما أحوجكم إلى من يسيرها لكم بالكتاب والسنة. وكان يريد أن يكون جنديًا متطوعًا لا يريد الإمارة، فلما أعطيها تألم وقال وزحف مع الجيش إلى جزيرة صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م، وخرج لهم صاحب صقلية في مائة ألف وخمسين ألفًا، ثم حمل بالجيش حملة عنيفة على صاحب صقلية، حتى سقط أسد بن الفرات شهيدًا سنة ٢١٣هـ/ ٨٢٨م، وهو يحمل راية النصر ولم يعرف له قبر.

وبين أعوام ٨٣١م-١٠٩٢م حكم المسلمون صقلية أى ما يقارب ٢٦٠ سنة، كما استمرت مؤثراتهم الحضارية فى الجزيرة أكثر من مئتى سنة أخرى، وكان التفاعل الحضارى بين العرب والصقليين والأوربيين طسلة خمسة قرون فى أوسع مدى حضارى، خاصة أن سكان صقلية فى فترة الحكم العربى قاربوا مليوناً وستمائة ألف نسمة بينهم ستمائة ألف مسلم، وهى كثافة سكانية مرتفعة إذا ما قيست بالنسبة للفترة التاريخية فى العصور الوسطى[٢] .

ومن الأهمية بمكان القول، إن انتهاء الحكم الإسلامى فى صقلية لا يعنى مطلقاً انتهاء حضارة العرب والمسلمين، بل بقية الحضارة العربية مؤثرة وفاعلة فى صقلية وبقية المناطق اللإيطالية وبالتالى الأوروبية .

ولقد تمتعت صقلية خلال العهدين الأغلبى والفاطمى بحكم إسلامى مزدهر، وانتشرت فيها القصور والعمارة العربية، بما فيها الماجد والزوايا والتكايا والبيمارستانات (المستشفيات) والأسواق والأسوار والقلاع والمدارس والمعاهد العلمية، وصناعة السفن والورق والحرير والفسيفساء، كما استخرج المسلمون منها النفط والحديد والرصاص وبقية المعادن وتفاعل العرب مع الصقليين فى الزراعة والصناعة والتجارة، وانتشرت اللغة العربية وآدابها على نطاق واسع، كما انتشرت العادات والتقاليد العربية وعومل أهل صقلية معاملة إسلامية حضارية لم تشهدها صقلية فى أى عهد سابق على عهد المسلمين[٣] .

الأمر الملاحظ أن النورمان بعد أن استعادوا صقلية حرصوا على إبقاء المسلمين فيها للاستفادة من حضارتهم وخبراتهم العلمية والإدارية والمالية والاقتصادية والسياسية، وكذلك الخبرة العسكرية، لهذا فإن ملوك النورمان سكوا عملة ونقوداً تحمل فى أحد وجهيها[٤] آية قرآنية كريمة: " هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ودِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ولَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ"[٥] .

٢- حسان حلاق: عندما كانت صقلية معبراً للتفاعل الحضارى بين العرب والغرب، مجلة العربى، العدد ٥٣١ فبراير سنة ٢٠٠٣ م، ص ٦٠.

٣- نفسه، ص ٦٠.

٤- نفسه، ص ٦٠.

٥- سورة الصف: آية ٩.

اللقاء الحضاري بين الشرق الإسلامي والغرب الأوروبي:

اتخذ اللقاء بين الشرق والغرب أشكالاً وألواناً مختلفة[٦] ، تختلف باختلاف أطراف المواجهة والظروف والأمكنة، ومن الطبيعي أنه كان ينتج عن هذه اللقاءات – سلماً كانت أو حرباً – إفرازات وتداعيات على مختلف المستويات، وقد تفاوتت حلقات التواصل بين الشرق والغرب، ففي زمن الحروب الصليبية لم يكن الامتزاج الحضاري بين المسيحية والإسلام في الشام على المستوى نفسه الذي كان عليه في الأندلس وصقلية، وذلك لافتقار المملكة اللاتينية في القدس إلى مركز علمي كبير للمعارف الإسلامية التي يستطيع المسيحيون أن يستمدوها منه على غرار طليطلة Toledo وبالرمو، ولكن هذا لم يمنع بعض العلماء والتجار والمحاربين الصليبيين، أن ينقلوا عن طريق المشاهدة العينية، بعض المعارف عن الزراعة والملاحة والصناعة.. الخ من شرق البحر المتوسط إلى أوروبا، وذلك باعتبار أن العلاقات بين طرفي المواجهة لم تكن دائماً قائمة على الحرب والقتال، بل شهدت في أحيان كثيرة فترات من الهدنة والسلام، خاصة بين المستعمرات الصليبية التي كانت تعيش وسط إمارات إسلامية داخل الشام مثل حلب ودمشق وحمص وحماة، إلى جانب القلاع والحصون مثل حصن شيزر الذي ما زالت أطلاله باقية على نهر العاصي في شمال الشام. ولذلك سنحاول تسليط الضوء على حركة الحروب الصليبية التي استغرقت مدة قرنين من الزمن، وكان لها إسهام في حركة التفاعل الحضاري بين الطرفين، لا نزال نتلمّس تداعياته حتى يومنا هذا.

وما ساهم في توثيق العلاقة بين المحتل الصليبي والمواطنين، اعتماد الصليبيين على أهالي المنطقة من الصناع والفلاحين وغيرهم، باعتبار أن المساعدات التي كان الغرب يقدمها، كانت غير كافية، ومن اللافت للانتباه، أن الصليبيين قد تأثروا بالمسلمين خلال الحروب الصليبية، في ميادين كثيرة ومتنوعة، فالطب والكيمياء والفلك والجغرافيا والرياضيات والزراعة والأدب في الغرب كلها مدينة في جذورها الأولى وقواعدها العميقة وأصولها الراسخة إلى حضارتنا التي أثّرت في حياة الغرب الاجتماعية والفنية والأدبية وفي حاجاته اليومية[٧] .

٦- أنظر عبد الجبار الرفاعي: المرجع السابق.

٧- يوسف عز الدين: أثر تراثنا الحضاري في حضارة الغرب، مجلة النور، عدد ١٧٢، يوليو ٢٠٠٦.

فمـــن الناحـــية الاجتماعـــية، نجـــد أنـــه نشأت علاقات زواج مع المواطنات المســيحيات مـــن الموارنـــة والأرمن وبعض الأسيرات المسلمات، فنشأ عن هذه الزيجات جيل من المولَّدين عرف باسم بولاني Pullan، وقد غلب الطابع الشرقي على طبائع هؤلاء وعاداتهم، ومع الوقت، أخذ الصليبيون يكيِّفون حياتهم في الشرق حســب مقتضــيات الحـــال والمـــناخ، فارتدوا الملابس الشرقية الفضفاضة واسعة الأكمـــام، وأطلقوا لحاهم، وأكلوا الأطعمة الشرقية، وسكنوا القصور والبيوت ذات الطراز الشرقي وما إلى ذلك...

ومن ناحية البحث العلمى فقد كان لعلماء الحضارة الإسلامية فضل السبق إلى اتـــباع الأســـلوب العلمى فى أبحاثهم ودراساتهم، وكانوا يقدسون العقل والتفكير[٨] ولئن باهى الغرب بالبحث العلمي وأسلوب التحقيق وطريقة جمع المعلومات والدقة فـــي الاســـتنتاج والوصول إلى النتائج بعد التمحيص، فقد ظهرت هذه الأساليب في المـــنهج العملـــي العربـــي قبلهم بقرون فقد كانت التجربة العلمية رائدهم والنظرة الواقعـــية للبحث العلمي شعرهم فقد كان رشيد الدين (عم ابن أبي اصيبعة) يوصي طلابه بأن ينظروا في كل خبر عارياً عن محبة أو بغضه وان يزنوه بميزان العقل والقـــياس وان يتفحصوه – إذا كان ذلك ممكناً – على ضوء الحقائق المستمدة من الاختـــبار فاتخذوا العقل دليلاً والشك مقياساً في بحثهم العلمي ليوصلهم إلى الحقيقة العلمية والتجربة العملية.

فقـــد قال عبد اللطيف البغدادي: "الحس أقوى دليلاً من السمع" وقال الغزالي: "مـــن لـــم يشـــك لم ينظر، ولم لم ينظر لم يبصر" ولا جدال في أن البحث العلمي والـــتجربة الصـــادقة وجمـــع المعلومات الأصيلة، كانت رائد الطبيب عبد اللطيف البغدادي عندما أراد أن يعرّف عدد عظام الفك الأسفل للإنسان، فقام بفحص حوالي ألفـــى جمجمـــة بنفسه وأخذ يقارن بينها بأسلوب علمي صادق، وطريقة بحث دقيق فخرج بأن الفك الأسفل هو عظم واحد. وأتبع في تدريس الطب التطبيق العملي فقد كـــان الطـــلاب يشاركون المرضى حياة المستشفى ويحتكون بهم وبذلك يطبّقون ما درسوه نظرياً ويرون المرضى بأنفسهم[٩] .

٨- أحمد فؤاد باشا: التراث العلمى للحضارة الإسلامية، ط١، دار المعارف ١٩٨٣، ص ٤١.

٩- يوسف عز الدين: المرجع السابق.

ويشـــهد استقراء تاريخ الفكر البشرى بأن علماء العصر الإسلامى كانوا أسبق مـــن الغربيين إلى نقد منطق أرسطو وابتداع المنهج التجريبى السليم بكل خطواته ومراحله قبل بيكون بعدة قرون، واستطاعوا أن يميزوا بين طبيعة الظواهر العقلية الخالصـــة من جهة والظواهر المادية الحسية من جهة أخرى، ويعتبر ابن تيمية من أوائـــل المفكريـــن العرب الذين نقدوا منطق أرسطو الصورى، وهاجمه بعنف فى كـــتابه "نقـــض المـــنطق" ودعا إلى الاستقراء الحسى الذى يأتى بالمعارف الجديدة والذى يصلح للبحث فى الظواهر المادية الطبيعية[١٠] .

أما من الناحية الاقتصادية، فقد استفادوا من المشرق الإسلامي استفادة كبيرة، ففي ميدان الزراعة، نقل الصليبيون عن المسلمين إلى أوروبا، زراعة بعض أنواع النباتات والثمار والفواكه التي لم يعرفوها من قبل، وسموها بأسمائها العربية، مثل السكر والأرز والليمون والقطن والسمسم.. الخ.

وفـــي ميدان الصناعة، اقتبسوا عن المسلمين بعض المصنوعات ونقلوها إلى بلادهـــم، مـــثل المنســـوجات الحريرية الموشّاة والأقمشة القطنية، هذا إلى جانب صناعة الورق والصابون والخزف والزجاج والحلي والعقاقير... الخ.

أمـــا التجارة، فقد انتعشت بين الشرق والغرب بشكل لم يعرف من قبل، فكانت قوافـــل المســـلمين ترد إلى الموانئ الصليبية على ساحل الشام تحمل سلع الشرق، كاللؤلؤ والأحجار الكريمة والعاج والعطور والبهار، وكان على تجار المسلمين عند دخولهـــم تلـــك الموانئ أن يدفعوا ضريبة على بضائعهم مقدارها قيراط على كل ســـلعة ثمـــنها ديـــنار واحد (الدينار ٢٤ قيراطاً). وكانوا يعاملون في تلك الموانئ معاملـــة طيـــبة، ولهم فيها خانات أو فنادق ينزلون فيها ببضائعهم ودوابهم. وكانت حـــركة الـــتجارة مستمرة بين الجانبين، ولم تتوقف حتى في أوقات الحروب بينهم، وقـــد نـــص على ذلك الرحّالة المعاصر ابن جبير عند قوله: "اختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع، وأهل الحرب مشتغلون في حربهم، أما الرعايا والتجار فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحول سلماً أو حرباً".

وكـــان من نتائج ازدياد النشاط التجاري بين الشرق والغرب، أن ظهرت المدن الـــتجارية في أنحاء أوروبا، وهي ظاهرة جديدة أدت إلى اجتذاب الفلاحين إلى المدن

١٠- أحمد فؤاد باشا: المرجع السابق، ص ٤٤.

وانهيار النظام الإقطاعي.. كذلك ظهر نظام المصارف في تلك المدن التجارية، وكثيراً ما عاونت هذه البنوك الطبقات الحاكمة بالقروض المالية وتحالفت معها ضد رجال الإقطاع. وقد نتج عن هذه المعاملات المالية إصدار صرف يعرف بالصك أو الشيك، وكذلك البساتج – جمع بستاجة بمعنى الحوالة – وهي أنظمة مشرقية الأصل.

ومن الناحية المعمارية العسكرية، نلاحظ أن العمارة الإسلامية أضافت إلى التراث الفني العالمي نظماً لم تكن معروفة من قبل، ما جعل لها في العصور الإسلامية طابعاً مميزاً. ومن أمثلة ذلك أشكال العقود، وأنظمة المساجد والمدارس والقصور والحمامات والأضرحة. كذلك ابتكر المسلمون المداخل ذات المرافق أو المنعطفات المتعددة في المدن والحصون الإسلامية. والغرض من ذلك التحكم في العدو المهاجم من باب الحصن عبر هذه الممرات الضيقة الطويلة الملتوية.

ولقد انعكس هذا الأسلوب المعماري العسكري على الحصون والقلاع التي شيدها الصليبيون في الشام أو في أوروبا بعد ذلك.

وقد انتبه علماء العرب إلى الأمراض النفسية وأثرها على الصحة العامة وحاولوا رفع معنوية المريض وإعادة الثقة لنفسه وإخراج الأوهام التي تعتريه، وكتب ابن الهيثم عن اثر الموسيقى في الأمراض النفسية والعصبية.

وقد قالت زيغريد هونكه: "ولنا أن نذكر نظرة الغرب إلى هؤلاء المرضى المساكين خلال القرون الوسطى، فنرى هولاً وبشاعة بالغين مبعثهما الاعتقاد السائد آنذاك، والذي غذّته الدعاوات الخاطئة، بأن المرض لعنة من السماء حلّت بصاحبها عقاباً له على إثم زعموا انه ارتكبه وان شيطاناً دخل في نفسه فحلّ عذابه، واصبح علاج الفرنجة يتركز على طرد الشياطين من الأجسام الضعيفة، وكم كانت هناك من حالات خطرة استبد الشيطان بصاحبها ولزم طرده شر طردة وبأية وسيلة من الوسائل فكان هؤلاء البشر المعذّبون يوضعون في سجون مظلمة وقد قُيّدت أيديهم وأرجلهم أو يُعزلون عن العالم وعن أهلهم في "المستشفى السجن" أو "البيت العجيب" أو برج المجانين أو القصر العجيب كما كانوا يسمونها آنذاك، ويُسلّم أمرهم إلى رجال أفظاظ لا يعرفون الألفة غير الضرب والشتم والتعذيب وذلك مدى الحياة"(١١) .

١١- يوسف عز الدين: المرجع السابق.

ونعطي نموذجاً حضارياً وهو مدرسة بالرمو للترجمة.

كانــت، مديــنة بلــرمو عاصــمة صقلية وقاعدة ملوكها أيام حكام المسلمين والنورمان والجرمان وتقع على ساحل الجزيرة الشمالي. ويفهم من كلام الإدريسي (٤٩٣–٥٦٠) (١٠٩٩–١١٦٦)[١٢] أنــه كــان يوجد بوسط بلرمو مدينة إسلامية قديمــة تعرف بالخالصة، كانت مقر السلطان وجنوده أبان الحكم الإسلامي، وكان المســلمون يعرفونها باسم المدينة، والنصارى يعرفونها باسم بلرمو، ثم غلب الاسم القديم بلرمو على المدينة كلها بعد ذلك.

ولقــد زارهــا ووصــفها الــرحالة والجغرافيون المسلمون أمثال "ابن حوقل البغدادي" (ت ٣٨٠هــ)، و"الشريف الإدريس السبتي" (ت حوالي ٥٤٨هــ)، ولابن جبير البلنسي الأندلسي" (ت ٦١٤هــ).

وهكــذا كانــت بلرمو حاضرة صقلية في العصر الوسيط، وقد قامت فيها في القــرن الثالــث عشــر الميلادي (٧هــ) مدرسة للترجمة عن العربية عر، غرار مدرســة طلــيطلة في شمال أسبانيا. وتوطدت بين المدرستين علاقات ثقافية تبودل فيها الكتب والترجمات فضلاً عن العلماء.

وممــن تردد على مدرسة بلرمو العالم الاسكتلندي "مايكل سكوت" M. Scott أحــد تلامــيذ مدرسة طليطلة الذي ترجم أعمال أرسطو وشروح ابن رشد عليها. ومــن المحتمل أنه تعرف على الإمبراطور فردريك الثاني الذي ازدهرت مدرسة بلرمو في عهده.

هــذا ومن المعروف أن معاني القرآن الكريم ترجمت إلى اللاتينية في النصف الأول مــن القرن الثاني عشر الميلادي أو السادس الهجري. كذلك، ترجمت قصة الإســراء والمعــراج، بأمر من الملك الإسباني الفونسو العالم، إلى اللغات القشتالية والفرنسية واللاتينية، وانتشرت في أسبانيا وإيطاليا منذ القرن الثالث عشر الميلادي (٧هــــ) واســتفاد منها الشاعر الإيطالي دانتي كما سبق أن أسلفنا، ولم تلبث هذه الترجمات أن انتقلت إلى جامعات باريس ونابولي وبولونيا.

١٢- هــو ابو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن إدريس الشريف، يكنى بالشريف الإدريسى، ويعد من أعظم جغرافى العرب فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) أهم أعماله "نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق" وه أعظم موسوعة جغرافية، وقام الادريسى بإعداد خريطة للعالم المعروف آنذاك نقشها نقشاً غائراً على لوح من الفضة.

على أنه يلاحظ أن حركة الترجمة في مدرسة بلرمو، اتجهت في معظمها - على غرار مدرسة طليطلة - إلى العلوم الرياضية والفلسفية والطبيعية. وكان من أهم ما ترجم فيها على سبيل المثال كتب ابن سيناء "Avicenne" (ت١٠٣٧م) (مثل كتاب القانون في الطب، وكتاب الشفاء في الفلسفة، وكتب أبي بكر محمد الرازي "Razes" (ت ٩٣٢م) مثل كتاب الحاوي في الطب... الخ.

وكان من، أعلام المترجمين فيها أوجين البلرمي "Eugenius" وليوناردو البيزاني "Leonardo pisano". ولعل من مظاهر هذه النهضة العلمية، آلاف المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبة الفاتيكان بروما إلى الآن.

وكانت جزيرة صقلية في العصر الوسيط، هي المعبر الثاني الذي عن طريقه انتقلت الحضارة الإسلامية إلى الفكر"لأوروبي. وينبغي أن نوضح أن الباحثين ورجال العلم المسلمين لم يكونوا مجرد نقلة أو مترجمين، ولكنهم عدلوا التراث الكلاسيكي، ونفخوا فيها من روحهم الإسلامية. وعلى هذه الصورة نقلوها إلى عقول أوروبا التي جاءت تطلب العلم في أسبانيا وصقلية.

ومن مظاهر اللقاء الحضارى تلك الرحلة التي قام بها جربير دي أورياك Gerbert d'Aurillac الذي أصبح فيما بعد بابا باسم البابا سلفستر الثاني[١٣] Silvestre II، إلى قرطبة، "طلباً للحكمة". ولم يعد الجادون من المؤرخين يشكون في قيامه بهذه الرحلة التي شهد بها معاصره المؤرخ ادمار دي شابان Ademar de Chabannes خصوصاً ومن الثابت أنه زار أسبانيا وأمضى بها ثلاث سنوات من سنة ٩٦٧ إلى سنة ٩٧٠، بجوار أسقف فتش Vich، فماذا عسى أن يطلب العلم في قطالونيا خلال هذه السنوات الثلاث؟ لم يكن في قطالونيا من العلم آنذاك ما يشغل ذهن هذا الراهب ثلاث سنوات، لهذا فمن المؤكد أنه رحل من قطالونيا إلى حيث مركز العلم والثقافة في ذلك الحين، أعني إلى قرطبة الزاهرة في عهد الحكم الثاني (المتوفى سنة ٣٦٦هـ). فكان لهذه الرحلة أثرها البالغ في اهتمام جربير بالعلم العربي ومحاولة نشره في أوروبا المسيحية.

ويلغ هذا التبادل أوجه في طليطلة بعد أن استردها الأسبان سنة ١٠٨٥، فأصبحت على الحدود بين الدولة الإسلامية في الأندلس وبين الدولة النصرانية في

١٣- أنظر عبد الرحمن بدوى، دور العرب في تكوين الفكر الغربي، دار الآداب- بيروت، 1965، وسوف نستعرض أهم ما ناقشه الفيلسوف المصرى فى هذا الكتب القيم.

سائر أسبانيا. وكانت مدينة جليلة الشأن منذ عهد بعيد إذ كانت عاصمة مملكة القوط الغربيين. وفي عصر ملوك الطوائف بلغت مكانة كبرى على أيدي ملوكها من بني ذي النون إلى أن استولى عليها الفونس السادس سنة ٤٧٨هـ.. فقد امتازت بمكتباتها العظيمة، خصوصاً وقد انتقل إليها آلاف المجلدات من المشرق. وكان فيها ثلاث طوائف قوية تعيش إلى جوار بعضها: المسلمين والنصارى واليهود. وتولت الطائفة الثالثة التوسط بين الطائفتين الأخريين، سواء في التجارة أو في نقل العلوم. وشجع على قيام حركة نقل الكتب العربية إلى اللاتينية - إما بتوسط اللغة العبرية أو اللغة الدارجة الرومانية - مطران طليطلة ريمدندو Raimundo 1126-1152).

وتلاه خلفاؤه من المطارنة، حتى استمرت هذه الحركة طوال أكثر من قرن. ولقد اعتاد المؤرخون أن يتحدثوا عن "مدرسة المترجمين" في طليطلة ولكن ليس المقصود وجود مدرسة بالمعنى المادي، أي هيئة وبناء يضمها يتولى القيام بالترجمة، مثل بيت الحكمة الذي أنشأه الخليفة المأمون للمترجمين من اليونانية أو السريانية إلى العربية في سنة ٢١٥هـ، بل كان هناك جماعة حرة من المترجمين يعملون في طليطلة في نفس المكتبات، وبنفس الطريقة، وفي ميدان واحد هو العلوم العربية.

لكن أول ما اهتم به هؤلاء المترجمون هو العلوم العربية المنقولة عن العلوم اليونانية. ذلك أن أوروبا كانت قد أقفرت أو كادت من العلم اليوناني، وانحصرت بضاعتها العلمية في متون جافة عقيمة، هي تلك التي وضعها مارشيانو كابلا Marciano Capella الذي عاش في شمال أفريقية في عهد الوندال في القرن الخامس، أو التي وضعها بوتيوس Boece في القرن السادس في إيطاليا في عهد القوط الشرقيين، أو تلك التي كتبها القديس "ايسيدور" الذي عاش في أسبانيا في القرن السابع على عهد القوط الغربيين، وأخيراً في القرن الثامن ما كتبه بيد Bede الموقر الذي عاش في بريطانيا. وهذه المتون كانت مجرد خلاصات شاحبة لآثار ضئيلة من العلم اليوناني، فبقيت الدراسة في أوروبا تافهة كل التفاهة، محصورة في فئة نادرة من الرهبان. وما كان يمكن هذه الدراسة أن تغير مجراها إلا إذا أمدها مصدر خصب جديد، فكان هذا المصدر هو العلوم العربية، وبخاصة ما تنطوي عليه من علوم اليونان. لهذا اتجه المترجمون إلى نقل الكتب العربية التي تتضمن علوم اليونان أولا.

وكان على رأسهم الشماس دومنجو غنصالبه Domingo Gonsalvo المتوفى حوالـــي ســـنة ١١٨٠. وبرز نشاطه في الفترة ما بين سنة ١١٣٠ وسنة ١١٧٠م، ويعــد أشهر رجال الترجمة في العصر الوسيط من العربية إلى اللاتينية عن طريق الأسبانية العامية. فقد كانت الطريقة في الترجمة أن يقوم يهودي مستعرب بترجمة الــنص العربي شفوياً إلى اللغة الأسبانية العامية، ثم يتولى "غنصالبه" الترجمة إلى اللاتينـــية. ومن بين ما ترجمه "غنصالبه" على هذا النحو بعض مؤلفات "للفارابي" و"ابـــن ســـينا" و"الغزالـــي" و"ابن جبيرول". وشاركه في الترجمة أحياناً "خوان بن داوود" إذ اشـــتركا معـــاً في ترجمة كتاب "في النفس" لابن سينا. ويخلط أحياناً بين "ابـــن داوود" هـــذا وشخص آخر هو "يوحنا الأسباني" الذي ترجم من العربية إلى اللاتينـــية عدة مؤلفات في الفلك والنجوم، من بينها كتب للخوارزمي، بفضلها انتقل الحســـاب الهـــندي إلى أوروبا والنظام العشري في الحساب؛ حتى عرفت العمليات الحســـابية باسم Alguarismo. والغريب أننا ترجمناها حديثاً باسم "اللوغاريتمات" وهي في الأصل منسوبة إلى الخوارزمي!! والصحيح أن نترجمها بـ "الخوارزميات" أو "الجـــداول الخوارزمية" بدلا من الترجمة المضحكة: "اللوغاريتمات" أو "جداول اللوغاريتمات" كما تسمى في كتب الطلاب في المدارس الثانوية في البلاد العربية، ومـــن كتـــب الخوارزمي عرفت أوروبا "الصفر"، وهو في العربي ترجمة للكلمة الهـــندية سونيا Sunya أي "خال، خاو"، والصفر هو الخالي أو الخلوى، وقد نقلت كلمـــة "صفر" العربية إلى اللاتينية هكذا: Cifra Cifrumبمعنى "الصفر"، ثم أطلقت مـــن بعد على العدد عامة، كما نجد في اللغات الأوروبية: chiffre في الفرنسية و cifra الأسبانية. ومنها أخذت كلمة "السفرة" في الدبلوماسية أي اللغة الرمزية، لأنها تقوم على أرقام.

ومن المرجح أن أول الأوربيين غير الأسبان الذين استفادوا من حركة الترجمة هذه من العربية إلى اللاتينية هو "أدلهرد أوف باث" Adelhard of Bath. وكان رحالة وعالمـــاً، جال خلال فرنسا وصقلية وقليقية وسوريا حوالي سنة ١١١٥؛ وقد ترجم من الأســـبانية ســـنة ١١٢٦ الزيج الذي وضعه الخوارزمي وعرف باسم "السند هند" وفي أوروبا باسم Tablas Astronomicas وقد أصلحه "مسلمة المجريطي".

أمـــا المركـــز الثانـــي للتبادل الثقافي فكان كما قلنا في صقلية بعد أن استولى الـــنورمان عليها ٤٨٤هـــ. وكان العرب قد فتحوها سنة ٢١٢هـــ على يد الأغالبة

فكأنهـا ظلـت تحت حكم العرب ٢٧٢هـ سنة. وأما التأثير العربي فقد ظل طوال عهـد الـنورمان، "فـروجار الثانـي" تأثر في كل مظاهر بلاطه بمظاهر الخلافة الفاطمية في مصر، فكان يظهر وعليه عباءة فاخرة مكتوب عليها بالحروف العربية الكوفـية، وأنشأ أكاديمية كان يعمل فيها العلماء النصارى واليهود جنباً إلى جنب، وأحسـوا بالحاجـة إلـى ترجمة العلوم العربية إلى اللاتينية، فبدأت حركة مناظرة لحركة "طليطلة" وان تأخرت عنها بعشرات السنين.

ففي عهد "جيوم الأول"، ابن روجار الثاني، نشطت حركة الترجمة ليس فقط من العربية بـل وأيضاً من اليونانية، حتى أن وزيره المشهور " انريكو ارستبو Enrico Aristippo" تـرجم "الآثـار العلويـة" لأرسطو من اليونانية وكذلك ترجم محاورتين لأفلاطـون، كمـا ترجم هو و"الأميرال يوجنيو دي بالرمه" Eugenio de Palermo كـتاب "المجسـطي" لبطلميوس من العربية إلى اللاتينية حوالي سنة ١١٦٠، وترجم يوجيـ.. أيضاً كتاب "المناظر" لبطلميوس من العربية. كما اشترك في حركة الترجمة مـن العربـية مترجم إيطالي فذ هو "جيرردو الكريموني" Gerardo de Cremona (1114_1178) الـذي رحـل إلـى طلـيطلة طمعاً في دراسة العلوم الفلكية، وعنى خصوصاً بكتب الفلك لبطلميوس، وعلى رأسها "المجسطي"، وهي كلمة يونانية تعني فـي أصـلها: "الأعظـم"، وقد أطلقها اليونانيون على أكبر كتب بطلميوس في الفلك، وعـربها العـرب كمـا هي: "المجسطي". فقام "جيرردو" بترجمته إلى اللاتينية سنة ١١٧٥ وهـو لا يعـرف أن الكتاب قد ترجمه أيضاً "أرستيبو"؛ على أن ترجمته هي التـي حظيت بالشهرة الأوسع. كذلك ترجم "جيرردو" أكثر من سبعين كتاباً عربياً في الفلك والجبر والحساب والطب.

واسـتمرت حـركة الـترجمة في طليطلة في القرن الثالث عشر وأمَّ طليطلة علمـاء أوروبا الكبار مثل "ميخائيل أسكوت" الذي شارك أيضاً في حركة الترجمة فـترجم لابن سينا. ومن بين كبار المترجمين نذكر "ماركوس" شماس طليطلة الذي ترجم من العربية بعض مؤلفات "جالينوس" الطبية كما ترجم القرآن الكريم وبعضه الكتـب فـي علـم التوحيد. كما نذكر خصوصاً هرمانوس المانوس Hermannus Alemanus الـذي تـرجم شرح "ابن رشد" على الأخلاق "لأرسطو" سنة ١٢٤٠، وتلخيص الخطابة "لابن رشد".

وفـــي عهد "الفونسو الحكيم" انتشرت حركة الترجمة من العربية إلى الأسبانية الناشــئة. فترجمـــت "كليلة ودمنة" و"مختار الحِكَم" للمبشر بن فاتك، وعشرات من كتب الفلك من اللغة العربية إلى اللغة الأسبانية، فكان لهذا أثره العظيم ليس فقط في تقــدم الدراســات العلمية في أسبانيا ومنها إلى أوروبا كلها، بل وخصوصا في قيام اللغة الأسبانية.

ومن هذا كله نتبين مدى حركة الترجمة من اللغة العربية إلى اللغتين اللاتينية والأسبانية، مما سيكون له أخطر الأثر في بعض العلم والأدب في أوروبا.

ابن سينا (الشيخ الرئيس) :

وليســت تأثــيرات ابــن سينا في الفكر الأوربي إلاّ جزءاً من أثر الحضارة الإســـلامية على أوروبا[١٤] ، بالرغم من أن كثيراً من المتعصبين يحاولون جاهدين التقلــيل مـــن دور الحضـــارة الإســـلامية، فيأتي دور ابن سينا ليثبت أن للمسلمين حضارة بلغت من الخلق والإبداع أن أثرت في الفكر الأوربي..

وفـــي القـــرن الثاني عشر قام جيراردو دا كريمونا Gerardo da Cremona ١١١٤-١١٨٧م"[١٥] بترجمة كتاب القانون لابن سينا إلى اللاتينية. ومنذ ذلك الوقت بـــدأ الاهتمام به حتى إذا ما جاء عصر الطباعة كان من أوائل الكتب التي طبعتها المطـــبعة، فلاقـــى انتشـــاراً واسعاً حتى أنه طبع ست عشرة مرة في الثلاثين سنة الأخيرة من القرن السادس عشر.

ومـــن أقـــدم الطـــبعات الأوربية طبعة (ميلانو-١٧٤٣) وطبعة (بادوا-١٤٧٦) و(البندقـــية-١٤٨٣). وقـــد طبع كاملاً في البندقية (١٥٩٥-١٥٨٢-١٥٤٢). ومن الطبعات الجزئية طبعة باريس (١٦٥٧) وهال (ألمانيا-١٧٩٦)،وفريبورج (١٨٤٤). كمـــا وقام ناتان هامئتي بترجمته إلى العبرية في روما سنة ١٢٧٩، وطبع في بابلي (١٤٩١).

أمـــا التعليقات باللغتين اللاتينية، والعبرية واللغات الأخرى فمما لا حصر لها. وهناك ترجمات جزئية حديثة للقانون، منها ترجمة جرونز الذي ترجم الجزء الأول

١٤- انظـــر صبيح صادق: تأثيرات الفيلسوف والطبيب المسلم ابن سينا في الثقافة الأوربية، وقد استفدنا كثيراً من هذا المقال المميز.

١٥- داكـــريمونا: راهب فرنسي نقل إلى اللاتينية فلسفة الكندي والفارابي وابن سينا والرازي ويقال أنه ترجم كتاباً في جميع فنون المعرفة من علوم وآداب وطب.

مع دراسة للكتاب. وترجم دي كوننج القسم الخاص بالتشريح (١٩٠٣)، وترجم هر شبرج ولبرت القسم الخاص بالرمد (ليبزج ١٩٠٢).

أما أول طبعة باللغة العربية فقد كانت سنة ١٥٩٣ في روما، ثم تبعتها طبعات أخرى منها طبعة بولاق في القاهرة عام ١٨٧٧.

وتــرجم كتابه (النجاة) ترجمة جزئية جند يسالفي Gundisalvi. وتوجد كذلك تــرجمة لاتينــية جزئية حديثة للقسم الثالث من كتاب النجاة. أما كتابه (الشفاء) فقد ترجم ترجمات جزئية كذلك؛ من ذلك ترجمة ماكس هورتن Max Horten (1907-1909).

وتــرجم فورجــية J.Forget كتاب الإشارات والتنبيهات وطبعه في ليدن عام ١٨٩٢.

أثر كتاب القانون في أوربا لقد بقي كتاب القانون يدرس في أوربا مدة طويلة، وظــل المــرجع العام للطب ستة قرون كاملة. أما في الشرق فقد بقي حتى القرن العشرين..

ولهــذا فان كتاب القانون يعتبر بحق اعظم كتاب طبي انتشر في العالم كله.. حــتى أن المجمــع الطبي عام ١٣٤٠ قرر الأولية لجالينوس وابن سينا. وفي سنة ١٥٠٠ حكمــوا بالســبق لابــن سينا في خمس سنوات محاضرات من أصل عشر ولجالينوس في أربع ولابقراط في واحدة!!.

ويتبيــن من مناهج جامعة (لوفان) سنة ١٦١٧ أن الطب فيها اعتمد على كتب الــرازي وابــن ســينا. وقد وافق البابا كلمنت الخامس سنة ١٣٠٩ على أن تكون كــتابات ابن سينا والرازي ضمن الكتب التي يجب أن يمتحن فيها الطالب إجبارياً للحصول على إجازة الطب من جامعة (مونبليه).

وقــد قام أحدهم بمحاولة إحصاء التأثير العربي، واليوناني على طبقة المثقفين آنــذاك، والتعبــير عنه بشكل أرقام كأي إحصاء عادي، فانتقى كتاباً للنبيل فراري دوجرادو De Grado الأستاذ في (بافيا) في إيطاليا وكان قد جمعه بفضل ملاحظته الخاصــة فطالعــه محصياً فيه أسماء العلماء العرب، واليونانيين بدقة ووصل إلى النــتائج التالية: ذكر سينا ما ينيف على ثلاثة آلاف مرة، والرازي وجالينوس ألف مرة وأبو قراط مائة وأربعين مرة!!.

وقد أدلى السير هيو لينستن رئيس الاتحاد الدولي للصيدلة في المؤتمر الصيدلي العربي الثامن الذي أقيم. في القاهرة عام ١٩٦٢ أدلى بأن مجمع الصيدلة في إنكلترا أراد أن يختار أعظم اثنين تدين لهما علوم الصيدلة بالفضل، فوقع اختياره على جاليت اليوناني وابن سينا المسلم.

ويقال أنه كان في المكتبة الأهلية بباريس جوهرتين ثمينتين هما كتاب جالينوس في الطب العام وكتاب القانون لابن سينا!

وكان الأطباء الأوربيون يفخرون بألقاب مثل Anima Avicenne أو Avicennista Insignis أي روح ابن سينا. ويدين علم الطب في أوربا بالكثير لابن سينا، بل وان ابن سينا قد سبق بعض أطباء أوروبا في اكتشافاته، ومن جملة تلك الإنجازات التي حققها ابن سينا في مجال الطب اكتشاف الانكلستوما، وسماها الدودة المستديرة قبل أن يكتشفها العالم الإيطالي دوبيني سنة ١٨٣٨ أي بتسعمائة عام تقريباً.

وابن سينا هو أول وصف إعراض حصى المثانة السريرية. وكان من المهتمين بمرض السكر. وأول من أدخل أمراض الشيخوخة وذلك في رسالته "رعاية المسنين والشيوخ".

وأول من قال بقابلية الأعضاء الصلبة في الجسم كالعظام للالتهاب والتضخم والأورام، مخالفاً بذلك التعاليم اليونانية. وميز بين التهاب المنصف الصدري (أو الحيزوم) وبين ذات الجنب، ونص على أن السحاف ينتقل بالعدوى. وقال بأن عدوى الأمراض تسري بواسطة الماء والتراب.

واستعمل المخدر في الجراحة؛ كاستخدامه الخمرة الممزوجة مع بعض العقاقير، كما واستخدم الإبر للحقن تحت الجلد في علاجه.

وقد شرح ابن سينا قبل بوتال Botal الخصائص التشريحية الفيزيولوجية التي تميز بها الجنين، حيث قال "أن الشريان والوريد النافذين من القلب والرئة لما كان لا ينتفع بهما في ذلك الوقت في التنفس منفعة عظيمة، صرف نفعهما إلى الغذاء، فجعل لأحدهما على الآخر منفذاً ينسد عند الولادة، وأن الرئة إنما تكون حمراء في الأجنة لأنها لا تتنفس هناك بل تتغذى بدم أحمر لطيف ..." وفي ذلك شرح دقيق لآلية الدوران وآلية التنفس أثناء الحياة داخل الرحم "المنفذ" هنا ليس إلا القناة الشريانية بين الوتين والشريان الرئوي، وقد نسب هذا الاكتشاف خطأً إلى بوتال Botal الذي جاء بعد ابن سينا بمئات السنين".

دوره في الطب النفسي:

وقـد ذهـب بعـض الباحثين إلى اعتبار ابن سينا أباً للطب النفساني.. حيث اسـتعمل طـريقة التحلـيل النفسي Psychoanalysis واستعمل فيها طريقة تداعي الأسماء Association قبل استعمالها في أوربا.

وقـد وضـح ابن سينا العلاقة التفاعلية الوثيقة بين الجسم والمؤثرات النفسية حيـث يقول "تأمل حال المريض الذي توهم أنه قد صح، والصحيح الذي توهم أنه مـرض، فان كثيراً ما يعرض من ذلك أن يكون إذا تأكدت الصورة في نفسه وفي وهمـه، انفعل فيه عنصره (أي جسمه) فكان الصحة أو المرض، ويكون ذلك ابلغ ممـا يفعله الطبيب بآلات ووسائط. فالصور إذا استحكم وجودها في النفس واعتقاد أنهـا يجـب أن توجـد، فقد يعرض كثيراً أن تنفعل عنها المادة التي من شأنها أن تنفعل".

والـتوهم الذي يشير إليه ابن سينا هو الإيحاء Suggestion "أما تأكد الصورة واسـتحكام وجودهـا في النفس" فهو عين عملية التطبع والتكيف Conditioning. كمـا جـاء بها بافلوف، وقد أعطى ابن سينا هذه العملية أساساً وانفعالاً مادياً على خـلاف الأسـاس النظري كما هو الحال في مدرسة فرويد، فيكون ابن سينا أقرب إلـى الـنظرية المادية في الانفعالات النفسية، وهو الاتجاه الأكثر إقناعاً وقبولاً في يومنا هذا.

وبالإضـافة إلـى ذلـك فان ابن سينا قد تقدم بنظرية اللاوعي.. أو اللاشعور وأعطى هذا الكيان من حياتنا العقلية قوة دافعة.

بـل وأن ابن سينا قد سبق فرويد بألف سنة في بحثه في الأمراض النفسية وقد يكـون فرويد نفسه قد أطلع على مؤلفات ابن سيناء، ذلك أن فرويد - وهو يهودي الديـن - قـد قـرأ الـتراجم العـبرية لكتاب القانون وبهذا افتتح الباب في بحوثه واكتشافاته في الأمراض النفسية.

وقـد ذكـر ابـن سـينا الكثير من العقاقير التي دخلت في علم النبات، وعلم الصـيدلة الأوربيين، وظل الكثير منها بأسمائها العربية في اللغات الأجنبية كعنبر Ambra، والزعفران Safaran والكافور Kampfer، والتمر الهندي inda Tamar وعـود الندAloe والحشيش Haschisch والمسك Muskat والصندل Sandelholz وغيرها..

أثره في الجيولوجيا :

وفـــي علم الجيولوجيا تؤكد جميع الأبحاث على أن ابن سينا قد أثر على أوربا في هذا المجـــال حتى أن ماكس مايرهوف Max Meyerhof يقـــول "نحن مدينون لابن سينا برسالته في تكوين الجبال والأحجار والمعادن".

تكلـــم ابـــن ســـينا عن منشأ الجبال، فقال بان الجبال تنشأ عن سببين؛ فأما أن تكـــون نتـــيجة ارتفاع في قشرة الأرض بفعل أحد الزلازل الشديدة مثلا، وأما أن تكـــون نتيجة عمل الماء بان يشق طريقاً جديداً، ويحفر أودية، ويحدث جبالاً، وذلك لأنـــك تجد صخوراً لينة ذات صلابة، فيذهب الماء والريح بالصخور اللينة، ويترك الأخرى سليمة، وهكذا تحدث اكثر التلال..

كمـــا ووضـــح أن الزلازل: حركة تعرض لجزء من أجزاء الأرض بسبب ما تحـــته، ولا محالة أن ذلك السبب يعرض له أن يتحرك ثم يحرك ما فوقه، والجسم الـــذي يمكـــن أن يتحرك تحت الأرض هو أما جسم بخاري دخاني قوي الاندفاع، وأمـــا جســـم مائـــي سيال، وأما جسم هوائي، وأما جسم ناري، وأما جسم أرضي، والجســـم الناري لا يكون ناراً صرفة وفي حكم الرياح المشتعلة. ويقول أن الدليل بـــأن اكـــثر أسباب الزلزلة هي الرياح المحتقنة أن البلاد التي تكثر فيها الزلزلة إذا حفـــرت فـــيها آبار وقنى كثيرة حتى كثرت مخالص الرياح والأبخرة قلت الزلازل بهـــا، واكـــثر ما تكون الزلازل في بلاد متخلخلة غور الأرض متكاثفة وجهها أو مغمورة الوجه بماء يجري، أو ماء غمر كثير لا يقدر الريح على خرقة...

وقـــال "وربما احتسبت الأبخرة في باطن الجبال فانعقدت وجمدت فحدث منها الجواهـــر المشفة التي لا تنطرق، وأكثرها تكون مختلفة بالمائية، وربما انعقد كذلك علـــى ظاهـــر الأرض لطبيعة الموضع والأدخنة التي تحتبس داخل الأرض، ربما اضـــطرها شـــدة حركـــتها وما تتكلفه من شقها الأرض، أن تشتعل وتخرج ناراً. وأشار ابن سينا كذلك إلى المتحجرات وقال بان المعمورة يغلب أن تكون في سالف الأيـــام غير معمورة بل مغمورة في البحار فتحجرت ولهذا كثيراً ما يوجد في كثير مـــن الأحجـــار إذا كســـرت أجـــزاء الحـــيوانات المائـــية كالأصـــداف وغيرها. وكـــان لهـــذه الآراء أثـــرها علـــى طـــابع الفكـــر الجـــيومور فولوجي الحديث. بـــل وان هذه الآراء كان لها الأثر الواضح على العالم الإيطالي ليونار دو دافنشي Leonardo da Vinci أخذها عن ابن سينا ليبدأ به علم الجيولوجيا.

أثــره في الفلسفة وأثر ابن سينا في الفلسفة الأوربية كذلك، حيث ترجمت كتبه الفلســفية إلـــى اللغات الأوربية. ويعود الفضل في ترجمة كتب الفلسفة العربية إلى اللغـــة اللاتينية إلى رئيس أساقفة طليطلة مونسنيور دريموند حيث أنشأ في طليطلة مـــن ســـنة ١١٣٠ إلى سنة ١١٥٠ دائرة لترجمة الكتب العربية. وكانت كتب ابن سينا هي أهم الكتب التي ترجمت آنذاك..

وقـــد أثـــارت كتـــب ابـــن سينا وشروحه بعد ترجمتها، جدالاً بين المفكرين والفلاســـفة.. حتى حرم الاكليروس سنة ١٢١٥ تلخيصات ابن سينا على أرسطو. وحمـــل غلـــيوم دوفـــرن على فلسفة ابن سينا خاصة، والفلسفة العربية عامة. أما اللاهوتي البير الكبير فقد اعتبر ابن سينا أستاذاً له!!.

وقـــد خلـــف ابن سينا آثاراً واضحة في الفلسفة المدرسية اليهودية والمسيحية، وتـــبدو أشد ما تكون لدى جندسا لينوس، وغليوم الافرني، والبرت الكبير، والقديس تومـــا الإكوينـــي، وروجـــر بيكون الذى استوعب الكثير من الفكر العربى والعلم العـــربى، وعرف العربية[١٦] واستشهد في كتاباته بعلماء ومفكرى الإسلام،. وفقد اخـــذ البرت الكبير على الفارابي، وابن سينا، كثيراً من الآراء؛ كنظرية الفيض وما تستبعه من القول بوجود عقل فعال تفيض من المعاني على النفوس الإنسانية.

أمـــا تومـــاس الاكويني فقد اعتمد على أقوال للرد على ابن رشد. وكذلك في تعـــريفه للـــنفس اعتمد على ابن سينا. ولا يبعد أن يكون ديكارت قد تأثر بابن سينا ذلك أن كتاب الشفاء طبع باللغة اللاتينية ثلاث مرات بين سنتي١٥٤٦ -١٤٩٦ في البندقـــية أي قـــبل خمسين سنة من ولادة ديكارت. وإذا لم يكن ابن سينا قد أثر في ديكـــارت فانه قد سبقه في بعض ما توصل إليه في فلسفته، فقد ذهب ديكارت إلى الإيمـــان بوجود النفس عن طريق الشك، يقول ديكارت "... اقتنعت من قبل بأنه لا شيء في العالم بموجب على الإطلاق. فلا توجد سماء، ولا أرض، ولا نفوس، ولا أجسام، وإذن فهل اقتنعت بأني لست موجوداً كذلك؟ هيهات فأني أكون موجوداً ولا شـــك أن أنا اقتنعت بشيء، أو فكرت في شيء". ويضيف قائلاً كذلك "لا أسلم الآن بشـــيء، ما لم يكن بالضرورة صحيحاً، وإذن فما أنا على التدقيق إلا شيء مفكر، أي ذهن، أو روح، أو فكر، أو عقل... فأنا إذن شيء واقعي وموجود حقاً، ولكـــن

١٦- أحمد سعيد سعيدان: مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١٣١ لسنة ١٩٨٨، ص ٩٧.

أي شيء؟ لقد قلت أنني شيء مفكر".

بينما قال ابن سينا في كتابه الإشارات والتنبيهات "أرجع إلى نفسك وتأمل إذا كنت صحيحاً، بل وعلى بعض أحوالك غيرها، بحيث تفطن للشيء فطنة صحيحة، هل تغفل عن وجود ذاتك، ولا تثبت نفسك؟ ما عندي أن هذا يكون للمستبصر، حتى أن النائم في نومه، والسكران في سكره، لا تعزب ذاته وأن لم يثبت تمثله لذاته في ذكره. ولو توهمت ذاتك قد خلقت أول خلقها صحيحة العقل والهيأة، وفرض أنها على جملة من الوضع والهيأة بحيث لا تبصر أجزاؤها ولا تتلامس أعضاؤها، بل هي منفرجة، ومعلقة لحظة ما في هواء مطلق، وجدتها قد غفلت عن كل شيء، إلا عن وجود انيتها".

شذرات من دور المسلمين في تكوين الفكر العلمي الأوروبي[١٧]

ويروى الدكتور عبد الرحمن بدوى[١٨] أن أبرز دور للمسلمين في تكوين الفكر الأوروبي هو في العلم بمختلف فروعه: الطب، والطبيعة، والكيمياء، والفلك، والرياضيات، والتاريخ الطبيعي، والفلاحة.

أما في الرياضيات فقد كان للمسلمين الفضل الأكبر لأنهم هم الذين أدخلوا النظام العشري في العدد، إذ كان اليونانيون إنما يستعملون في العدد حروف الأبجدية للعد من ١ إلى ٩٩٩، ثم يستعملون الشرطة والشولة والنقطة للعد فيما بعد ذلك حتى آلاف الآلاف، وكان الرومان يستعملون سبعة أحرف من الأبجدية هي IVXLCDM وتدل على التوالي على ١ ٥، ١٠، ٥٠، ١٠٠، ٥٠٠، ١٠٠٠ ثم يضعون فوقها شرطة أفقية تدل على أن العدد مضروب في ١٠٠٠. وجاء الهنود فاخترعوا نظام العد

١٧- انظر عبد الرحمن بدوي، دور العرب.

١٨- عبد الرحمن بدوي: فيلسوف مصري، ومؤرخ للفلسفة. فلسفته هي الفلسفة الوجودية في الاتجاه الذي بدأه هيدجر. وقد أسهم في تكوين الوجودية بكتابة "الزمان الوجودي" الذي ألفه في سنة ١٩٤٣ وقدمه رسالة للحصول الدكتوراة في الفلسفة من كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا)، ونوقشت هذه الرسالة في ٢٩ مايو سنة ١٩٤٤ وحصل بها على إجازة الدكتوراه في الآداب-تخصص فلسفة. وتمتاز وجوديته من وجودية هيدجر وغيره من الوجوديين بالنزعة الديناميكية التي تجعل للفعل الأولوية على الفكر، وتستند في استخلاصها لمعاني الوجود إلى العقل والعاطفة والإرادة معا، وإلى التجربة الحية هذه بدورها تعتمد على ملكة الوجدان بوصفها اقدر ملكات الإدراك على فهم الوجود الحي وقد احاط عاما بكل تاريخ الفلسفة، وتعمق في مذاهب الفلاسفة المختلفين والألمان منهم بخاصة لكن اقوى تأثير في تطوره الفلسفي إنما يرجع إلى اثنين هما هيدجر، ونيتشه.

العشـــري وفيه تتوقف قيمة العدد على موضعه فالعدد ٥ على يمين الواحد غيره على شـماله وهكـــذا. واســـتعملوا الصفر للدلالة على الخلو من الوحدة. وجاء المسلمون فاخـــترعوا طريقة لكتابة الأعداد هي طريقة "الغبار"، وهي التي انتشرت في المغرب ومـــنه انتقلت إلى أوروبا ولا تزال تستعمل اليوم فيما نسميه نحن الأرقام الأفرنجية، ومـــا يســـميه الأوروبيون بالأرقام العربية، وهي في الحقيقة عربية وليست إفرنجية، بيـــنما ظل المشارقة من المسلمين يستعملون الطريقة الهندوستانية وهي التي لا نزال نكتب بها الأرقام فـ ي المشرق الإسلامي حتى اليوم.

وقـــد دخلت الرياضيات الإسلامية أوروبا على يد "ليوناردودي بيزا" في القرن الثالث عشر.

ومـــن أشـــهر الرياضيين المسلمين الذين عرفتهم أوروبا وترجمت مؤلفاتهم إلى اللاتينية:

١- أبـــو عـــبد الله محمـــد بن موسى الخوارزمي الذي برز في عصر "المأمون"، وتوفى سنة ٨٣٥، أو سنة ٨٤٤، أو سنة ٨٤٦ ميلادية على خلاف في ذلك.

وهـــو أول عالم مسلم يكتب عن الحساب الهندى، وكتابه فى الحساب بالعربية مفقـــود، لكن لدينا منه أربعة كتب مترجمة باللغة اللاتينية[١٩] وقد ترجم له كتاب لا نعـــرف غـــير ترجمـــته اللاتينـــية بعـــنوان Alg numero indorum الذي نشره "بونكومبانـــي" فـــي روما سنة ١٨٥٧ وفيه يشرح النظام العشري مستعملاً الأرقام الهندوستانية. أما كتابه الرئيسي ذو الأثر الحاسم فهو كتاب "حساب الجبر والمقابلة" الـــذي فـــيه درس تحويـــل المعادلات وحلها. وقد ترجمه إلى اللاتينية "جيررْدودي كريمونا" ونشر النص العربي روزن مع ترجمة إنكليزية في لندن سنة ١٨٥١. ولم يتأثر فيه بالجبر اليوناني الذي وضعه ذيوفنطس بل تأثر بالهنود والفرس.

٢- بـــنو موسى بن شاكر، وكانوا ثلاثة أخوى: محمد، وأحمد والحسن وعاشوا في القـــرن الثالـــث الهجري، وبرزوا في الحساب والفلك والحِيَل أي الميكانيكا، وكان محمـــد أوفـــرهم علماً، وأحمد أبرزهم في الميكانيكا، والحسن في الحساب، ولكنهم كـــانوا يشـــتغلون معـــاً، ويؤلفـــون معاً. ولهم كتاب في مساحة السطوح المستوية

١٩- دونـــالد هـــيل: العلوم والهندسة فى الحضارة الإسلامية، ترجمة: أحمد فؤاد باشا، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٣٠٥، يوليو، ٢٠٠٤، ص ٥٧.

والكــروية تــرجمه "جيرردو" إلى اللغة اللاتينية، ونشره "كرتسه" مع ترجمة إلى الألمانية.

وقــد اســتطاع أبــو كــامل شجاع بن أسلم أن يحلل قوانين المعادلات ذات المجهولات الخمسة وتوصل إلى حل للمسائل (المعادلات) غير المحددة[٢٠].

لــم تكــن جهود العرب وقفاً على الطب وإنما برزوا في الرياضيات وما زال الغــرب يستعمل كلمة Algebra ولوغاريتم في الرياضيات وقد وقف الغربيون بكل طاقاتهم لإبعادها عن أصلها الذي جاء من الخوارزمي بإعادتها إلى اليونانية طوراً والى الهندية او اللاتينية تارة، فقد أبت نفوسهم الاعتراف لنا بهذه المفخرة الكبيرة، وممــا يزيد النفس ألماً ان العرب أنفسهم وبخاصة هذا الجيل، يجهل كل الجهل من هــو الخوارزمــي، وحتى علماء الرياضيات لا يدرون بأنه أول من وضع قواعد الجــبر وفصــله عن الحساب وقد "رتّبه وبوّبه وزاد عليه زيادات مهمة تُعد أساسا لكثير من بحوثه" وليس هنا ما يضاهي الجبر من العلوم التي عرفتها الإنسانية دقة وأحكاماً.

ومــا تــزال الجــداول الرياضية تستعمل حتى اليوم كما وضع العرب القاطع والقــاطع تمــام، فقد أدخل البزجاني هذين المصطلحين مع الجداول الرياضية، كما أوجد "طريقة جديدة لحساب جداول الجيب وكانت جداوله دقيقة حتى ان جيب جيب زاوية ٣٠ دقيقة كان صحيحاً إلى غاية عشرة أرقام عشرية".

ولــولا فكــرنا الرياضي لما وصل علم المثلثات إلى المرحلة المتطورة التي وصل إليها الآن وكان من جراء اختصار الحساب أن وُضعت قواعد للحساب التي صعد بها الغرب إلى القمر (فقد وضعوه بشكل علمي منظم مستقل عن الفلك، وفي الإضافات المهمة التي جعلت الكثيرين يعتبرونه علماً عربياً).

ولــن يــنكر العصــر الحديــث أثــر المثلثات في كثير من البحوث الطبيعية والهندســية والاكتشــافات المعاصرة وتسهيل دروبها وتحقيق الانتصارات العلمية الكبــيرة ودراســة الرياضــات عــند العرب تحتاج إلى دراسة مفردة يقوم عليها مخــتص، لكني سأمر سريعاً بها وأذكر بعض شواهدها وخير من كتب عنها قدري

٢٠- شاخت وبوزورث: تراث الإسلام (الجزء الثاني) ترجمة حسين مؤنس وإحسان صدقي، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٢٣٤، الكويت أغسطس ١٩٧٨م، ص ١٩٦.

طوقـــان، فقـــد أفـــرد لها كتاباً ضخماً طُبع اكثر من مرة ومما ذكره أن العرب قد توصـــلوا إلى إثبات نسبة جيوب الأضلاع بعضها إلى بعض كنسبة الزوايا المؤثرة بتلك الأضلاع بعضها إلى بعض في اي مثلث كروي واستعملوا الماسات والقواطع ونظائـــرها في قياس الزوايا والمثلثات. بل أن البتاني حل بعض العمليات المتعلقة بالمثلثات بطريقة جبرية.

وقد خطا العرب خطوة لا يمكن أن ينساها علماء الرياضيات عندما استعملوا الـــرموز الرياضية، فقد سهلت كثيراً من العمليات واختصرت الوقت، عندما سهلت حل المعادلات بدرجات مختلفة.

وقـــد كانت لهم نظرة رياضية ممتازة عندما اعتنى علماؤها بالجذر الأصم، وكان الخوارزمـــي أول مـــن اســـتعمل "أصم" لتدل على العدد الذي لا جذر له ومن هذه الكلمـــة أو مـــن هذا المعنى استعمل الغرب لفظة Surd وهي تعني أطرش Deaf, Mute. ولم يفت المنصفون من علماء الغرب تقديرهم للعقل الرياضي العربي، فقد قـــال كـــاجوري: "ان العقـــل ليدهش عندما يرى ما عمله العرب بالجبر، وقد كان لمحمـــد بن موسى الخوارزمي الفضل الأول في وضع علم الجبر والحساب عندما وضع كتابه "الجبر والمقابلة" في زمن المأمون (١٨)، وللخوارزمي فضل كبير في وضـــع كتاب في الحساب، من الأوائل في هذا العلم من حيث التبويب ووفرة المادة وقد نقله Adlord of Bath تحت عنوان الغورتمي.

وبقـــي المعمـــول عليه عند التجار والمحاسبين والعلماء في علومهم وحاجاتهم اليومـــية والعلمية Al Goritmi de Numbero Mdorima. وبقي المعول عليه عند التجار والمحاسبين والعلماء وحاجتهم اليومية والعلمية.

وبذلـــك كان الجيب تمام والقاطع تمام والجذر الأصم ومعرفة الكسور والجـــداول الرياضـــية وغيرها من أصول الرياضيات، كان للعرب فضل وصفها وتطوير علم الرياضيات.

والصـــفر، ما هذا الصفر الذي تمر به في هذه الأيام من دون أن نعنى به أو نلتفـــت إلـــى أثره لأنه اصبح جزءاً من الحضارة المعاصرة واصبح سهلاً متداولاً، فللغـــرب قصـــة مع هذا الصفر. فقد احتار الغرب في هذا الصفر الذي يزيد العدد كمـــية ويكـــون أحـــياناً لا يساوي شيئاً ولا يحسب، وأخذه الغرب فكان Cpher، و Chuffer ثـــم اصـــبح Zphyr ثـــم Zero بالإنكليزية. وباستعمال الصفر أصبحت

الأرقـــام التـــي يستعملها العرب اكثر مرونة وأيسر استعمالاً في العمليات الحسابية المخـــتلفة فقد حلت الكثير من المعادلات مهما كانت درجاتها واستعمال الصفر مع الأرقام التسعة في الرياضيات أسهل من كتابة الحروف الرومانية، وايسر استعمالاً ولا تـــأخذ مكانـــاً كبـــيراً عـــند تدويـــنها ولـــنأخذ رقمـــاً مقاربـــاً للألف (٩٩٨) ســـتكون DCCCLXXXXVIII اي أربعة عشر رقماً وهي ثلاثة أرقام بالاستعمال العربي.

ولعـــل مـــن الطـــريف أن نذكر أن روما أصدرت تحريماً بالاتصال بالعرب الوثنييـــن، ولمـــا أراد أحد رؤساء الطوائف دراسة كتب أولاد موسى بن شاكر في الميكانيك والفلك والرياضيات والساعات الشمسية، استأذن البابا في هذه الدراسة.

ولمـــا تعلّـــم غربرت، الذي أصبح البابا سلفسترس الثاني، العلوم عند العرب، وكـــان يعدّهـــا ويحســـبها بأرقامها ظنّوه ساحراً لأنه لا يكتب غير أرقام محدودة ويعرف النتائج بينما الأرقام اليونانية تحتاج إلى صفحات للحساب.

ولا يســـتغرب القارئ العربي إذا عرف بأن الغرب لم يعرف الهندسة إلا عن طـــريق علمـــاء العـــرب وكتبهم ومؤلفاتهم، فقد كان هذا العلم مجهولاً، لأن كتب الـــيونان فـــي الهندسة لم تصل إلى الغرب، وقد ظهر مؤخراً في أوائل هذا القرن رســـالتان في الهندسة وفي كنيسة وستر، الأولى كتبها البابا غربرت الذي مر ذكره والذي اصبح بابا باسم سلفسترس الثاني سنة ٩٧٩م. والثانية ترجع إلى أوائل القرن الثانـــي عشـــر للمـــيلاد كتبها ادلر اوف باث وكلاهما تعلم العلوم عند العرب في الأندلس.

وفـــي الوقت الذي كانت حياة الغرب يسيطر عليها الإقطاع ويلفّها غيم كثيف من الخرافات وترقد في أذهانهم الأساطير ويُسخّر الإقطاعي أبناء جنسه كما يسخّر الـــبهائم ويســـتعبد الإنسان كما يستبعد الحيوان، كان العرب يسخّرون علم الهندسة لـــتكون وســـيلة من وسائل تسهيل الفيزياء ولتكون العلوم أداة من أدوات الحضارة تقضـــي على الكهانة والطيرة والشعوذة، فقد وضع الحسن بن الهيثم قوانين الضوء مجرّباً المرايا والعدسات المخروطية والكروية وهي خطوة أساسية في اختراع آلة التصـــوير المعاصـــرة. (وبذلـــك فقـــد سخر ابن الهيثم الهندسة بنوعيها المستوية والمجســـمة فـــي بحوث الضوء وتعيين نقطة الانعكاس في أحوال المرايا الكروية والأســـطوانية والمخروطية والمحدبة منها والمقعرة وابتكروا لذلك الحلول العامة)

وأبعـد ابـن الهيثم في الاستفادة من الحلول المعقدة المتعلقة بالضوء وتناول دراسة (نقطة تعيين الانعكاس على أساس منطقي سليم".

وقـد صـدق غوسـتاف لوبون بقوله: "ان العرب الذين أخرجوا الغرب من ظلمـات التوحش إلى نور الحضارة. وإذا كانت أمة تقرّ بأننا مدينون لها بمعرفتنا ومـا انطوت عليه القرون القديمة من العلوم فإن العرب هم تلك الأمة، فعلى العالم أن يعترف بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة".

ومـن ينكر ان جود العلماء العرب كان سبباً ممهداً لإبراز العلماء في أوروبا فلـولا الخوارزمـي وابن الهيثم وجابر بن حيان لما ظهر غاليلو وبرز نيوتن، فهم مهّـدوا لهؤلاء الإعلام وإلا لاحتاجوا إلى قرون أخرى حتى تبدأ النهضة الأوروبية التـي بـدأت بفضـل العرب من النقطة التي انتهى إليها علم العرب التي وصلت للغـرب عن عدة طرق ومسارب تارة من الأندلس وآونة من طريق إيطاليا عندما نشـأت الجامعـات في صقلية وجنوب إيطاليا، كما وصلت الحضارة العربية عن طريق الحروب الصليبية التي بهرت الغربيين عندما جاءوا إلى الشرق حتى سجل الغـرب بطولـتهم وفروسـيتهم فـي ملحمة، فقد تحدث البطل عن تسامح العرب وإنسـانيتهم وأخلاقهم الكريمة فإذا انتقلنا من الرياضيات إلى الفلك وجدنا المسلمين قـد أثـروا تأثيراً بالغاً فيما يتعلق بالأرصاد الفلكية: ومن المسلمين الذين عرفتهم أوروبـا في هذا الباب محمد بن موسى الخوارزمي الذي ذكرناه آنفاً، فإن الألواح الفلكية التي وضعها وفقاً لأرصاد بعضها قام هو بها وبعضها تأثر فيها بالهنود، قد تـرجمها إلـى اللاتينـية "أدلهرد أوف باث" سنة ١١٢٦ ميلادية. كذلك نذكر "أبا العـباس أحمد بن محمد بن كثير الفرغاني" وله في الفلك كتاب كان ذا أهمية بالغة، فـترجمه إلـى اللاتينـية خوان الأشبيلي و"جيرردو الكريموني"، كما ترجمة إلى العـبرية "يعقـوب الأناضـولي"، ونشرت الترجمة اللاتينية مع النص العربي في أمسـتردام سـنة ١٦٦٩م. وهـو الذي قاس قطر الأرض بمقدار ٦٥٠٠ ميل. ولا يفوتـنا أن نذكـر "أبا معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي" المتوفى سنة ٨٨٦م (سـنة ٢٧٢هـ). وتـرجم له إلـى اللاتينـية كتاب بعنوان: Introductorium In Astronomiam Albumasaris Abalachi. وتـرجمه "خوان الأشبيلي" وطبع سنة ١٤٨٩ فـي أوجسـبورج وسـنة ١٤٥٩ فـي فينسيا. وفيه وضع نظرية عن المد والجذر.

وكــان نصير الدين الطوسى (١٢٠١-١٢٧٤م) يعتبر كتابه "التذكرة فى علم الهيــئة" أشــهر أعمالـــه التى بدأت المسيرة نحو فهم أوسع لبنية الكون، وقد حظى كتاب التذكرة باهتمام بالغ فى العصور الوسطى[٢١].

وأصالة علم الفلك عند المسلمين نشأت من كونهم طبقوا حساب المثلثات على الأرصـــاد الفلكية، واخترعوا وصنعوا آلات جديدة للرصد، مما أدى بهم إلى كثير مـــن الاكتشــــافات وإلـــى تعديل شامل لفلك بطلميوس. "فالبتاني" اكتشف تغير أوج الشــمس؛ وحسب السنة بمقدار ٣٦٥ يوماً وخمس ساعات و٤٦ دقيقة و٢٤ ثانية. والفلكــيون الــيوم يحسبونها بمقدار ٣٦٥ يوماً، وخمس ساعات و٤٨ دقيقة و٤٧ ثانـــية. كما تنبأ الفلكيون المسلمون بكسوف الشمس وخسوف القمر بدرجة من الدقة المتناهــية أذهلت الناس. وأولوا القمر اهتماماً خاصاً، لأن السنة الإسلامية قمرية، فانـــتهى "أبـــو الوفـــاء البوزجانى" (٩٤٠م-٩٩٨م) إلى اكتشاف التغيرات القمرية؛ كذلـــك عنوا بدراسة عطارد أو الكاتب كما كان يطلق عليه فوضع "البتاني" نظرية عن حركات عطارد.

وخير شاهد على أثر العرب في حياة الغرب وحضارته وجود الكلمات العربية في علم الفلك كالعقرب **Acrab**، والجدي **Algadi**، والطائر **Altair**، وذنب **Daneb**، وفـــرقد **Phrkod**، ونظـــير **Nadir**، وســـمت **Zamth**، والغول **Algol**، والكور **Alkor**، وفم الحوت **Fam alkhout**.

وقـــد هلّل الغرب لنظرية كوبرنيكوس بأن الأرض تدور حول الشمس مع ان هـــذه النظرية حقيقة عند العرب فقد اكتشفوا بأن الأرض تدور حول الشمس وتدور حـــول النجوم. ومن يقرأ البيروني وابن الشاطر الفلكي الدمشقي، يجد مصداق هذا القول.

ولـــم يكـــن كوبرنيكوس الوحيد الذي استفاد من العرب، فقد استفاد غاليلو من الجداول الرياضية، وقياس قطر الأرض.

ومـــن الطـــريف أن تعتمد روما على تحديد موعد الجمعة الحزينة وموعد عيد الفصـــح المجـــيد على "أولاد الشياطين" من العرب عندما تاه حساب روما، ولم تعد تدري كيف تحتفل بمواسمها الدينية، فأرسلت إلى الأندلس تسأل عن التاريخ الذي يقع

٢١- دونالد هيل: المرجع السابق، ص ٧١.

فيه العيد، ولماذا نذهب إلى التاريخ ونوغل في القدم فإن دليلنا واضح في اثر العرب على حياة الغرب الحضارية في أسماء الأيام التي يستعملونها فلو عدنا إلى أصلها لما بعدت الحقيقة عن انهم أول من فكّر فيها فقد جاء عن أخوان الصفا[٢٢] .

اعلم أن الليل والنهار وساعاتهما مقسومة بين الكواكب السيارة، فأول ساعة من يوم الأحد للشمس، وأول ساعة من يوم الاثنين للقمر، وأول ساعة من يوم الثلثاء للمريخ، وأول ساعة من يوم الأربعاء، لعطارد، وأول ساعة من يوم الخميس للمشترى، وأول ساعة من يوم الجمعة للزهرة، وأول ساعة من يوم السبت لزحل.

ودعنا نبحث عن أسماء الأيام باللغتين الإنكليزية والفرنسية، فستكون النتيجة مطابقة لا مثيل لها أُخذت من حسابات العرب والمسلمين وحضارتهم، فالأيام: الأحد Sunday والاثنين Monday، الثلاثاء Tusday، الأربعاء Wednsday، الخميس Thurtday، الجمعة Friday، السبت Satrday.

فالأحد يوم الشمس والاثنين يوم القمر والثلاثاء يوم تموز وهو آلهة الرعد قديماً والجمعة يوم الآلهة في Friy زوجة عطارد وتشبه الزهرة في صفاتها وزحل للسبت، أما في الفرنسية فإن Mardi فهو مارس المريخ ليوم الثلاثاء، وMardi الأربعاء يوم عطارد، وMercridi ليوم الخميس المشتري، Jeudi يوم الجمعة وهو يوم الزهرة، فإذا كانت الحضارة الغربية بحاجة إلى الاستعانة وبالأسماء العربية وأخذتها من الحضارة الإسلامية فكيف ينكر أثرها الواضح.

٢٢- أخوان الصفا هي فرقة فكرية عُرفت باسم "إخوان الصفاء وخلاّن الوفاء"، اشتهرت بتصنيفها مجموعة من الرسائل في مختلف فروع الفلسفة والعلوم الإنسانية. وقد عرفت هذه الرسائل رواجا كبيرا في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، كما يظهر من خلال العدد الكبير الذي وصلنا من نسخها المخطوطة، ومنها نسخة أُنجزت في بغداد عام ٦٨٦ هـ، تزيّنها منمنمتان بديعتان تختصران جمالية فن التصوير العباسي الخاصة بفن الكتاب. اختلفت الآراء في تحديد مذهب هذه الجماعة ودورها في الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية، والثابت أن اسم الجماعة خرج إلى النور في القرن العاشر الميلادي حيث "اضطربت أحوال الخلافة، ولم يبق لها رونق ولا وزارة، وتملّك البويهيون، وصارت الوزارة من جهتهم والأعمال إليهم"، على ما كتب ابن الطقطقي في "الفخري في الآداب السلطانية". وكان البويهيون من الشيعة الذين اتبعوا مذهب الزيدية، وهي من أقرب الفرق إلى آراء مذهب السنّة، ذلك أنها لا تحصر الإمامة في سلالة الإمام الحسين بن علي (ع)، كما أنها لا تشارك غيرها من الفرق الشيعية في ذم الخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان (رض)، والقدح في الصحابة الذين لم يبايعوا الإمام علي بالخلافة بعد وفاة الرسول (ص). الأعوان على الخير يجزم الكثير من البحاثة بتشيّع إخوان الصفاء، إلا أنهم يختلفون في تحديد الفرقة التي ينتمون إليها، فمنهم من يحسبولهم من الإسماعيليين، ومنهم من يرجّح انتماءهم إلى الاثني عشرية، ومنهم من يربط بين مذهبهم ومذهب الزيدية، لمزيد من التفاصيل أنظر دراسة الأستاذ الكتور محمود اسماعيل عن هذه الجماعة.

وقد ظن العالم القديم بأن الأرض مسطحة حتى أدخل العرب فكرة كرويتها إلى الأذهان ومن هذه الفكرة تشجع كولومبوس للسفر والمجازفة بالرحلة إلى غرب الأرض واجتياز بحر الظلمات، فقد قرأت الفكرة باللغة اللاتينية. وقد أكد الشريف الادريسي في كتابه "زهرة المشتاق" وبصورة الأرض التي رسمها وجسمها ذلك الرأي في وقت كان الغرب ينظر لمن قال هذا القول بأنه من الكافرين، فقد قال أحد رجال الكنيسة لاكتانيوس: "هل هذا من المعقول؟ أيعقل أن يجن الناس إلى هذا الحد فيدخل في عقولهم أن البلدان والأشجار تتدلى من الجانب الآخر من الأرض؟ وان أقدام الناس تعلو رؤوسهم؟".

وقد قام العلماء العرب بعدة رحلات لقياس قطر الأرض إضافة إلى دور الرصد التي كانت منتشرة في العالم الإسلامي، فقد كان في الشماسية دار للرصد وأخرى في جنديسابور والقاهرة وفي جبل قاسيون لمراقبة النجوم بدقة ولمقارنة النتائج بين هذه الدور. وقد قاس محمد بن موسى محيط الأرض في سنجار وفاقت هذه القياسات في الدقة ما قام به غيرهم حتى بطليموس، وقبل كولومبوس تخيّل الأصفهاني وجود عالم آخر في الجانب الثاني من الارض بقوله: "لا أمنع ان يكون ما انكشف عنه الماء من الأرض من جهتنا منكشفة من الجهة الأخرى، وإذا لم أمنع ان يكون به الحيوان والنبات والمعادن مثل ما عندنا أو من أنوع وأجناس أخرى".

إن هذا الرأس واضح بأن الاصفهاني يرى وجود ارض تقابل الأرض المعروفة في زمنه ولم يقف عند الحدس والتخمين انما حاول العرب الخروج من أرضهم التي يعيشون عليها لاعتقادهم بوجود ارض.

وقد أبحرت من لشبونة جماعة لمعرفة مكان النهاية من هذا البحر، فإنهم لم يعتقدوا بأن هذا البحر ليست له نهاية او ان الجن او الغيلان والمردة تسكنه كما يظن الغربي، فقد قال الادريسي: "اجتمع ثمانية رجال كلهم أبناء عم فأنشأوا مركباً وأدخلوا فيه الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر ثم دخلوا البحر". وقد وصف الادريسي المكان الذي حلّوا فيه بعد أحد عشر يوماً وذكر الصعاب والمشقات التي قابلتهم في طريقهم حتى وصلوا إلى جزيرة ترعى فيها الأغنام من دون راع، وبينما هم في استطلاعهم ألقى القبض عليهم رجال شعورهم شقراء منبسطة، وبعد أربعة أيام من إلقاء القبض عليهم دخل عليهم رجل يتكلم العربية وكان مترجم الملك، ولما قابلوا

الملك أخبروه بجلية أمرهم ورغبتهم في الاستكشاف فما كان منه إلا ان أمر بوضعهم في زورق وقد عُصبت عيونهم وأخذوا إلى جزيرة أخرى وقد تركوهم مُكتفين حتى جاءتهم جماعة من البربر فأنقذتهم(٢٣).

أما في الكيمياء والفيزياء فللمسلمين أثر واسع في تكوين الفكر الأوربي. وأبرز المسلمين أثراً هو "أبو علي الحسن بن الحسن (أو الحسين) بن الهيثم" المتوفي سنة ١٠٢٩م. وقد عرفه اللاتين باسم Albazen وبرز خصوصاً في علم البصريات، وأصله من البصرة ولكنه أقام طويلا في مصر. وقد ترجم إلى اللاتينية كتابه في "المناظر" أي البصريات بعنوان: Opticae thesaurus libri septem nunc primum editi Alhazeni Arabis. ونشره Risner Fried في بازل سنة ١٥٨٢ ويتضمن نظريات جيدة عن المرايا المستوية والمخروطية والأسطوانية والكروية والبيضاوية، وفي الانحراف والانكسار والإبصار، والغرفة المنظمة، وهو أول من استخدم الغرفة المظلمة لرصد الخسوف وقال أن الضوء خاصة جوهرية ذاتية لبعض الأجسام مثل الكواكب والنار والشموع والفحم المحترق، وصفة عرضية في الأجسام المعتمة أو الشفافة التي تعكس ضوء الأجسام الأخرى وقال أن الضوء ينبعث في خط مستقيم وفي كل الاتجاهات، ونقد نظرية القدماء التي كانت تقول أن الشعاع ينبعث من العين ويتجه إلى الشيء المرئي ثم يرتد إلى العين، واستبدل بها نظرية أخرى تقول أن الأجسام هي التي تبعث ضوءها الخاص أو المنعكس في كل اتجاه، وما تتلقاه العين هو الذي يجعلها تبصر.

وفي الكيمياء قام المسلمون باكتشافات هائلة من بينها: الماء الملكي، وحمض الكبريتيك، وحمض الأزوتيك، ونترات الفضة. والمسلمون في العمليات الكيميائية التي قاموا بها قد استطاعوا تحضير: حمض الزرنيخ، وأكسيد الزئبق، وأكسيد الحديد وأكسيد النحاس، وكبريتات النحاس، وكبريتات الزئبق، وحمض الكبريتيك، وحمض الكلورودريك وحمض الأزوتيك، والماء الملكي وكان عبارة عن حمض النوشادر محلولا في حمض الأزوتيك؛ كذلك حضروا: كربونات النوشادر، وملح النوشادر، وكلورور الذهب، ونترات الفضة، وكلورور الزئبق الذي حضره "جابر بن حيان" بغلي الزئبق مع الملح العادي والنترات والألومن. وأشهر الكيميائيين

٢٣- يوسف عز الدين، نفسه.

المسلمين الذين عرفتهم أوروبا هو من غير شك جابر بن حيان الذي كان يعيش في سنة ٧٧٦م.

وفي الطب قام الأطباء المسلمون باكتشافات بارزة جعلت دراسة الطب في أوروبا عيالاً عليهم لأكثر من أربعة قرون. فبخلاف ما نقله المسلمون عن الأطباء اليونان، اكتشف المسلمون عدة اكتشافات بالغة الأهمية: منها الجرب الذي اكتشف جرثومته الطفيلية "ابنُ زهر". والمسلمون وضعوا قواعد التشخيص معتمدين على النبض والبول. وبذلوا مجهودات عظيمة في اكتشاف ما سموه باسم الأسباب والعلامات، أي أسباب الأمراض وأعراضها؛ كما عنوا بدراسة أنظمة الطعام وأضافوا الكثير إلى الفارما كوبيا مستعينين بأبحاث علماء النبات. كما كان لهم الفضل في إنشاء وتنظيم المستشفيات العامة التي كان المرضى يعالجون فيها مجاناً على حساب الدولة، وفي بعض المدن أنشأوا وظيفة كبير الأطباء أو مقدم الأطباء، وكانوا يطلقون عليه في البداية إسما سريانياً هو "اعورا" أي مقدم الأطباء.

وانتقل الطب الإسلامى مبكراً إلى أوروبا، فانشئت مدارس للطب في "مونبليه" و"رانس" و"بولونيا" و"بادوا" و"أورليان" و"نابلي" و"اكسفورد" و"كمبردج" و"انجيه"، وكلها كانت تستخدم الكتب العربية المترجمة إلى اللاتينية أساسا لتدريس الطب.

والطبيب المسلم الذي يبرز أسمه في الحال هنا هو "محمد بن زكريا الرازي"[٢٤] والذي توفي سنة ٩٢٣م. فكتابه "الحاوي" هو دائرة معارف طبية كبرى، وقد ترجم إلى اللاتينية بعنوان dictus Elhavi Liber وطبعت الترجمة اللاتينية في برشيا سنة ١٤٨٦م. وهذا الكتاب يتضمن آراء جديدة طريفة عن: الحميات والفتق والحجامة وأعصاب وعضلات منطقة الحنجرة. وكتابه "المنصوري" ترجم أيضا، وطبع سنة ١٤٨١، وكذلك رسالة صغيرة عن الجدري والحصبة وصفهما وشخصهما لأول مرة بدقة وأصالة.

ويأتي بعده في التأثير وأن كان أقل منه أصالة: "أبو علي ابن سينا" المتوفي سنة ١٠٣٧م. فكتابه: "القانون في الطب" إلى جانب "الحاوي" للرازي و"الملكي" لعلي بن

٢٤- ولد الرازى سنة ٨٢٥ م وتوفى ٩٢٦م، ويعد إمام الطب العربي الإسلامي بلا منازع، لقب بجاليوس العرب وقد ترجمت اعماله إلى اللاتينية والألمانية والفرنسية والإنكليزية مرات عديدة ويقال أن رسالته فى الجدرى والحصبة طبعت بالإنكليزية وحدها أربعين مرة بين أعوام ١٤٩٨-١٨٦٦.

العباس كان عمدة الدراسة الطبية لستة قرون في مدارس أوروبا الطبية. وفي الكتاب ملاحظات أصيلة عن الالتهاب الرئوي وعدوى السل، وفيه حوالي ٧٦٠ دواء وقد ترجمه إلى اللاتينية "جيريردو الكريموني"؛ وطبعت الترجمة اللاتينية عشرات الطبعات. أما النص العربي فنشر لأول مرة في روما سنة ١٥٩٣.

كذلك نذكر "أبا القاسم خلف بن عباس الزهراوي" الذي ترجم كتابه "التصريف" إلى اللاتينية وطبع عشرات الطبعات، وهو أول كتاب تفرد فيه الجراحة علماً مستقلاً قائماً على معرفة التشريح. و"أبو القاسم الزهراوي" هو أول من أجرى عملية إزالة حصوة المثانة في النساء.

وكان المأمون (الخليفة العالم) يبحث عن الأطباء ويقربهم اليه، وأجزل لهم العطاء، بغض النظر عن دينهم[٢٥] .

وقد عاش الغرب على الكتب العربية في الطب حتى القرن الخامس عشر، فقد كانت كتب الرازي وابن سينا والزهراوي منهل العلم والأطباء لقرون طويلة وترجمت إلى عدة لغات. إما رسالة الرازي في الجدري، فقد تُرجمت إلى اللاتينية في مدينة البندقية سنة ١٥٦٥ ومنها تُرجمت إلى اللغات الغربية الأخرى، واعتمد الطبيب المغربي بخلاصة علمه في الطب على كتاب "الحاوي" للرازي الذي تُرجم إلى اللاتينية سنة ١٧٢٩م وذكر أحمد بديع المغربي بأن صورة الرازي ما تزال معلّقة في كلية الطب في باريس ومع صورة الرازي في الكلية نفسها صورة ابن سينا صاحب كتاب "الشفاء" الذي صنف في مختلف العلوم والفنون ومنها "القانون في الطب" والصحة والصيدلة ووظائف الأعضاء والعلاج (٢). وبقي كتاب ابن سينا هذا يستفيد منه الغرب حتى القرن السابع عشر وربما لم يدرس كتاب في الطب على مر العصور كما درس هذا الكتاب، وقد بلغ الطب الإسلامى عن طريق ابن سينا عميد الأطباء مرحلة عالية (٣) وقد طبع القانون في الطب عدة طبعات وترجم جزء منه إلى الإنكليزية وقد قال عنه اوسلر Osler في كتابه تطور الطب الحديث "ان كتاب ابن سينا بقي إنجيل الطب، وكان الزهراوي الجراح الكبير صاحب "التصريف لمن عجز عن التأليف" مخلصاً لعلمه متقناً لمهنته، وبارعاً في طبه، وقد قال عنه الدكتور عبد اللطيف البدري"بأن معلوماته ووسائله وآلاته أساس

٢٥- جان شارل سوريا: تاريخ الطب، ترجمة إبراهيم البجلاتي، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٢٨١، مايو ٢٠٠٢، ص ٨٦.

الجـراحة الحديثة، وهو أول من فصل الجراحة عن الطب الباطني، وأول من خاط الأعضــاء بخـيوط مصنوعة من الأمعاء، وأول من بتر رباطين وأول من أوصى بجعل الأطراف السفلى اعلى من الرأس عند إجراء العمليات في البطن[٢٦] .

ومــن تتـبع علـم الطب يقف مدهوشاً من تقدمه على يد العرب في استعمال الكاويات وتفتيت الحصاة في المرارة وضرورة ترشيح الأحياء، وقد وصلتنا صور الآلات الجراحــية الدقيقة التي استخدمها العرب وطوروها حسب مقتضى المرض والعــلاج، وخصــت كل آلة بعمل وفي مقالة الزميل الدكتور البدري أشياء طريفة عــن الآلات الجراحية من مجارد ومشارط ومكاسب ومباضع، أعدت من مختلف المعــادن، ويكفــي العــرب فخــراً ما بقي من الأسماء الطبية في اللغات الغربية كــالكحول والصــداع Soda وقد سجل الأستاذ ويسلر في كتابه الحضارة العربية الكلمات العربية التي دخلت اللغات الأجنبية.

وللعــرب فضل على الطب باستعمالهم المخدر عند إجراء العمليات الجراحية، ولا تختلف أساليب فحص المريض عن أساليب العصر الحديث، وقد علّموا الغرب التعقيم الذي تركوه ثم عادوا إليه بعد ذلك. وقد فكّر الرازي بالمرضى الذين يشكون مــن حساســية مــرهفة ويعجزون عن تناول الأدوية، فغلف حبوب الدواء بالسكر ومــزج الأدويـــة بعصــير الفاكهة والعسل. وقد كان العرب يستعملون التلقيح ضد الجـدري مــنذ العصور القديمة عن طريق فتح جرح في المكان البض الكائن بين الإبهام والسبابة، فقد ذكر ويسلر وهونكه ان ابن رشد "اكتشف المناعة التي يتركها داء الجــدري الاســود لــدى أصابته الآدمي مدى الحياة، بينما يصدر الإمبراطور ماكســيمليان بــأن الجدري وسيلة من وسيلة وسائل الله لتهذيب البشر وعن طريقه تعرف عذاب الله ومن لا يؤمنون بهذا فهم كفار" ولم يدخل التطعيم ضد الجدري إلا فــي القرن الثامن عشر في أوروبا متتبعاً الأسلوب العربي نفسه الذي تبعه العرب قبل مئتي سنة بالتلقيح بواسطة الجراثيم الضعيفة وخلق المناعة صناعياً.

وقد بقيت رسالة الرازي في الحصبة مرجعاً للغرب فقد كتبها بملاحظات دقيقة عــن المــرض وتطوره وهو الذي فرّق بين مرض النقرس الذي يصيب الأطراف وبين الروماتيزم.

٢٦- يوسف عز الدين: المرجع السابق.

وبالــرغم مــن ان اكتشاف الميكروبات والجراثيم لم يتم إلا متأخراً فقد عرف العــرب بــأن العدوى تأتي من التراب والماء والملابس ورأى الطبيب العربي بأن العــدوى تنــتقل مــن المريض إلى السليم ولما نشر محمد بن الخطيب رسالته في الطــاعون، أظهر أثر العدوى في انتشار الطاعون التي تأتي من ملابس المريض ومــن فضلاته وأدواته التي يستعملها ونادى بضرورة الحجر الصحي على الغرباء الذين يفدون من المناطق الموبؤة.

في الوقت الذي يظن الغربي بأن الطاعون يأتي من التقاء الكواكب، ومن يقف مباشــرة فــي محــيط تأثيرها يقع صريعاً في براثن الطاعون المميت فهو نتيجة الأجــرام السماوية وهو ناتج من غضب الله وليس لديهم من مكافحة لهذا المرض غــير إقامة الصلوات ونشر البخور (والطريف ان أستاذا في جامعة مونبيليه خرج عام ١٣٤٨ – وهو عام انتشار الطاعون انتشاراً فاحشاً ومخيفاً – بنظرية تقول ان المــريض هو المسؤول عن انتشار الطاعون وبالتالي فقد نصح الطبيب أو الكاهن ان يطلــبا مــن المــريض إغمــاض عينيه ووضع خرقة عليها قبل ان يعمدا إلى معاينــته. وهــي الســنة التي أخذ الطبيب العربي ابن الخطيب يذكر أساليب انتقال المرض ويرد على المعترضين قائلاً: "لقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والحس والمشاهدة والأخبار المتواردة، هذه مواد البرهان ثم انه غير خفي على من نظــر فــي هــذا الامــر ان من يخالط المصاب بهذا المرض يهلك، ويسلم من لا يخالطــه". وقــد مــنع النبي صلى الله عليه وسلم انتشار العدوى بقوله: "إذا دخل الطــاعون بلدة فلا تدخلوها، وإن حلّ فيها فلا تخرجوا منها حتى لا تنتشر العدوى بين الناس".

وكــان الأطباء المسلمون يشخصون الأمراض ويفحصون بول المريض بدقة ويســألون عــن عاداته والأمراض التي أصابته وحالة أسرته الصحية ومناخ بلاده وتظهر دقة ملاحظتهم بعد ذلك.

ومــن الطــريف أن يذكر الباحث ويسلر قصيدة المتنبي في الحمى ويقف عند بيته:

إذا مــــا فارقنــــي غســــلتي *** كانـــا عاكفـــان علـــى حـــرام
كان الصبــح يطردهــا فتجــري *** مدامــــتها بأربعــــة ســــجام

ويعلق بأنه سبق موليير بثمانية قرون في وصفه الحمى شعراً.

دور المشافي والعزل :

وهـل تنسى البشرية المؤسسات الطبية الكبيرة التي أنشأناها لرعاية المرضى في إرجاء المعمورة فلا تكاد حاضرة تخلو من مستشفى مثل بغداد والقاهرة وتونس ومـراكش والـرباط وأرجاء الأندلس وتنظيم هذه المشافي والسير بها على أساليب علمـية وطبية وادارية دقيقة والعمل على مداواة المرضى ومعالجتهم بنظام ممتاز وتخصـيص لكـل مـرض مستشـفى خاص به وعزل المرضى بأمراض سارية بمؤسسـة خاصـة بهـم لحمايـة السليم وتركيز التداوي ووضع مستشفى خاص بالمصـابين بالأمـراض العقلية وأخرى للمجزومين والعميان والأيتام والنساء، ولم تقتصـر المستشـفيات علـى البناية المستقرة فقد كانت هناك وحدات متنقلة تداوي المرضى وتعطيهم الأدوية والعقاقير اللازمة لكل مرض.

ولكـل مستشـفى أقسام متنوعة وقاعات معدّة لأنواع الأمراض، امتازت كل قاعـة أو جناح بالدقة في التنظيم والنظافة والإتقان بالعمل، وقد كان كل المرضى مـن الأغنـياء أو الفقـراء يُعَالجون من دون مقابل، ويعطى للمريض الذي يترك المستشفى مبلغاً من المال يعينه على حياته الجديدة، وكانت المشافي مضرب المثل بالرفاهـية وحسـن العـناية وكـريم الرعاية ومن طريف ما أوردت هونكه: "ان المـريض كان يريد ان يبقى اكبر وقت ممكن في المستشفى، بل كان السليم يشتاق ان يـنام فيها # ٠٢٣٦ وإن رجلاً نبيلاً من نبلاء فارس جاء مرة لزيارة مستشفى الـنوري في دمشق، وكانت له دوماً شهوة قوية ومتجددة للأكل، ولدى زيارته هذه فاحـت رائحـة الشـواء أمامه فملأت منخريه وسال لعابه، وود في ذات نفسه ان يصـبح بأسـرع ما يمكن مريضاً عليلاً، فدخل المستشفى وأنينه يملأ الجو فعاينه الطبيـب طويلاً من دون ان يجد فيه علّة، فطرح عليه بعض الأسئلة وأيقن انه أمام جشع نهم علته في بطنه، فلم يقل له اي كلمة إنما حوله إلى قسم الأمراض الباطنية ووصـف له الطبيب هناك شيئاً من العسل مع كبد الطيور والكمأ المقلي وقليلاً من المربـيات والليمون وكل أنواع الحلوى المسيلة للعاب، وذلك مرتين في اليوم، ولم تكـد تمضـي ثلاثة أيام حتى ضَعُفت مقاومة المريض وأصبحت معدته في خطر، عـندئذ قال له الطبيب: لقد تمتعت يا صاحبي بالضيافة العربية أياماً ثلاثة، فاذهب الآن في سلام الله".

وقد كانت الجراحة متقدمة، فقد أجرى الجراح العربي عدة عمليات ناجحة في الوقـت الـذي كانـت أوروبا تنظر للجراح بأنه نحس لأن الجراحة كان يزاولها الطبيـب والقصـاب (الجزار). ومن الطريف ان يستعمل الطب العربي الشحنات الكهربائـية لمعالجة المرضى في الوقت الذي لم يكن أديسون قد اكتشف الكهرباء، فـإن إبـن سـينا استخدم السمك الرعاد "الكهربائي" في مداوة الصراع والأمراض العصبية، (بواسطة وضع السمك في الماء حتى يبقى حياً) لأنه اكتشف انه اذا مات فقد هذه الخاصية الكهربية.

وبقيـت كتـب الطب الإسلامي تدرس في الجامعة الغربية، ومن الطريف ان مكتـبة كلـية الطـب فـي جامعة باريس لم يكن فيها غير كتاب واحد، هو كتاب "الحاوي" للرازي، فقد حدثنا الدكتور شاكر مصطفى وهونكه بأن الكتاب كان مقيّداً بسلسـلة ضـخمة كيلا يسرق، فلما أراد ملك المسيحية الشهير لويس الحادي عشر اسـتعارته للاسـتفادة مـنه في معالجته هو وأسرته، وان تنسخ منه نسخة، عودل بكمـيات من الذهب والفضة من العملات الرائجة آنذاك. وقد اعترف أهل باريس بقـيمة هذا الكنز أو بفضل صاحبه عليهم وعلى الطب إجمالاً، فأقاموا له تمثالاً في باحة القاعة الكبيرة في مدرسة الطب إضافة إلى تعليق صورته وصور الرازي في إحدى قاعاتها الأخرى في شارع سان جرمان.

ان كتـب ابـن سينا وابي إسحاق والزهراوي والرازي وابن زهر وحنين بن إسـحاق هـي المراجع التي اعتمد عليها العالم في تدريس الطب والانتفاع بها، فقد اصـبح كـتاب "القـانون" لإبـن سينا وحي الغرب في الطب وقانونهم في العمل وإنجيلهم في صدقه فقد امتاز بالمنهج العلمي حتى تفوق على غالينوس.

وقـد حـرّر العرب الطب من الخرافات والصلوات والبخور ومن قيود رجال الدين في الغرب، وفتحو أمام الفكر الغربي مغاليق الحياة وأبواب التطور والتقدم.

فقـد كان "القانون" من أول الكتب التي اعتمدوا عليها في بدء النهضة الغربية الحديثة، فقد ظهر في ميلانو مُترجماً سنة ١٤٧٩م وطبع بعد سنين مع المنصوري والحـاوي والكلـيات وايسـاغوجي حنين بن اسحق، والملكي (أو كمال الصناعة) الطبـية لعلي بن العباس سنة ١٥٠٠م، وقد طُبع "القانون" ست عشرة مرة ووصلت العشـرين طـبعة حـتى القرن السابع عشر مع شروح وتعليقات كثيرة. وقد كان الكـتاب "الملكي" شاملاً لعلوم الطب وكان خير هدية مُنحت لأطباء العالم ولم يسبق

ان احتفى به الأطباء من قبل وأعطى الزهراوي الأندلس "التصرف لمن عجز عن التأليف" خلاصة تجارية في الجراحة فهو الذي اسس الجراحة في الغرب وبقي من أهم مراجع الأطباء في الجراحة وآخر طباعته سنة ١٧٧٨ في اكسفورد.

أما ابن زهر الاشبيلي فقد ألف "التيسير في المداواة والتدبير" وضاهى الرازي في مكانته وفضله. أما ابن رشد فله كتاب "الكليات في الطب"، وكتب حنين بن اسحق، وكتاب "الاصول" لإبن رضوان وكان ابن رضوان طبيباً مصرياً مشهوراً بأعماله في الطب الوقائي[٢٧] ، "تقويم الأبدان" ولإبن جزلة كتابه في الأمراض و"تقويم الصحاح" لإبن بطلان في اثر المناخ والتغذية والحركة والنوم و"زاد المسافر" عن أسباب المرض لإبن الجزار القيرواني.

ومن طرائف الكتب ان أحد علماء الغرب الدكتور هارتمان شيدل كان كلف بالكتاب "الملكي" لعلي بن العباس ولم يكن يقدر الحصول عليه في نورنبرغ. وشاءت الصدف ان يخبره في سنة ١٤٩٣م الشاب هولز شوهر بالحصول على نسخة من الكتاب فكان مسروراً به، فقد حصل عليه مُترجماً إلى اللاتينية ومطبوعاً في البندقية وأخبر صديقاً له كان أشد إعجاباً بالكتاب هو مونتسر فكان فرحاً شديداً، وكان تقديره للشاب كبيراً حتى زوّجه ابنته الوحيدة دوروثيا، وقد خلّد هذه القصة الرسّام دور بلوحة من رسمه وقد أصبح الزوج عمدة نورنبرغ فيما بعد.

وحديث الدورة الدموية التي باهى الغرب بأن مكتشفها وليم هارفي قد تبدل عندما اعترف أبناء الغرب أنفسهم ومنهم الكاتبة الفاضلة هونكه (ان أول من نفذ بصره إلى أخطاء غالينوس، وجاء نقدها بنظرية الدورة الدموية لم يكن سارفيتوس الأسباني ولا هارف الإنكليزى، بل رجلاً عربياً أصيلاً من القرن الثالث عشر الميلادي، هو ابن النفيس[٢٨] اكتشفها قبل هارفي بأربعة قرون. وقد كان رجال

٢٧- هوارد تيرنر: العلوم عند المسلمين، ترجمة فتح الله الشيخ، المجلس الأعلى للثقافة٢٠٠٤، المشروع القومي للترجمة، عدد ٦٤٤، ص ١٤٧.

٢٨- ابن النفيس: ولد في دمشق سنة ١٢١٠ م ويقال أنه توفى ١٢٨٨ أو ١٢٩٦، وكان رئيساً لأطباء البيمارستان الناصرى بمصر، ووضع كتاباً مهماً شرح فيه قانون لابن سينا يحمل اسم شرح تشريح القانون الذى ترجم الى اللاتينية سنة ١٥٤٧ م وقد ظل هذا الكتاب منسياً لما يقرب من ثلاثة قرون حتى اكتشفه سنة ١٩٢٤ م طبيب مصرى (محي الدين التطاوى وكان يعد لرسالة الدكتوراة فى جامعة فرايبورج الألمانية، وفى هذا الكتاب شرح ابن النفيس الدورة الدموية الصغرى وبعد ترجمة هذا الكتاب الى اللاتينية بست سنوات أصدر الأسبانى ميشيل سرفية (سريافتوس) كتابة إعادة المسيحية ناقلاً فيه عن ابن النفيس دون الإشارة إليه وقدم اعدم ميشيل سرفية حرقاً بسبب هذا الكتاب.

الغـــرب يمنعون مرضاهم من الاستفادة من الطب العربي والأطباء العرب الكفار، غـــير ان الشــــعب كان يفضّل الذهاب إلى جانب الأعداء للتداوي على رغم زجر الكهنة لهم وتحريم الكنيسة، فلم يكن ينفع في هذا المجال لا وعيد ولا تهديد، وكثيراً مـــا ردد رجـــال الكنيسة على أسماع الناس كلمات بهذا المعنى: تحت ستار طبهم وعلاجهـــم للجـــروح وعقاقيرهم، يخبّئ أطباء الكفر للمسيحيين خبثاً ومكراً لإلحاق الضرر بهم وقتلهم غيلة.

وقـــد حاول الغربيون تجاهل الأمر ولكن الحقيقة غلبت، وبدأ الغرب الاهتمام وترجمـــت آثار الطب، ولم تجر أول عملية جراحية إلا بعد وفاة ابن النفيس بمئتي ســـنة الـــذي اعـــتمد علـــى الملاحظة الفردية والدقة العلمية وقد ناقشها الدكتور غليونجي في كتابه "ابن النفيس" وقارن بين نظريته والرأي السائد قبله عند ابن سينا وغالينوس وانه "اهتدى إلى العلم بأن اتجاه الدم ثابت وانه يمر من التجويف الأيمن إلى الرئة حيث يخالط الهواء ومن الرئة عن طريق الشريان الوريدي إلى التجويف الأيسر" ولم يبعد ابن النفيس كثيراً عن الحقيقة عندما قال ان الدم يمر في مسام بين العرقين او من منافذ محسوسة هي بمثابة الأوعية الشعرية. وهذا الرأي قال به قبل اكتشـــاف العدســـة المكـــبّرة وقبل ان يتحدث مالبيجي عن الأوعية الشعرية. وفي الفهرست وطبقات الأطباء لأبن أبى اصيبعة أخبار عن الأطباء كثيرة.

وهكـــذا كـــان تقدم الطب في البلاد الإسلامية يأتي إليها المرضى من الغرب، وقـــد انعكست الآية فأنتم اليوم تأتون إلى بريطانيا للتداوي واستشارة أطباء الغرب في أمراضكم[٢٩] .

اما الآداب فقد أفردت كتاباً عن اثر الأدب العربي في الأدب الغربي وبخاصة الأدب الإنكليزي الذي هو إبداع عربي خاص لا يحمل حضارات الأمم السابقة لانه فـــن عربـــي أصـــيل فـــيه صدق المشاعر وعميق الإحساس ورقة البناء والصور الصادقة لحياته ولمجتمعه. الحق ان الغرب لم يقبل على أدبنا بادئ الأمر لاختلاف المشـــاعر والمحـــيط والأصـــول التاريخـــية والنفسية ولكن بعد ان كثر التعريب والـــترجمة أخذ الأديب الغربي يتذوق هذا الأدب وبخاصة من أولئك الذين اتصلوا بالحضـــارة العربية، فانتقل الأدب بصورة واضحة عن طريق الأندلس، كما اثرت

٢٩- نفسه.

صقلية في سريان الذوق العربي في الغرب. ومن آثار هذا تأثر التروبادور بالأدب العربي كما تقول سهير القلماوي ان الشعر الغنائي الأسباني القديم ربيب الأندلسيين المسلمين وهو المورد الذي استفاد منه الفرنسيون ومنه تنوعت أنواع الشعر في الغرب ومن الطريف ان الباحثين كانوا يشكون في ما ادعاه ربيرا حتى جاءت المفاجأة سنة ١٩١٢ عندما قال بوجود شعر غنائي مكتوب باللغة اللاتينية الدارجة في الأندلس الأسبانية واعتمد على نصوص وموشحات أكدت بأن أوروبا قلّدت شعر الوشاحين والزجالين الذين سبقوهم بقرنين واكد ذلك نيك لما طبع ديوان ابن قرحان بالحروف اللاتينية وكتب يؤد الحجج التي ذهب اليها ربيرا وزاد الأمر تأكيداً المستشرق الانكليزي ستيرن وقد ذكرت الدكتورة سهير القلماوي الحجج كلها وأكدت الرأي بالأمثلة (أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية) ومن الآثار التي يذكر ويسلرر ملحمة رولان التي ظهرت سنة ١٠٨٠ والتي تمثل اثراً أدبيا بدائياً غربياً مدينة بوجودها لاحتكام الأندلس بالعرب عبر جبال الأندلس.

ويقول: وبوساطة أسبانيا الإسلامية خضع بوكاسيو جوسر وكثير من المؤلفين القصصيين الألمان للتأثير العربي وهي التي أوحت بأعظم أشعار تنسون Tenyson وبراونك والكوميديا الإلهية لدانتي المدينة للفيلسوف المتصوف ابن العربي في القرن الثالث عشر وهذا الشعر الخالد من جهة أخرى مليء بالأوصاف العربية في النصول التي تحكي الرحلة عبر ملكوت السماء والجحيم (١٦٥-١٦٦) وقصص الغرب مشحون قبل هذا ومن درس الفرنسية والإنكليزية يعرف ذلك في مجموعة الفونسو وفيها عدد كبير من الحكايا العربية التي اربت على الثلاثين وأكثرها متأثر بألف ليلة وليلة ولعلها اثرت هي وكليلة ودمنة وقصص السندباد عندما ترجمت إلى لغات الغرب.

وقد أثرت كليلة ودمنة في لافونتين بتقليد ماهر واصبح هذا الكتاب شعبياً في القرن الرابع عشر حتى اضطر أحد الأساقفة ان يهاجم المسيحيين الذين يقرأون هذا الكتاب لأنه خطر يهدد الكاثوليك. ونعرف ان بوكاسيو قد تأثر في الأدب العربي بما عرفه من الأدب العربي وبما آلف من قصص ووضح أثر الأدب العربي في ديكامرون.

ومن دراسة واسعة ومعمقة نجد ان أهم عناصر النهضة الفكرية والأدبية تأثرت بالأدب العربي ومن اشهر الشعراء في الغرب الذي اعجب بالعرب وادبهم:

قــرأ غوتــه الشاعر الألمانى الكبير القرآن الكريم في ترجمة ألمانية ولاتينية ودقق في دراسته واستشهد بالقرآن في ادبه منها:

"بَلَــى مَنْ أَسْلَمَ وجْهَهُ لِلَّهِ وهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ" (البقرية آية ١١٢)

"ولِلَّــهِ المَشْــرِقُ والْمَغْــرِبُ فَأَيْــنَمَا تُوَلُّــوا فَثَمَّ وجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِيمٌ" (البقرة آية ١١٥)

ويقــول ان القــرآن الكــريم يرد تعاليم الدين ويكرر البشر والنذير سورة بعد سورة ويرى في التكرار والترديد ما لا يراه النقاد في الغرب لانه لم يرسل برسالة شــاعر للتغنــي بــالقول والتنويع في ضروب الكلام وعرض الصور المزوقة من الأخــيلة والأوهام لاستحداث اللذة وإدخال الطرب وانما محمد نبي مرسل لغرض مقــدر مرســوم يــتوخى إلــيه ربط وسيلة واقوم طريق وهذا الغرض هو إعلان الشريعة وجمع الأمم حولها لينضووا تحت لوائه(٣٠) .

نتاجات قصصية إسلامية أثرت في الأدب الغربي(٣١) :

مــن التأثــيرات الــبالغة العمــق في الأدب الأوربي الحديث تأثير القصص الإســلامي، وكان انتقالها إلى أوروبا إما شفاها، وإما كتابة. أما شفاهاً فكان نتيجة حركة التبادل التجاري النشيطة كل النشاط على مسرح البحر الأبيض المتوسط بين شــواطئه الشــمالية في أوروبا وشواطئه الجنوبية في العالم العربي والإسلامي. إذ كانــت أســاطيل البندقــية ولوقــا وجــنوة وبيزا دائبة الإبحار إلى سواحل سوريا والإسكندرية وتونس والجزائر وآسيا الصغرى، ثم في إبان الحروب الصليبية حين كــان الأسرى تتبادلهم الأطراف المتنازعة، ومنهم من بقي حيث رحل أسيراً سواء فــي العــالم الإسلامي وفي أوروبا، وكان لهؤلاء دورهم في هذا التبادل الشفاهي للأخــبار والقصص. أضف إلى ذلك توغل العثمانيين في أوروبا حتى استولوا على المجــر بعد معركة موها كس سنة ١٥٢٦ وحاصروا فينا بعد ذلك بثلاث سنوات، وتوالــت هجمــاتهم فــي اتجاهها إلى أن كان حصارهم الأخير لها بقيادة الوزير الأعظم قره مصطفى سنة ١٦٨٣. وامتدت سيطرة العثمانيين على دول البلقان عدة

٣٠- نفسه.

٣١- أنظر عبد الرحمن بدوي، دور العرب.

قرون، مما بث الكثير من الأدب الإسلامي في هذه البلاد. أما كتابةً فقد تم الانتقال بترجمة قصص أو كتب أمثال وحكايات إلى اللغات الأوروبية الحديثة. وأهمها على الترتيب التاريخي:

١- كتاب كليلة ودمنة، الذي ترجم إلى الأسبانية سنة ١٢٥١م، ثم إلى اللاتينية عن الترجمة العبرية التي قام بها ربى يوئل. وذلك في الترجمة التي قام بها يوهانس دى كبوا اليهودي المتنصر في سنة ١٢٦٣-١٢٧٨ بعنوان "المرشد إلى الحياة الإنسانية" ومن ثم انتشرت في أوروبا انتشاراً واسعاً.

٢- ورحلات السندباد ترجمت إلى العبرية بعنوان "مشليه سندباد" وانتشرت في أوروبا بعنوان: "الرؤساء الحكماء السبعة" وقد ترجمت إلى اللاتينية ترجمة لا تزال محفوظة في العديد من المخطوطات، وقد نشرها هلكا Hilka.

٣- ثم قام بطرس ألفونسو في أوائل الثاني عشر الميلادي بترجمة مجموعة من القصص العربية وضمنها كتابه "تعليم الكتاب" باللاتينية، ويتضمن أربعاً وثلاثين قصة، أصبحت فيما بعد تدرج في كتب القصص اللطيف في أوروبا كلها. وقد ثبت من بحث الباحثين أن ثلث هذه القصص مترجم عن العربية، وجامعها نفسه بطرس ألفونسو يقرر أنه استمد شطراً منها من العربية لكنه لم يحدده. فقام الباحثون بتحديد ذلك. فجوزف بديه اهتدى إلى الأصول العربية لأربع منها: "حكاية الصديق غير الصدوق"، و"حكاية صاحب الكروم"، و"حكاية الكلبة الباكية"، و"الفلاح والطائر". وجاء باسيه في كتاب حافل بعنوان "ألف قصة وحكاية وأسطورة" (في ثلاثة أجزاء سنة ١٩٢٤-١٩٢٧)، فأرجع عدداً كبيراً من قصص "تعليم الكتاب" هذا إلى أصول عربية، وهي "الشاعر"، "الأحدب" "الينبوع"، "الأعمى وزوجته ومنافسه"، "الصناديق العشرة"، "كيس النقود المفقود"، "اللص وضوء القمر".

وقصة الكلبة الباكية خلاصتها أن عجوزاً أقنعت سيدة كريمة أن كلبتها - وكانت تجعلها تبكي بواسطة فطائر محشوة بتوابل حريفة - إن هي إلا بنتها وقد تحولت إلى كلبة لأنها هجرت حبيبها. واعتقدت السيدة صدق ذلك. وقد ترجم هذه القصة اشتيهوفل (المتوفى حوالي سنة ١٤٨٢) وباولي (المتوفى حوالي سنة ١٥٣٠)، وجاء الشاعر الألماني هانز ساكس (١٤٩٤-١٥٧٦) فوضع قصة على قالبها.

٤- وفي القرن الرابع عشر في أسبانيا وضع خوان مانويل (١٢٨٢-١٣٤٩) ابن أخي ألفونسو الحكيم مجموعة من القصص القصيرة بعنوان "كتاب بترونيو أو كوند لوكانور" الذي فرغ منه في سنة ١٣٣٥، وصلة الوصل بينها هي شخصية لوكانور، وهو كونت شاب غير مجرب، ثم معلمه بترونيو الذي كان يلقى بالشكوك، ويقوم هذا بحلها بواسطة حكاية قصيرة. والحكايات، وعدتها أربع وخمسون، متنوعة أشد التنوع، ومصادرها عديدة، وصار لها فيما بعد تأثير واسع، ليس فقط في الأدب الأسباني، بل الأوروبي كله، خصوصاً عند بوكاتشيو في "الديكاميرون" (العشرة أيام) الذي بدأ تأليف قصصه سنة ١٣٤٨. والأثر الإسلامي في هذه المجموعة واضح جداً حتى في اسم الكونت وهو "لوكانور"، إذ أن هذا الاسم تحريف لاسم "لقمان" الحكيم الذي تنسب إليه حكايات عديدة جداً في الأدب القصصي العربي. ومن بين الحكايات المأخوذة عن العربية فيها حكاية "التاجر الذي عاد من الغربة" وتتضمن مغزى حكاية عطيل، الذي استوحاها شكسبير فيما بعد في مسرحية "عطيل" المشهورة. غير أنه يلاحظ أن خوان مانويل كان ينهى الحكايات بنهايات سعيدة، في حين أن أصولها العربية كانت تنتهي بخواتم فاجعة.

٥- وهناك مجموعة أخرى بعنوان "أعمال الرومان" لا يعرف لها جامع ولا مكان تأليف، على وجه التحقيق. والكثير من الحكايات والأساطير الواردة بها من أصل عربي: من "كليلة ودمنة" ومن حكايات أصلها عربي في مجموعة "تعليم الكتاب" الذي أشرنا إليه من قبل.

٦- وفي إيطاليا إلى جانب الأصول العربية للقصص الواردة في "الديكاميرون" لبوكاتشيو، والتي لم تنل حتى الآن حظها من عناية الباحثين، نجد أولاً مجموعة قصصية عنوانها "الليالي الممتعة" من تصنيف استربرولا وفيها مشابه عديدة مع قصص عربية، خصوصاً قصص "ألف ليلة وليلة". كذلك ألف بازيل مجموعة قصص بعنوان "الأيام الخمسة" فيها يروى قصصاً كانت تتناقل شفاهاً في إقليم نابلي وأخرى في أقريطش، وهي قصص تركية الأصول، وهذه بدورها عربية الأصل. وبعض الأساطير التي حيكت حول الكبار الملوك في أوروبا ترجع في تركيبها إلى أصول إسلامية. ونذكر هنا مثالين. الأول الأسطورة التي حيكت حول الإمبراطور فردريك الثاني، ملك

صقلية، وخلاصتها أنه لم يمت، بل هو ينعس في جبل أتنا، والذي يوجد في البركان المشهور. وهذه الحكاية مأخوذة عن اعتقاد فرقة الكيسانية التي تزعم أن محمد بن الحنفية، "حي بجبال رضوى، أسد عن يمينه، ونمر عن شماله، يحفظانه، يأتيه رزقه غدوة وعشية إلى وقت خروجه" (مقالات الإسلاميين للأشعرى، جـ١ ص٩٠، القاهرة سنة ١٩٥٠) وفيه يقول الشاعر كثير صاحب عزة:

وسبط لا يذوق الموت حتى *** يقود الخيل يقدمها اللواء

تغيب لا يرى فيهم زمانا *** برضوى، عنده عسل وماء

والثاني هو فردريك الأكبر والأسطورة التي صيغت حول ما جرى له مع صاحب طاحونة سان سوسي. فقد ثبت من البحث الذي قام به ل. شنيدر أن الحكاية المشهورة التي تقول إن فريدريك الأكبر ملك بروسيا في القرن الثامن عشر لما أراد أن يبني قصره المشهور في بوتسدام سنة ١٧٤٥ وجد في المكان الذي عنده سيبني القصر طاحونة. فأراد شراءها وهدمها ليوسع في المكان. فرفض صاحبها الطحان جريفنتس ولم يستطع الإمبراطور الاستيلاء عليها عنوة – نقول إن شنيدر أثبت أن الواقع لم يكن كذلك. وإنما الصحيح هو أن الطحان لم يرث الطاحونة عن أجداده، وإنما بنى الطاحونة قبل البدء في بناء قصر الإمبراطور بوقت قصير، ولما تم بناء القصر رأى الطحان أن ينقل الطاحونة من مكانها لأن القصر حجب عنها الرياح وهي تدار بالرياح، فهو إذن صاحب المصلحة في نقلها لا الإمبراطور الذي كان على العكس من ذلك يريد الإبقاء عليها تزيينا للمنظر المحيط بالقصر.

ولكن الأسطورة التي تألفت حول هذا الموضوع صورت الأمر بخلاف ذلك لتدل على المغزى المقصود وهو العدالة وأنها فوق الحكام والأباطرة مهما علا سلطانهم. والأسطورة بهذه الصورة أصلها شرقي. إذ تروى الكتب الإسلامية حكاية مماثلة تماماً عن كسرى انوشروان وبيت امرأة عجوز ملاصق لقصره لم يستطع الاستيلاء عليه لأن صاحبته رفضت أن تبيعه، فاضطر كسرى إلى جعل قاعة عرشه ملتوية البناء تجنباً لبيت هذه المرأة العجوز، وأبى عليه عدله أن يستولي على بيتها، وهو صاحب السلطان الأعظم وهي امرأة فقيرة لا حول لها ولا طول.

وقــد روى هــذه الحكاية ياقوت الحموي في "معجم البلدان" (ج١، ص٤٢٦ نشرة فستنفلد) والقزويني في "آثار البلاد وأخبار العباد" (ج٢، ص٣٠٤).

ورواهــا الأبشيهي في كتاب "المستطرف" فقال إن قيصر الروم أرسل رسولاً إلــى كســرى أنوشروان. وكانت له قاعة للعرش شهيرة بعظمة بنائها. ولما تأمل الرسول هذه القاعة لاحظ أن فيها انحناء. فسأل الترجمان عن ذلك فقال المترجم أنه يوجـد بيــت تملكــه امرأة عجوز لم تشأ بيعه، وهنالك لم يشأ الملك إرغامها على بــيعه. وأمر بترك البيت على حاله، وبناء قاعة العرش ملتوية لتجنب البيت، وأن هــذا هو السبب في الإلتواء البارز فيها. فقال رسول قيصر: أن هذا الإلتواء أجمل ممــا لــو كان الجدار مستقيماً، وما صنعه الملك أمر عظيم لم يسمع بمثله من قبل ولن يسمع بمثله من بعد.

وهــذه الحكايــة نقلهــا على هذه الصورة كرستوفورس ليمان (المتوفى سنة ١٦٣٨). ومن هنا عرفت في أوروبا، وكانت الأساس في أسطورة فريدرك الأكبر وطاحونة صان سوسي.

الغرب الفيلسوف في القرون الوسطى وأستاذية الفلسفة الإسلامية[٣٢] :

دور المسلمين في تكوين الفلسفة الأوربية في العصور الوسطى دور مزدوج: دور الرســول الحامل لهم رسالة اليونان في الفلسفة، ودور الفاعل المؤثر بما ابتكر وأنــتج. فعن طريق المسلمين عرفت أوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر مؤلفــات أرسطو وقطعاً من فلسفة أفلوطين وأبرقلس، ومعالم من فلاسفة أفلاطون. إذ قــام المــترجمون فــي طيطلة وفي صقلية، وهم الذين تحدثنا عن نشاطهم في مســتهل هــذا البحث، بترجمة كتاب "البرهان" من منطق أرسطو أعني "التحليلات الثانــية"، و"السماء والعالم"، و"الكون والفساد" و"السماع الطبيعي" و"الآثار العلوية"، كمــا ترجموا كتاب "الخير المحض" المنسوب إلى أرسطو، وهو في الحقيقة فصول منتزعة من "إلهيات" أبرقلس.

وعــن هذا الطريق عرفت أوروبا أرسطو وأبرقلس، فكان لهما أثر هائل في إخصــاب الفكــر الأوروبي الذي سرعان ما خضع لفلسفة أرسطو خضوعاً تاماً.

٣٢- أنظر عبد الرحمن بدوي، دور العرب.

وأعمق من هذا أثراً بكثير، أثر الفلاسفة المسلمين أنفسهم في أوروبا لما أن ترجمت بعض مؤلفاتهم إلى اللاتينية، وبعض اللغات الأوروبية الحديثة الناشئة. فترجم يوحنا الأسباني "منطق" ابن سينا، وترجم جونديسالفي (غنصالبه) بمساعدة يوحنا الأسباني قسم "الطبيعيات" من كتاب "الشفاء" وقسم "النفس" و"الإلهيات" من "الشفاء" لابن سينا أيضاً، كما ترجموا "مقاصد الفلاسفة" للغزالي. ومن ناحية أخرى ترجم جيرردو الكريموني جملة رسائل للكندي منها رسالة في العقل ورسالة الجواهر الخمسة، كما ترجم – فيما يبدو – رسالة "في العقل" للفارابي.

فلما ترجمت هذه الكتب ظهر أثرها في الحال. وكان طبيعياً أن يظهر أول ما يظهر على شيخ المترجمين وهو جنديسالفي. فقد ألف كتباً نجد فيها لأول مرة آثار الفلسفة الإسلامية. ففي كتابه "تقسيم الفلسفة" نجد أنه قد أضيف إلى رباع العلوم التي كان القوم في أوروبا لا يعرفون غيرها: الطبيعيات، والنفس، وما بعد الطبيعة، والسياسة، وتدبير المنزل أو الاقتصاد. وفي كتابه الرئيسي، وهو "صدور العالم" يفسر المؤلف كيفية نشأة الكون على النحو الذي بينه ابن سينا في إلهيات "الشفاء" وابن جبرول في "عين الحياة"، كما تأثر ابن سينا أيضا في كتابه "في خلود النفس"، وبدأ تأثير أفلوطين والأفلاطونية المحدثة يظهر في كتابه "في التوحيد".

وقد أنتج الإسلام عدداً كبيراً من كبار الفلاسفة الذين تميز جهدهم الفكرى بتقبله لمشكلات الفلسفة اليونانية ومنهجها(٣٣) .

ولما بدأت عقول ممتازة في قراءة آثار الفلاسفة المسلمين بدأت النهضة الحقيقية للفكر الفلسفي الأوروبي، وذلك في القرن الثالث عشر. فأحدث ابن سينا أولا تأثيراً عميقاً واسعاً، خصوصاً إلهياته، المتأثرة بأرسطو والأفلاطونية المحدثة معاً، والتي يفسر فيها الكون ابتداء من الأول الذي يصدر عنه العقل الثاني، ثم الثالث وهكذا حتى العاشر، وهو العقل الذي يؤثر في الإنسان مباشرة. فهذا التصوير لصدور العالم عن الله الواحد هو الذي سيعتنقه الفلاسفة الأوروبيون، بدلا من التصوير الوارد في التوراة والذي كان سائداً حتى ذلك الحين.

فلنستعرض الآن كبار الفلاسفة الأوروبيين في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، لنرى أثر الفلاسفة المسلمين فيهم.

٣٣- توبي هف: فجر العلم الحديث، ترجمة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، اغسطس ٢٠٠٠سنة، عدد ٢٦٠، ص٨٣.

فأولهم هو البرتس الكبير (سنة ١٢٠٧-١٢٨٠) الذي درس ما ترجم إلى اللاتينية من مؤلفات الفلاسفة المسلمين دراسة عميقة، وكاد أن ينقل عنهم كل نظرياته الرئيسية في الفلسفة، وإن لم يستطع أحياناً الجهر بذلك خوفاً من السلطات الدينية.

فقد أخذ عن ابن سينا القول بأن النفس جوهر عقلي، وأن كونها صورة للجسم ليس تحديداً لماهيتها، بل هو وظيفة من وظائفها، وأنها تستضيء من إشراق العقل الفعال عليها، وهذا العقل الفعال متصل بالعقل العاشر الذي هو عقل فلك القمر. كما أخذ عن ابن سينا نظرية الواحد وصدور العقول عنه.

وفضلاً عن ذلك فإنه في إدراكه وفهمه للفلسفة الأرسطية، إنما اعتمد كل الاعتماد على الفارابي وابن سينا وابن رشد.

وإذا ما انتقلنا من البرتس الكبير، إلى أكبر الفلاسفة الأوروبيين في القرن الثالث عشر، وهو القديس توما الإكويني وجدنا آثار الفلسفة الإسلامية أعمق وأنضج، وإن كانت أخفى في الظاهر لأنه لم يكن يذكر مصادره، بعكس البرتس الكبير الذي كان يشير غالباً إلى المصادر التي نقل عنها، أما توما فلا يذكر إلا أسماء الذين ينقدهم.

وأول شيء يظهر فيه تأثير الفلاسفة المسلمين في القديس توما هو البراهين التي أوردها لإثبات وجود الله بطريق العقل. فالبرهان الثالث من بين براهينه الخمسة - وهو أقواها إنما أخذه من الفارابي وابن سينا، ويقوم هذا البرهان على أساس تقسيم الوجود إلى واجب وممكن. والممكن لا يمكن أن يستمر في حال الإمكان إلى غير نهاية، بل لا بد من موجود واجب الوجود تنتهي إليه الممكنات، وهذا الكائن الواجب الوجود هو الله، فإن الممكن هو الذي يوجد ثم يفسد، وهو الذي وجد أو سيوجد، وكان من الممكن ألا يوجد، أما الواجب فهو الذي لا يمكن إلا أن يكون موجوداً. والممكن لا يستطيع بنفسه أن يفسر وجوده، إذ لو لم يوجد إلا ممكنات، لأمكن ألا يوجد شيء. فلكي يوجد شيء كان لابد أن يكون هناك موجود واجب الوجود، وهذا الواجب الوجود هو الله.

وكان هذا البرهان عمدة البراهين لإثبات وجود الله. وهو نفس البرهان الذي عرضه الفارابي في كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة"، وعرضه ابن سينا في الهبات كتابيه "النجاة" و"الشفاء". ومن الثابت بيقين أن توما قد قرأ ابن سينا

والفارابـــي لأنه يشير إلى مؤلفاتهما هذه صراحة. فمن الثابت بيقين أيضاً أن توما إنما أخذ برهانه الرئيسي على وجود الله من الفارابي وابن سينا.

كذلـــك أخذ القديس توما فكرة ضرورة الوحي الإلهي عن الفلاسفة المسلمين. فقد ذكر في المقالة الثالثة من شرحه على كتاب "الأقوال" في رسالته عن "التثليث"، وفي رسالته عن "الحقيقة" أسباباً ثلاثة لتبرير ضرورة الوحي الإلهي، لأنه بغير هذا الوحـــي لن يستطيع النجاة غير قليل من الناس، وبعد دراسة شاقة مجهدة لا يقوى علـــيها إلا القلـــيلون، وبعد زمن طويل، فضلاً عما سيدخل عملهم هذا من أخطاء عديدة. فهذه الأسباب الثلاثة ذكرها ابن رشد في كتابيه "فصل المقال وتقرير ما بين الشـــريعة والحكمـــة مـــن الاتصال" ثم الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة". وعن ابن رشد أيضاً أخذ القديس توما مذهبه في النقل والعقل، أي الصلة بين العقل الوحـــي، أو الـــنظر والإيمان، فكلاهما يقرر أن العقل يقدر على البحث عن الحق شـــيئاً فشـــيئاً، وكلاهمـــا يعترف بعجز العقل أمام بعض الحقائق الإلهية، والاتفاق بينهما - كما بين ذلك أسين بلاثيوس - اتفاق في كل شيء: في الموقف العام الذي وقفـــه كلاهما من هذه المسألة، واتفاق في الآراء والأمثلة التي أوردها كلاهما، بل اتفـــاق أحـــيانا فـــي العـــبارات التي يستعملها كل منهما. ولا يمكن أن يكون اتفاقا بالعـــرض ومن طريق توارد الخواطر، وإنما هو في الحقيقة نقل، أعني أن القديس توما أخذ هذه الآراء بحذافيرها من ابن رشد.

وهـــذا يفضي بنا إلى التحدث عن تأثير هذا الفيلسوف العظيم، ابن رشد، وهو تأثـــير لا يجاريـــه فيه أي فيلسوف مسلم آخر؛ لأننا لا نستطيع مثلا أن نتحدث عن فارابية أو سيناوية لاتينية، ولكننا نجد في مقابل ذلك رشدية لاتينية قوية جداً توافر لها أنصارها في أوروبا طوال أكثر من قرنين من الزمان.

وقـــد بـــدأت حركة الرشدية اللاتينية، أي اتباع ابن رشد من الأوربيين منذ أن ترجم ميخائيل اسكوت شروح ابن رشد على مؤلفات أرسطو في الفترة الواقعة بين سنة ١٢٢٨ و١٢٣٥ ميلادية، لما أن كان فلكياً في بلاط فريدريك الثاني في بالرمو بصـــقلية. وتـــزعمها سيجر البرابنتي (سنة ١٢٣٥- سنة ١٢٨١ أو ١٢٨٤م) الذي رأى فـــي مذهـــب ابـــن رشد الحقيقة نفسها، لكنه لم يتردد أيضاً في أن يؤول هذا المذهـــب تأويلاً خاصاً في بعض الأحيان. وأهم ما أخذه أو أوله سيجر في مذهب ابـــن رشـــد هـــو القـــول بوجود حقيقتين: إحداهما نتأدى اليها من العقل والبرهان

المنطقـــي؛ والأخـــرى نتأدى أو بالأحرى نتلقاها من الوحي والإيمان، الأولى هي الحقيقة الفلسفية، والثاني هي الحقيقة الدينية؛ وابن رشد كان صريحاً في موقفه هنا عند تعارض كلتا الحقيقتين: فقد رأى وجوب تأويل ما أتى به الإيمان كيما يتفق مع ما قضى به العقل، أما سيجر البرابنتي فلم يكن صريحاً إلى هذا الحد الجرىء، بل اضطر إلى القول بازدواج الحقيقة فآمن بالحقيقة الدينية بوصفه مؤمناً متديناً، وأيقن بالحقيقة الفلسفية بوصفه فيلسوفا.

وقـــال سيجر أيضا كما قال ابن رشد بقدم العالم، أي أن العالم ليس مخلوقاً في الـــزمان، بـــل هو قديم قدم البارى نفسه. وأن الله يعلم الكليات، ولا يعلم الجزئيات، لأن العلم بالجزئيات أي بالتفاصيل يقتضي تغيير العلم الإلهي تبعا لوقوع الأحداث. ولـــيس العـــالم هـــو وحـــده القديـــم؛ بل أيضا الأجناس والأنواع ومن بينها النوع الإنســـاني. والحـــوادث التي وقعت في الماضي ستقع أيضا في المستقبل، أعني أن ســـيجر كـــان يقول بنظرية العود الأبدي، أي عودة الأحداث التي كانت من جديد وهكـــذا دواليك. كذلك قال سيجر بوحدة العقل الفعال فقال إن العقل الفعال واحد في الـــناس جمـــيعا، وليس لكل إنسان عقل فعال خاص به. ولما كان العقل الفعال هو الجـــزء الخـــالد فـــي النفس الإنسانية، فإن الخلود ليس لكل نفس إنسانية، بل للعقل الفعال الواحد المنتشر في الإنسانية كلها. ومن هنا لم يكن يقول بخلود النفس. كذلك لم يقل بالعناية الإلهية فيما يتصل بأفعال الإنسان الفرد، بل إنما تتعلق العناية الإلهية بالعالم ككل، لا بأفراد بني الإنسان.

وعلـــى الـــرغم ممـــا لقيـــته الرشدية اللاتينية من هجوم واضطهاد من جانب الســـلطات الدينـــية، فـــي أواخـــر القرن الثالث عشر، فإنها استمرت تنمو وتنتشر وتكســـب الأنصـــار طوال القرن الرابع عشر؛ فنجد جان دي جاندان (المتوفى سنة ١٣٢٨م) يخلـــص كـــل الإخلاص لمذهب ابن رشد؛ ويدافع عنه ضد القديس توما؛ لأن ابـــن رشـــد هو في نظره نصير الفلسفة الكامل المجيد. ونجد كذلك مارسيليو البادوفاني (المتوفى بين سنة ١٣٣٦ و١٣٤٣م) الذي طبق نظرية الفصل بين العقل والـــنقل علـــى السياسة فطالب بالفصل بين الدين والدولة، وصرح بنظرية ازدواج الحقيقية، أي أن ثمت حقيقتين منفصلتين قد تتعارضان أحياناً، وهما الحقيقة الدينية، والحقـــيقة الفلســـفية واســـتمر تأثـــير ابن رشد في نمو مطرد في بعض الأوساط الفلسفية: أما تأثيره بوصفه شارحاً لأرسطو فقد استمر حتى القرن السابع عشر.

وهكذا نرى أن المذاهب الفلسفية الرئيسية والتيارات الكبرى في الفكر الفلسفي الأوروبـــي في القرون من الثالث عشر حتى السادس عشر تدين بوجودها وآرائها الجديدة الأصيلة للفلاسفة المسلمين.

ويقـــول فردريك كومبلسون: قد (كانت الفلسفة العربية إحدى القنوات الرئيسية التي بواسطتها كان أرسطو كامل التقديم إلى الغرب).

أمـــا جون باكوت كلوب (كلوب باشا ١٨٩٨-١٩٨٦) يتساءل بأن هل ((كان العـــرب آنـــذاك فقـــط الحامليـــن ورث ثقافة اليونان وروما. وبعدئذ أرجعوها إلى أوروبـــا؟ فقـــط جزئـــي لذلك. بالفعل هم عملوا على صون كتابة الإغريق القدماء ونقلوها عن أوروبا إلى داخل العربية لتكون ترجمت إلى اللاتينية. ومع ذلك فإنهم قد أضافوا سواء كان ذلك إسهاماً كبيراً أو قليلاً إلى الكل من المعرفة التي نقلت من خلال أيديهم)).

وكذلك جون لويس يقول: ((لقد أصبح أرسطوطاليس في غمار النسيان وعلى كـــل فقـــد كـــان خارج الدين. ولم يعرض فلسفته آنذاك إلا الفلاسفة العرب الذين حـــافظوا على الفلسفة حية ترزق في إسبانيا وشمال أفريقيا من القرن التاسع حتى القـــرن الثانـــي عشـــر في الوقت الذي كانت فيه أوروبا على درجة من البربرية والجهل جعلت من العسير عليها أن تتقبل الفلسفة)).

هـــذا وعن حركة الإصلاح الديني يقول الكاتب الإنكليزى لرك هارت (١٧٢٩ ــ ١٧٩٧م) بأن: في القرون الوسطى كان النظر إلى باطن الإنسان وما حوله من الأشـــياء الخارجـــية بيـــن الـــنوم واليقظة قد سدل عليه ستار نسجه الدين والوهم والتعصـــب الأعمـــى منع الإنسان أن يرى العالم على ما هو عليه وما كان يحس الإنسان بنفسه إلا كفرد من جيل أو شعب أو حزب أو أسرة أو ((طائفة)) وما كان يحـــس لنفسه بشيء من الشخصية ورفع ذلك الستار أيام النهضة فرأى من الممكن أن يفكر فيما حوله من الأشياء سواء كان حكومة أو أي شيء في العالم. كما رأى من الممكن أن يفكر في نفسه واعتقد أنه فرد ذو روح حساسة. وامتاز ذلك العصر بشـــعور الإنسان فيه بشخصيته المطلقة وبمعارضته للسلطة وذويها. وذهابه شوطاً بعـــيداً فـــي اعتبار العالم كله وطناً له. وهذه دلائل أعظم رُقي يصل إليه الناس في تقدمهم العقلي. وقد أعلت النهضة شأن الطبيعة الإنسانية والحياة الدنيوية مخالفة في ذلـــك طـــريقة التفكـــير في القرون الوسطى. ولذلك يسمى العلماء الذي خصصوا

أنفسهم لدراسة آداب اليونان والرومان عند القدماء ((الإنسانيين)) كما تسمى عقائدهم ومثلهم العليا ((الإنسانية)) وكان من خير ما أحدثه هؤلاء الإنسانيون ((نمو الفردية)) وهو الرأي القائل بأن الإنسان ينبغي أن يفكر بنفسه لنفسه وهو رأي كان قد أهمل في عصر عبودية العقل. أي عصر المدرسي.

الشاعر الألماني الكبير شلّر واستلهامه القصص الإسلامي[٣٤] :

من أوائل الشعراء الألمان الذين تأثروا بموضوعات من القصص الاسلامي الشاعر الكبير فريدرش شلر (١٧٥٩-١٨٠٥).

فقد اثبت أمدروز في بحث له بعنوان: "رواية عربية لإحدى قصائد شلر القصصية" "مجلة الدراسات الشرقية" RSO ج٣ (١٩١٠)، وجود أصل عربي للقصة الشعرية Ballade التي صاغها شلر بعنوان: "الذهاب إلى مصهر الحداد" وخلاصة هذه القصة الشعرية أنه كان خادم تقي يدعى فريدولين يخشى الله ويخلص في خدمة الكونتيسة فون سافرن Von Savern ويبذل كل ما في وسعه لإرضاء مطالبها، فرفعته فوق سائر الخدم، وكانت تمتدحه أمامهم باستمرار، حتى عدته بمثابة ابن لها. فغلا صدر روبرت، الصياد بالحسد عليه. وذات يوم وهو عائد مع سيده الكونت من رحلة صيد نفث سموم الدس والوقيعة في صدر سيده، بأن اتهم الكونتيسة بأنها تخونه مع فريدولين الخادم الأشقر. وصدق الكونت هذه الدسيسة وأمر خادمين بأن يذهبا إلى مصهر الحداد وينتظرا هناك. وعليهما أن يلقيا في نار المصهر بأول شخص يرسله إلى هناك ويسألهما: "هل أطعتم كلمة مولاي". وبعث روبرت الدساس بفريدولين إلى مولاه، فقال هذا له: "اذهب فوراً إلى مصهر الحداد واسأل خادمي هناك هل أطاعا كلمتي". ولكنه قبل ان يذهب توقف وتساءل لعل الكونتيسة في حاجة إلى شيء، وراح يسألها: "إني أرسلت إلى الحداد، فهل أنت في حاجة إلى شيء، لاني في خدمتك" فأجابته الكونتيسة قائلة: "بودي لو أستمع إلى القداس، لكن ابني مريض، فاذهب أنت ياولدي. ورتل الدعاء وأد الصلاة من أجلي، وكفر عن خطاياك، حتى احظى بالنعمة الإلهية". ومضى فريدولين، ولم يكد يبلغ نهاية القرية حتى سمع قرع نواقيس الكنيسة وهي تدعو

٣٤- انظر عبد الرحمن بدوي: الشاعر الألماني الكبير شلّر واستلهامه القصص الإسلامي ،من كتاب دور العرب في تكوين الفكر الأوربي.

المصـــلين. فدخل الكنيسة، ولم يجد بها أحداً لأن الوقت كان وقت الحصاد والناس فـــي الحقـــول، ولكنه صمم على أن يخدم القسيس في القداس، وساعده عند المذبح، وأدى فـــروض الصلاة بدقة وإتقان، واستمر حتى فرغ القسيس من الصلاة. وأعاد كـــل شيء إلى مكانه، ثم غادر الكنيسة راضي الضمير، متوجهاً إلى مصهر الحداد وهـــو يتمـــتم ببعض الدعوات الدينية. ولما بلغ المصهر وشاهد المدخنة والخادمين صـــاح: "هل تم ما أمر به الكونت؟" فأشارا إلى قاع الفرن وقالا: "لقد تم ما طلبه، وسيمتدحنا الكونت". وعاد مسرعا بهذا الجواب إلى الكونت، فلما رآه هذا قادما من بعـــيد لـــم يصدق عينيه وصاح فيه "أيها الشقي! من أين أقبلت؟" فأجاب فريدولين: "من مصهر الحداد". فقال الكونت: "أبداً! لابد أنك أبطأت في المسير". فقال الخادم: "تلبثـــت فقـــط المـــدة التي قضيتها في الصلوات، لأني قبل أن أمضي لتنفيذ أمرك، رحـــت لأســـأل سيدتي عما إذا كانت تريد شيئا، فأمرتني بالذهاب لسماع القداس. فأطعـــت أمـــرها، وتمتمت بالدعوات لنجاتها ونجاتك". فدهش الكونت كل الدهشة واضـــطرب وقـــال: "قل! ماذا كان جواب الخادمين هناك في مصهر الحداد؟" فقال فريدوليـــن: "كان كلامهما غامضا، لقد أشارا إلى الفرن ضاحكين وقال: "لقد تم ما طلـــبه، وســـيمتدحنا الكونـــت". فقال الكونت متعجلا: "وروبرت؟ ألم يلتق بك؟ لقد أرســـلته إلى الغابة" فقال الخادم: "مولاي لم أجده في الغابة ولا في الحقول". فصاح الكونت: "الآن، الله في السماء قدر كل شيء!" ثم أخذ بيد الخادم متلطفاً معه، وأتى به إلى زوجته وهو في غاية التأثر، وهي لا تعلم عن الأمر شيئاً، وقال: "هذا الولد لا يوجـــد لـــه نظير في الطهارة بين الملائكة وأوصيك برعايته، لقد أساءوا النصح وأسأت الانتصاح، أما هذا فالله معه وملائكته".

والأصـــل العربي لهذه القصة الشعرية نجده في قصة أحمد اليتيم. وخلاصتها أن رجـــلا محسناً ربى في كنف رعايته يتيماً اسمه أحمد، وأوصى حين وفاته ابنه أبا الجيش برعاية هذا اليتيم. فوضع كل ثقته فيه. وذات يوم فاجأ أحمد اليتيم إحدى القيان وهي بين أحضان أحد الخدم، وخافت على نفسها، فعرضت نفسها على أحمد حـــتى لا يفضح أمرها، لكنه أبى فخافت وسبقت هي باتهامه. فأمر أبو الجيش أحد أتباعه بأن يطيح برأس الرجل الذي سيأتي ومعه قارورة لملئها بالمسك، لكن أحمد توقف في الطريق، فجاء الخادم الذي كان على صلة بالقينة وتولى حمل القارورة، فأطـــاح برأســـه ذلك التابع المكلف. بذلك وهنالك سأل أبو الجيش أحمد اليتيم عن

حقيقة تهمة الخادمة. فروى له الحكاية بتمامها فأمر بإعدام القينة هي الأخرى. والتشابه في الهيكل العام والمغزى واضح بين القصتين، ولا خلاف إلا في بعض التفاصيل. وشلر استمد مادة القصة من قصة وردت في "المعاصرات" لرتيف دى لابريتون (١٧٣٤-١٨٠٦). وثم قصيدة أخرى لشلر عنوانها: "الرهن" أو "الضمان" تقوم على الوفاء في الصداقة حتى التضحية بالنفس. وخلاصتها أن دامون تسلل إلى مخدع ديونسيوس الطاغية، والخنجر مخبأ في ملابسه فانقض عليه الشرطة وقيدوه بالاغلال واقتادوه إلى الطاغية فصاح هذا فيه: "ماذا تريد بهذا الخنجر؟" فأجاب دامون: "أريد تخليص المدينة من الطاغية". فقال الطاغية: "ستكفر عن هذا على الصليب" فقال دامون: "أنا مستعد للموت، ولا أطلب منك العفو، كل ما أسألك إياه هو أن تمنحني مهلة ثلاثة أيام حتى أجد لأختي زوجاً، وأترك صديقي رهينة، وتستطيع إعدامه، إذا أنا لم أرجع". فتضاحك الملك ماكراً ساخراً وقال بعد تفكير: منحتك هذه المهلة، فإذا انقضت قبل أن تعود تحمّل هو العقاب بدلاً منك". وذهب دامون إلى صديقه وقال له: "أن الملك يطلب مني أن أدفع حياتي ثمناً لفعلتي المتهورة، لكنه رضي بأن يمنحني مهلة ثلاث ايام حتى أجد لأختي زوجاً. فكن رهينة عند الملك".

وتركه الملك يذهب، وقبل مشرق فجر اليوم الثالث كان قد زوج أخته ومضى مسرعا قبل انقضاء المهلة، فمر بعقبات شديدة ومصاعب: من أنهار وسيول وجبال، وأوشكت الشمس على المغيب حين شاهد أبراج مدينة سرقوسة. ولقيه في الطريق فيلوستراس، فتعرفه وقال له: "لن تستطيع إنقاذ صديقك! فانج بحياتك أنت، لأن صديقك يعالج القتل الآن". ولكنه استمر في طريقه، ولما بلغ باب المدينة وجد الصليب قد نصب، وتجمع الناس حوله، ورفع الصديق فعلا بالحبل إلى الصليب، فصاح دامون: "اشنقني أنا أيها الجلاد! فأنا الذي من أجله تشنق هذه الرهينة". فتلفت الناس متعجبين وشاهدوا الرجلين متعانقين. فأرسلوا عبراتهم ولم توجد عين لم تذرف الدمع في هذا الجمع الحاشد. فتجمهروا وراحوا إلى قصر الطاغية رووا له ما حدث. فقال الطاغية، بعد أن التمسوا منه العفو: "لكم ما طلبتم! لقد هيجتم قلبي بالشفقة. ان الوفاء ليس كلمة جوفاء. فخذوني معكم إلى هذين الصديقين. ولأكن صديقهما الثالث". وفكرة الرهينة هذه ووفاء الصديق لها نظيرها في قصة كثيراً ما وردت في الكتب الاسلامية للدلالة على الوفاء. ومن بينها القصة التالية

التـــي رواهـــا الأبشيهي في "المستطرف"، (طبع بولاق، ج١، ص٢٣٥ وما يليها)، قـــال: "وأمـــا الوفاء بالعهد ورعاية الذمم فقد نقل فيه من عجائب الوقائع وغرائب البدائع ما يطرب السامع ويشنف المسامع، كقضية الطائي وشريك، نديم النعمان بن المـــنذر. وتلخيص معناها أن النعمان كان قد جعل له يومين: يوم بؤس من صادفه فـــيه قـــتله وأرداه، ويوم نعيم من لقيه فيه أحسن اليه وأغناه. وكان هذا الطائي قد رمـــاه حـــادث دهره بسهام فاقته وفقره، فأخرجته الفاقة من محل استقراره ليتزود شـــيئاً لصبيته وصغاره. فبينما هو كذلك إذ صادفه النعمان في يوم بؤسه. فلما رآه الطائـــي، علـــم أنـــه مقتول، وأن دمه مطلول. فقال: "حيا الله الملك! إن لي صبية صغاراً، وأهلا جياعا. وقد أرقت ماء وجهي في حصول شيء من البلغة لهم. وقد أقدمنـــي ســـوء الحظ على الملك في هذا اليوم العبوس وقد قربت من مقر الصبية والأهل وهم على شفا تلف من الطوى، ولن يتفاوت الحال في قتلى بين أول النهار وآخـــره. فإن رأى الملك في أن يأذن لي في أن أوصل اليهم هذا القوت، وأوصي بهم أهل المروءة من الحي لئلا يهلكوا ضياعاً، ثم أعود إلى الملك وأسلم نفسي لنفاذ أمـــره". فلما سمع النعمان صورة مقاله، وفهم حقيقة حاله، ورأى تلهفه على ضياع أطفاله، رق له ورثى لحاله. غير أنه قال له: "لا آذن لك حتى يضمنك رجل معنا. فـــإن لـــم ترجع قتلناه" وكان شريك بن عدي بن شرحبيل نديم النعمان معه، فالتفت الطائي إلى شريك وقال له:

يا شريك بن عدي ما من الموت انهزام *** من لأطفال ضعاف عدموا طعم الطعام
بيـــن جـــوع وانتظار وافتقار وسقام *** يـــا أخا كل كريم أنت من قوم كرام
يا أخا النعمان جُدلي بضمان والتزام *** ولـــك الله بـــأنى راجـــع قبل الظلام

فقـــال شريك بن عدي: "أصلح الله الملك: عليّ ضمانه". فمر الطائي مسرعا، وصـــار النعمان يقول لشريك: "إن صدر النهار قد ولى ولم يرجع"، وشريك يقول "ليس للملك عليّ سبيل حتى يأتي المساء". فلما قرب المساء قال النعمان لشريك: قد جـــاء وقـــتك! قم فتأهب للقتل!" فقال شريك: "هذا شخص قد لاح مقبلا، وأرجو أن يكون الطائي فإن لم يكن، فأمر الملك ممتثل". قال فبينما هم كذلك، وإذا بالطائي قد اشـــتد عـــدوه فـــي سيره مسرعا حتى وصل. فقال: "خشيت أن ينقضي النهار قبل وصـــولي". ثم وقف قائما وقال: "أيها الملك! مر بأمرك!". فأطرق النعمان، ثم رفع

رأسه، وقال: "والله ما رأيت أعجب منكما! أما أنت يا طائي فما تركت لأحد في الوفاء مقاما يقوم فيه، ولا ذاكرا يفتخر به. وأما أنت يا شريك! فما تركت لكريم سماحة يذكر بها في الكرماء. فلا أكون أنا ألام الثلاثة. ألا وأني قد رفعت يوم بؤسي عن الناس، ونقضت عادتي كرامة لوفاء الطائي، وكرم شريك". فقال الطائي:

ولقد دعتني للخلاف عشيرة فعددت قولهم من الإضلال

إني امرؤ مني الوفاء سجية وفعال كل مهذب مفضال

فقال له النعمان: "ما حملك على الوفاء، وفيه إتلاف نفسك؟" فقال: "ديني، فمن لا وفاء فيه لا دين له": فأحسن إليه النعمان، ووصله بما أغناه، وأعاده مكرما إلى أهله، وأناله ما تمناه".

وبالمقارنة بين قصة شلر الشعرية وبين هذه القصة نرى الشبه التام حتى في أدق التفاصيل. فمن أين استقى شلر قصته؟ أثبت جرجر Gragger في مقال له "بمجلة الأدب المقارن" (سلسلة جديدة، ج١٨ ص ١٢٠ وما يتلوها) أن شلر استمد مادة القصة من Krummachers . . Liebeskind . Herder . Palmblattern (ج١ ، ص٧٧) التي ظهرت سنة ١٧٨٦ في مدينة بينا. وبقي أن نثبت أن ما ورد في هذه قد أخذ عن مصدر اسلامي مثل الأبشيهي.

شهادات استشراقية أنصفت الحضارة الإسلامية(٣٥) :

لقد كانت العلاقات بين المسلمين وبلاد الغرب في العصور الخالية عدوانية في أغلب الأحيان فقد كان القوم يضطرمون حقداً وغيظاً وكرهاً للمسلمين الذين اقتطعوا من المسيحية أبهى مقاطعاتها ومهدها وقد غذت الكنيسة الكاثوليكية في الغرب تغذية بالغة هذا الحقد، وصور المؤلفون الأوائل ورجال الكنيسة والتقاليد الشعبية الموروثة المسلمين على أنهم قتلة وثنيون مجرمون مدمرون لا أخلاق لهم ولا وازع يردعهم من ضمير أو أخلاق.

يقول الدكتور سعيد في كتاب الاستشراق "إن ما كان يشعر به المسيحيون تجاه الجيوش الإسلامية هو أنها تحمل مظهر سرب من النحل لها أيدي ثقيلة... تدمر كل شيء. هذا ما كتبه Erchembert الراهب في دير مونت كاسينو في القرن

٣٥- أنظر: محمد ماهر حمادة، شهادات استشراقية أنصفت الحضارة الإسلامية.

الحادي عشر. ولقد نظر القوم في أوربا إلى الإسلام على أنه تجسيد للرعب والدمار، واتباعه على أنهم قبائل شيطانية من البرابرة المكروهين.

ولقد تعمدت الكنيسة أن تشوه صورة الإسلام والمسلمين عند اتباعها، كما وإن حقد الكنيسة ضد الإسلام تمركز في شخص رسول الله عليه السلام. ولقد كانت أوربا مهتمة بالرسول وبالإسلام، ولكنه اهتمام من نوع خاص، اهتمام قصده تصوير الرسول في العقل الغربي على أنه المسيح الدجال والنبي الكذاب ومؤسس اشنع وأقبح الفرق في تاريخ المسيحية.

ولقد أدت هذه الروح العدوانية والتعصب الأعمى وعداء الكنيسة، مع عوامل أخرى كثيرة إلى أن شنت الكنيسة الغربية حرباً مقدسة ضد الإسلام وفي بلادهم بقصد تدمير الإسلام واسترجاع البيت المقدس إلى أحضان الكنيسة، وهي الحروب المعروفة باسم الحروب الصليبية. وعلى الرغم من أن دوافع الحروب الصليبية لم تكن كلها دينية، إلاّ أن التعصب والكره والحقد هي التي غذتها طوال قرنين من الزمان.

ولقد مرت الحضارة الإسلامية في ثلاثة أدوار حتى تبلورت وظهرت شخصيتها وأمكنها أن تشع وتعطي الآخرين.

فأول هذه الأدوار هو دور قصير تميز بجمع القرآن الكريم في طرس واحد وضبط نصه وتوزيعه على الأمصار وذلك حسماً للخلاف بين مختلف الفئات. والقرآن كما هو معلوم هو أساس الحضارة الإسلامية ولبها وتمركز حوله عدد كبير جداً من الدراسات المبتكرة ولذلك فإن حفظ نص هذا الكتاب المقدس وتعميمه إرساء للأساس الصلب للحضارة الإسلامية.

أما الدور الثاني فهو دور نقل التراث الهيليني والفارسي والسرياني إلى اللغة العربية وقد تم ذلك على مدى قرنين من الزمان وأكثر. كما رافق هذا الدور جمع للتراث العربي من شعر ونثر ومعاجم ولغة وأنساب وقصص وأمثال وما شاكل. ويأتي الدور الثالث تتويجاً للدورين السابقين فيبدأ التأليف الأصيل في جميع فروع المعرفة بلا استثناء وفي طول البلاد الإسلامية وعرضها.

ومما يجب ملاحظته أن هذه الأدوار ليست منفصلة عن بعضها بحواجز زمانية أو مكانية وإنما هي متداخلة مع بعضها تداخلاً عجيباً.

وقد بلغت الحضارة الإسلامية ذروة مجدها وقمة نضوجها ابتداءً من القرن الرابع هجري واستمر الوضع كذلك حتى القرن السابع هجري وما بعده، بل قد استمر هذا التألق في بعض فروع المعرفة حتى القرن التاسع والعاشر هجريين. والذي ساعد على هذا الازدهار الحضاري هو انتشار التعليم انتشاراً واسعاً جداً، وتسامح المسلمين في نقل الكتب ولو كانت مخالفة لعقائدهم، وكذلك تسامحهم مع أهل الذمة حتى تعاون هؤلاء معهم عن طيب خاطر ورضا، كذلك كان لتشجيع الحكام على العمل والتأليف والنقل أثر طيب جداً وأمثال هؤلاء كثيرون كالمنصور والرشيد والمأمون وسيف الدولة الحمداني وآل سامان وغيرهم كثيرون. ومما ساعد على ازدهار الحضارة ورقيها إيجاد المؤسسات التعليمية لجميع المراحل بدءً من الكتاب وانتهاءً مع الأكاديمية العلمية. وقد تأسست في العالم الإسلامي المعاهد والجامعات والكليات والمراصد والمكتبات الكبرى، وكلها كانت أماكن للبحث والدرس والتأليف الأصيل.

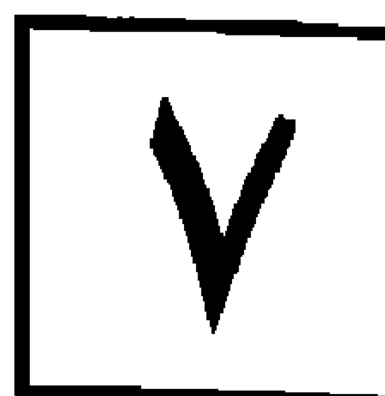
ولقد غمط كثير من مؤلفي الغرب الحديثين والمستشرقين هذه الحضارة حقها فوصفوها بأوصاف تكشف عن تعصبهم ضد الإسلام ومؤسساته الحضارية. على أن هناك نفراً منهم درسوا هذه الحضارة دراسة وافية وأبدوا إعجابهم بها فيقول توماس أرنولد. كانت العلوم الإسلامية وهي في أوج عظمتها تضيء كما يضيء القمر فتبدد غياهب الظلام الذي كان يلف أوربا في القرون الوسطى. ويقول جورج سارتون في كتابه مقدمة في تاريخ العلم: إن الجانب الأكبر من مهام الفكر الإنساني اضطلع به المسلمون، فالفارابي أعظم الفلاسفة.. والمسعودي أعظم الجغرافيين والطبري أعظم المؤرخين.

كذلك يبدي تومبسون إعجابه بالعلم العربي "إن انتعاش العلم في العالم الغربي نشأ بسبب تأثر شعوب غربي أوربة بالمعرفة العلمية العربية وبسبب الترجمة السريعة لمؤلفات المسلمين في حقل العلوم ونقلها من العربية إلى اللاتينية لغة التعليم الدولية آنذاك ويقول في مكان آخر: إن ولادة العلم في الغرب ربما كان أمجد قسم وأعظم إنجاز في تاريخ المكتبات الإسلامية.

هذا وقد أبدى الباحث اليهودي فرانز روزنتال إعجابه الشديد ودهشته البالغة لسمو الحضارة الإسلامية وسرعة تشكلها، ذلك أن ترعرع هذه الحضارة هو موضوع مثير ومن أكثر الموضوعات استحقاقاً للتأمل والدراسة في التاريخ. ذلك

إن الســرعة المذهلــة التــي تم بها تشكل وتكون هذه الحضارة أمر يستحق التأمل العميق وهي ظاهرة عجيبة جداً في تاريخ نشوء وتطور الحضارة، وهي تثير دوماً وأبــداً، أعظــم أنــواع الإعجــاب في نفوس الدارسين، ويمكن تسميتها بالحضارة المعجــزة، لإنهــا تأسست وتشكلت وأخذت شكلها النهائي بشكل سريع جداً ووقت قصير جداً، بحيث يمكن القول إنها اكتملت وبلغت ذروتها حتى قبل أن تبدأ.

وقــد أشــاد أحد الباحثين وهو روبرت بريفولت بالحضارة الإسلامية وخص العلــم العربي فيها بهذه الإشادة "إن القوة التي غيرت وضع العالم المادي كانت من نــتاج الصلة الوثيقة بين الفلكيين والكيميائيين والمدارس الطبية. وكانت هذه الصلة أثــراً مــن آثار البلاد الإسلامية والحضارة العربية. إن معظم النشاط الأوربي في مجــال العلــوم الطبيعــية إلى القرن الخامس عشر ميلادي كان مستفاداً من علوم العــرب ومعارفهم، وإني قد فصلت الكلام في الدور الذي لعبته العربية في اليقظة الأوربــية، لأن الكذب والافتراء كانا قد كثرا في العصر الحاضر، وكان التفصيل لابد منه للقضاء عليهما.



الفصل السابع

أوربا عصر النهضة

الفصل السابع
أوربا عصر النهضة

الصعود إلى أسفل!!

رابعاً: عصر النهضة[1] :

مـباركة هى تلك العصور السعيدة التى لم تكن تعرف ضراوة أدوات المدفعية الشيطانية التى أنا واثق من أن مخترعها يثوى الآن فى الجحيم

دون كيشوت

سرفانتس

أن إحـياء التراث الغربى انطلاقا من عصر النهضة كان يهدف إلى توظيف نزعـته الإنسـانية للدفـاع عن قيم جديدة عن طريق الصراع بين الفكر الإقطاعي والكنيسـة الكاثوليكية الحامية له وذلك بقيادة هذه الطبقة الجديدة، طبقة البورجوازية الناشـئة التي جعلت من العودة إلى هذا التراث سلاحا ضد النزعة الكهنوتية، وقيما "ثورية" للتمرد ضد القديم وترسيخ وعي جديد بالإنسان.

وأبـرز مـا خرج به عصر النهضة هو التنوير الذي كان من أقوى مظاهره احـتدامُ الصـراع بيـن طبقة العلماء والمفكرين والفلاسفة والكتاب والأدباء وبين الكنيسة.

وشـهد عصـر النهضة الحروب الطويلة والدامية التي دارت في الغرب بين الكاثولـيك والبروتسـتانت والتـي تجاوزت المناوشات أو التناقضات الثانوية إلى الاقتتال المروع.

١- مصـطلح يطلق على فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة وهي القرون ١٤-١٦ ويؤرخ لها بسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م حيث نزح العلماء إلى إيطاليا حاملين معهم تراث اليونان والرومان. كما يدل مصطلح عصر النهضـة عـلى التيارات الثقافية والفكرية التي بدأت في البلاد الإيطالية في القرن ١٤، حيث بلغت أوج ازدهارها في القـرنين ١٥ و١٦، ومـن إيطاليا انتشرت النهضة إلى فرنسا وإسبانيا وألمانيا وهولندا وإنكلترا وإلى سائر أوربا. أزدهر شـأن النهضـة الإيطالية إذ وجدت لها أنصارا يصرفون عليها المال الوفير، مثل أسرة ميديشي في فلورنسا وسوفرزا في مـيلانو والبابوات في روما. بلغت البندقية ذروة عظمتها الثقافية في أواخر القرن ١٦. من أعظم شخصيات النهضة في المجـال الفني ليوناردو دافنشي ومايكل انجيلو وميكيافيلي. كان لهذه الحقبة تأثير واسع في الفن والعمارة وتكوين العقل الحديـث وعـودة واعية للمثل العليا والأنماط الكلاسيكية. في هذه الفترة تم اكتشاف أراضي وشعوب جديدة حيث أتسـمت هـذه الفـترة بظهور طائفة كبيرة من الرحالة والمستكشفين والملاحين منهم الأمير هنري الملاح وكرستوفر كولومبوس وفاسكو دي كاما.

كمـا شـهد الفصل بين السلطتين الدينية والدنيويّة فان ذلك كان نتاجا لصراع ضـد الكنيسـة والسلطات التيوقراطية الحاكمة من وراء ستار الدين وممارساتهما العنـيفة ضـد المعـتقد الأخـر والـرأي الأخـر وقد قادت هذا الصراع الطبقة الـبورجوازية الناشـئة التـي حملـت لـواء المثل الجديدة والتصور الجديد للعالم الرأسمالي الصاعد ولآليات وطبيعة ممارسة السلطة فيه وإذا كانت الثورة الفرنسية فـي نهاية القرن ١٨ قد جسمت هذا الفصل الا أن ايرلندا لا تزال إلى اليوم مسرحا للعـنف بيـن الكاثولـيك والبروتستانت كما قامت عديد الأنظمة بالفصل بين الدين والدولة في أنحاء عديدة من العالم ومن حضارات مختلفة.

وقـد انتج عصر النهضة كذلك ظاهرة الكشوف الجغرافية ومن ثم الاستعمار لفـتح الـدول بالقوة، فكانت الحروب بين الإمبراطوريات الاستعمارية وبينها وبين الشـعوب المولّـى عليها مروجا في سبيل تحقيق هذه الأهداف قيم الحرية واحترام الذات البشرية وفصل الدين عن الدولة في صراعه ضد الإقطاع والكنيسة ولإضفاء تبريرات "حضارية" لنزعته التوسعية خارج الحدود.

وكانـت حـرب المائة عام بين إنكلترا وفرنسا تجسيدا للصراع بين الأوربيين وكانـت بشكل متقطع فيما بين العامين ١٣٣٧ – ١٤٥٣ ولم تكن سوى واحدة من صـراعات عـدة اجتاحت أوروبا وكانت تلك الحروب تصور بوضوح الكثير من التغيرات التى لحقت بالفنون الحربية وفيها ظهر البارود gun powder الذى أسقط الإقطـاع والإقطـاعى مـن أعلى قلعته الشامخة !! ليودع العصور الوسطى والى الأبد.

ويذكـر الفيلسوف فرنسيس بيكون[٢] أن الطباعة والبارود والبوصلة قد غيرت صورة العالم كله وحالته.

أمـا المطـبعة فقد وفرت للمدفعية ما ساعد على حشد الصفوف وتجميعها فى أسـرع وقـت وأقـل جهد كما كانت أداه فعالة فى الهاب حماس الجماهير. وهكذا أصـبحت أوروبا على عتبة ثورة عاتية فى المجال العسكرى سيحصد أرواح مئات الملايين من البشر واختفت تماماً مفاهيم العصور الوسطى عن القتال التقليدى وجهاً

٢- فرانسـيس بـيكون (١٥٦١-١٦٢٦) احد أشهر رجالات النهضة الإنكليزية وتجلت شهرته فى الفلسفة والسياسة وهو صـاحب فلسـفة الشـك الديكارتى "أنا أشك إذن أنا موجود" من أعماله تقدم المعرفة، الأورجانون الجديد ودعا إلى الملاحظة العلمية والتجريب وتطوير ملكات العقل النقدية.

لوجـــه وتزايد دور رجال المدفعية ورماة البنادق وتصاعدت القوة البحرية اعدة دول أوربـــية مثل هولندا وإنكلترا وأصبح هناك تزايد ملحوظ في القوة والقدرة التدميرية للأعمـــال الحربـــية وظهرت الصبغة الاحترافية للجيوش وتحسنت أساليب التدريب والتجنيد.

وكانـــت هـــناك حرب الثلاثين عاماً ١٦١٨-١٦٤٨ وهي سلسلة من الحروب المنفصلة وصراعاً أوروبياً واسعاً أدت إلى مصرع ما يقدر بربع سكان أوروبا في المعارك وامتلاء الفضاء الأوروبي بآثار الخراب والدار وانتشر اليأس والقنوط.

ولقد كانت حركة الإصلاح الديني فيما بين القرن الخامس عشر والسابع عشر أعـنف حـــركة دينـــية شـــهدها الـــتاريخ فقد أدت الخلافات الدينية إلى مشاحنات ومطاحنات واضطهادات كانت أشد ما عرف من نوعها في تاريخ الأديان.

يقـــول المفكر و.ث. جونز ملخصاً في دقةٍ وتركيزٍ الوضعَ الفكري في أوربا فـــيما يعرف بعصر النهضة: "استحوذ الإنسان في عصر النهضة بأهمية أكبر من الله، وأصـــبح الاهتمام بارتباط الإنسان ببني جنسه أكبر من الاهتمام بارتباط روحه بـــالله، واتخـــذ الإنسان الطبيعة والإنسانية هدفاً، عوضاً عمّا فوق الطبيعة والكمال الإلهـــي، وبـــات الأمـــر الأهمّ ما يحققه الإنسان في دنياه، لا ما ينتظره في العالم الآخر. ومطالبُ الإنسان في هذه الدنيا إنما هي، عموماً، غنى شخصية الفرد، ونموٌّ قواه العقلية، وقابلياته المعنوية، واستثمار مظاهر الجمال المتنوعة، والحياة المجللة بالـــنعم الدنيوية. وهكذا خرج الإنسان من كونه مرآة للمشيئة الإلهيّة، ومظهراً ثابتاً للإنســـان، ليصبح ميداناً لتجاذب قوى الطبيعة وصراعها. فلا مفرّ إذاً للإنسان من الالتحاق بحلبة التنافس هذه.

وتلك عقيدةٌ كامنة في الوجدان الغربي وعقدةٌ مترسبة في فكر الغرب وثقافته، ومـــن الطريف أنه في عصر النهضة أصبحت الموسيقي العسكرية جزءا عضويا من الجيش باعتبارها بالغة التأثير في إثارة الشهوة إلى الدماء!!!



الفصل الثامن

العصر الحديث

الفصل الثامن
العصر الحديث

خامساً: العصر الحديث (الاستعمار والصهيونية والحروب العظمي) :

عليك أن تنبطح دائماً وتحمل حملك وتزحف
ولا تنم الا قليلاً وتمدد بلا راحة وتحمل الجوع والعطش ورعشة البرد
والذهاب إلى أى مكان متأهباً للقاء مصيرك أو حظك !!!

لقـد كـان الصـراع المتأصل فى الفكر الأوربى على المدى الزمنى الطويل وتواصل فى الحروب الإيطالية والحروب الألمانية[١] .

لقـد طرحـت فكرة (الصراع للحياة) في القرن التاسع عشر في أوروبا والتي حلّـت فـي نظرية داروين مكان النظريات السالفة عن التوافق الطبيعي، وساد في الأوسـاط العلمية والفكرية الاعتقاد في وجود كثير من الصراع حتى في الطبيعة، وأن هـذا الصـراع هو من سمات الطبيعة. والفكرة الأساسية التي تمركز حولها الفكر الأوروبي هي أنه لا وجود لتشابه كامل بين الطبيعة والمجتمع، فهناك الكثير مـن الصراع في المجتمع، ولكن الصراع بين الناس ليس من أجل الوجود، ولكنه من أجل تحقيق فرص أفضل للاستمتاع والارتقاء.

الكشوف الجغرافية (تمهيد الاستعمار) :

قلبت الكشوف الجغرافية استراتيجية العالم القديم من صميمها وقفز الاستعمار من عالم متناه إلى عالم لا متناه، وبعد أن كان محلياً أو إقليميا أصبح عالمياً كوكبياً تماماً[٢] .

وبعـد أن كان العالم يتألف من يابس واحد ومحيطين اثنين، أصبح يتألف من محيط واحد ويابس متعدد[٣] .

وبعـد فشل الحروب الصليبية، بقي الأوربيون يبحثون عن أرض جديدة قادرة على استيعاب طموحاتهم وأطماعهم. فبدأت حركة استكشافات جغرافية واسعة. لقد

١- لمزيد من التفاصيل انظر عبد الحميد البطريق: التيارات السياسية المعاصرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٩ عبد العزيز محمد الشناوى: أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ج١، ط٣، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٧.

٢- حمدان: نفس المرجع، ص ٥٧.

٣- نفسه، ص ٥٨.

كانوا يبحثون عن خيار آخر غير أوروبا التي ضاقت بهم، وضاقت إمكاناتها فأصبحت الحروب هي لغة التعامل في التنازع على الثروات والموارد الطبيعية والأراضي. وأصبح البحث عن أرض جديدة بمثابة الحل الأمثل للمشاكل التي تعانيها القارة الأوروبية، والصراعات السياسية، والأزمات الاقتصادية، والخلافات المذهبية والاضطهاد الديني.

وعندما بدأت أوروبا نهضتها العلمية والصناعية والحضارية وكانت في حاجة إلى المواد الأولية الخام لتغذية مصانعها، كما أنهم أصبحوا بحاجة إلى أسواق تجارية لتصريف بضائعهم كان لا بد لهم أن يتعرفوا إلى البلاد التي تمتلك الثروات الطبيعية ويمكن أن تكون أسواقاً مفتوحة لمنتجاتهم. فكان الشرق الإسلامي والدول الأفريقية والآسيوية هي ملاذ هذه البلاد فنشطوا في استكشافاتهم الجغرافية ودراساتهم الاجتماعية واللغوية والثقافية وغيرها(٤) .

وفي عام ١٤٩٢ م تم اكتشاف أميركا، وتم كشف الطريق البحري من أوروبا إلى الهند حول رأس الرجاء الصالح ١٤٩٨(٥) واكتشفت أستراليا عام ١٦٠٦ م فكان بمثابة الحل الذي انتظره الأوروبيون قروناً. فأخذت موجات المهاجرين تتدفق على الأرض الجديدة، لكنهم لم يجدوا حضارة مزدهرة كما في الشرق، بل قبائل بدائية وشعوباً متأخرة، سرعان ما أبادوها، وليقيموا فيها إلى الأبد.

وقد حاول مؤرخو الغرب الاستعماري ومفكروه أن يقوموا بعملية بتر للمسيرة التاريخية من أجل إقناع العالم بحقيقة واهية، مفادها أن الحضارة لم يعرفها إلا العالم الغربي، واعتماداً علي العقلية المادية التي يعتمد عليها الغرب في سلوكه ومواقفه، بدأت مجموعة من المواقف الحاقدة التي تبناها بعض أقطاب الحضارة الغربية ضد العالم الآخر. وصفق هيجل لما أسماه بانتصار الروح الأوروبية وعودتها إلي مجدها عند احتلال فرنسا للجزائر !!.

العنصرية :

كان القانون الأمريكي الذي ظل سارياً إلى عام ١٨٦٥م ينص على حق الأمريكي في مكافئة مجزية إذا هو قدم لأي مخفر شرطة أمريكي فروة رأس هندي

٤- أنور محمود زناتي: زيارة جديدة للاستشراق، ط١، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٦،ص ٣٨.

٥- عبد العزيز محمد الشناوى: أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ج١، ط٣، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٧، ص ١٠٤.

أحمـــر!! علـــى أساس أن جريمته تلك أيضا هو إنجاز حضاري يسهم في تنظيف البيئة من الأمم المتخلفة حضارياً وفكرياً وأنه تنظيف مشروع للأرض من (الريش) الذي تتورط في نشره الأمم غير المتحضرة.

ومـــنذ نشـــوء الولايات المتحدة، اعتمدت القوة المجردة من أي أبعاد أخلاقية الأس المركـــزي في اقتلاع الجنس الهندي وإحلال المستوطنين البيض القادمين من أوروبا الاستعمارية.

وبمـــنطق القـــوة لا غير أصبح الموطن التاريخي للهنود الحمر وطنًا للبيض الأوربييـــن، بـــل إن هؤلاء المهاجرين توسعوا على حساب أراضي شعوب أخرى مثل المكسيك، والولايات المتحدة أنشأت كيانها على أساس القوة فقط عبر الاحتلال والإبادة .. حتى الوحدة بين الولايات المتحدة تحققت أيضًا بفعل القوة عبر الحروب الأهلية الطاحنة. ولم يتوقف اعتماد فلسفة القوة عند حدود النشأة والتكوين، بل تعداه لتستمر هذه الذهنية لتحكم عقول معظم المؤسسين والمخططين الاستراتيجيين ابتداءً من جورج واشنطن مرورًا بالمفكر الاستراتيجي جورج كينان صاحب استراتيجية احتواء الاتحاد السوفييتي وحتى كيسنجر.

وفـــي عـــام ١٨٤٦م احتلـــت جـــيوش الولايـــات المتحدة كاليفورنيا وتقول الإحصائيات إن عدد هنود كاليفورنيا في تلك السنة كان أقل من ربع ما كانوا عليه في عام ١٧٦٩م ومع ذلك فخلال العشرين سنة الأولى من احتلال هذه الولاية أبيد ٨٠ بالمائـــة من هذا الربع بسبب نظام السخرة. إن ثروة الأمم التي أعطت السلطة السياسية لأصحاب مناجم الذهب والمزارع الأسطورية سرعان ما شرعت استعباد الهـــنود كســـلاح غير مباشر، لإبادتهم كما تم قبل ذلك في كولورادو وغيرها من ولايـــات الذهب. ولأنه لابد من يد عاملة رخيصة لاستثمار هذه الولاية الغنية، فقد نشطت تجاراً خطف أطفال الهنود. وكانت الشاحنات المحشوة بأطفال الهنود، تهوي في الطرقات الريفية الخلفية إلى أسواق العبيد في سكرامنتو وسان فرانسيسكو. ومع نقـــص عدد النساء في سنوات الاحتلال الأولي فقد زاد الإقبال على خطف الفتيات اللواتـــي يقدمـــن خدمـــة مضاعفة. وأدى ذلك إلى هرب معظم الأسر الهندية من مـــنعزلاتها وأماكن سكنها التقليدية. أما شركات الخطف فقد تحولت إلى ميليشيات خيرية، إذ صار الخاطفون يقتلون الآباء ويشاركون الدولة في القضاء على عناصر الشعب وهكذا فقد اعتبر خطف الهنود وبيعهم مهمة نبيلة وعملاً أخلاقيا يتباهون به.

في أوائل ١٨٥٠م[٦] ، وفي أول جلسة تشريعية لكاليفورنيا سنت الولاية قانون حماية الهنود الذي أضفى الشرعية علي خطفهم واستعبادهم، واقتضت حماية الهنود بموجب الملحقات التي أضيفت إلى القانون عام ١٨٦٠م إجبار أكثر من عشرة آلاف هندي على أعمال السخرة، ولأن معظم الذين هربوا بأرواحهم وفراخهم إلى الغابات والجبار الوعرة صاروا يعيشون في ما اصبح يسمى بأملاك الولايات المتحدة، فقد تحولوا بموجب قوانين الذين سرقوا بلادهم إلى لصوص معتدين على أملاك الغير!!

ولم تمض سنة على صدور قانون حماية الهنود حتى ضاق حاكم الولاية بيتر بيرنت ذرعاً بحمايتهم وعبر عن الحاجة إلى إبادة هذا الجنس اللعين، ووجه رسالة إلى المجلس التشريعي قال فيها إن الرجل الأبيض الذي يعتبر الوقت ذهباً، والذي يعمل طول نهاره ليبني حياة سعيدة لا يستطيع أن يسهر طول الليل لمراقبة أملاكه ... ولم يعد أمامه من خيار سوى أن يعتمد على حرب إبادة. إن حرب الإبادة قد بدأت فعلاً، ويجب الاستمرار فيها حتى ينقرض الجنس الهندي تماماً. إن إبادة حضارة المايا والأزيتا والبوهاتن وغيرها ليست تهمة ينفيها الأمريكيون، إنها جزء من كفاحهم المقدس في بناء أمريكا قوية وعادلة و(جاهزة) لمحاسبة سوريا على أساس المثل الأخلاقية إياها.

ونتحدث عن الفظائع التي ارتكبها الأمريكيون إبان قيامهم بالمواجهة الدامية مع سكان الأرض الأصليين حيث تمت إبادة ما مجموعه ١١٢ مليون إنسان كانت ترتسم على وجوههم ضحكة الحياة وذلك ببساطة من أجل قيام العالم الجديد، وتم تسجيل ٩٣ حرباً جرثومية شاملة خاضها الأمريكيون بغرض إبادة ذلك الشعب البرئ، أما تلك القلة الضئيلة المشاغبة من الهنود فقد حفروا قبورهم بأيديهم في حروب متكافئة شريفة شفافة (مبررة) وفق المنطق الاستعلائي الأمريكي وأن الهنود (الآثمين) كانوا هم مسئولين عن إضرام نارها وحصد أضرارها، أو أنهم ماتوا قضاءً وقدراً بالأمراض التي حملها الأوربيون معهم دون قصد!!

إن دراسات محايدة غير قليلة تشير إلى أن الهنود كانوا ينتشرون في مساحة تزيد على مساحة أوربا بنصف مليون ميل، وأن المؤرخ الأمريكي قام باختزال

٦- محمد الحبش: المرجع السابق.

العــدد عــن ســابق إســرار وتصميم من عدد يزيد عن مائة مليون إلى مليون او مليونيــن علــى اكــثر تقدير عند وصول الغزاة الأوربيين وهو رقم تم حسمه في إحصاء ١٩٠٠ بأنهم يبلغون مليون فقط.

واســتأنفت أوروبــا وأمــريكا بعد ذلك تاريخ الصراع عندما تفجرت الثورة الملاحــية مــن الجزيرة الأيبيرية وجرفت في طريقها الأندلس لتمتد شريطاً ساحلياً يطوق العالم الإسلامي من طنجة إلى جزر سيلان عبر رأس الرجاء الصالح.

وفــي القرن التاسع عشر تتوثب الجيوش الأوروبية لاقتسام ما تبقى من العالم الإسلامي المريض في حركة استعمارية لا تتوقف حتى تدك واحدة فواحدة.

الحركة الاستعمارية :

هــناك ربط عضوى بين العنصرية والاستعمار أى أن الاستعمار يعنى دائما الاســتغلال والإذلال واضــطهاد الآخريــن وإهانة كرامتهم وهى جرائم لا يمكن تبريرها تبريرها.

ويــرى الدكتور كمال سيد قادر أن العنصرية هى إيديولوجية هدفها الرئيسى هــو تبرير الاضطهاد والهيمنة وحرمان اللآخرين من حقوقهم الطبيعية وهى تستند إلى ادعاءات باطلة وغبية بان الاختلافات فى العرق والأصل والمنشأ وحتى الدين تؤدى إلى تفوق جماعة على أخرى. وهى بذلك نظرية تقسم المجتمع البشرى على أساس هرمى تكون لها نتائج وخيمة على الشعوب والجماعات.

والعــبودية وجــرائم الإبــادة الجماعية والغزوات الاستعمارية كلها شكل من أشــكال ممارسة العنصرية، ومن أهم خصائص الأيديولوجية العنصرية هى قدرتها على التكيف وتغير جلدها، فهى مرة تعتمد على النظرية البيولوجية وإذا أثبتت هذه الــنظرية فشــلها فهى تتحول إلى النظرية الاجتماعية وفى حالة فشل هذه النظرية أيضــا فهــى تلجــأ إلــى الدين كأساس لتبرير نفسها كما هو الحال مع الحملات العنصرية الجديدة ضد المسلمين فى بعض بلدان الغرب.

ويجــب أن نعترف هنا أيضا بأن ظاهرة العنصرية هى ليست اختراعا غربيا بــل وجــدت منذ قدم التاريخ ولكنها كأيديولوجية تحاول تبرير نفسها بطرق علمية مزيفة فهى من صناعة غربية صرف.

ولــو نظــرنا إلى تاريخ الفلسفة الغربية نرى بأن أكثرية فلاسفتها الكلاسيكيين مــن أرسطو[٧] إلى كانط[٨] كانوا عنصريين فى كتاباتهم وآراءهم حتى المعروفين مــن بينهم بالتقدمية. فمثلا كان الفيلسوف الثورى فولتير يعتقد بأن السود هم صنف من الحيوان والفيلسوف كانط نفسه يعتبر من آباء المنهج العنصرى والقائمة طويلة جداً لتشمل فيخته (1762-1814) ودافيد هوم[٩] ومونتينيسكو.

وليســت الموجة العنصرية الجديدة ضد المسلمين وشعوب الجنوب الا امتدادا لهــذه الفلســفة العنصرية مهما تغيرت أشكالها وطرق تبريرها فان هدفها الرئيسى يبقى الهدف الاستعمارى نفسه وهو الهيمنة على الشعوب ونهب ثرواتها.

والاســتعمار كمصطلح سياسى يعنى الهيمنة وفرض إرادة طرف على طرف آخــر عن طريق القوة او التهديد بها وهو أيضا امتداد لسيادة دولة ما لتشمل دول وشــعوب اخرى. وكمصطلح اقتصادى يستهدف الاستعمار إلى الهيمنة الاقتصادية بكافة أشكالها.

ولمــا انتهــت الحروب الصليبية بهزيمة الصليبيين وبعد سقوط الأندلس عمل الأســبان علــي متابعة إسقاط الدول الإسلامية والسيطرة علي مقدراتها الاقتصادية والدينية لذلك عملوا علي الإلمام بطرق حياتها وتركيب سكانها مما أدي إلى ازدياد نشــاط المبشــرون والمستشــرقين والرحالة وقدموا إلى الغرب دراسة شاملة عن المجــتمع الإسلامي ومواطن الضعف فيه وقد عمل بعض المستشرقين كمستشارين لــوزارات خارجــية دولهــم وكقناصل وتجسسوا علي المسلمين[١٠] كما هو الحال بالنســبة للمستشرق الفرنسي هانوتو الذي كان يعمل مستشارا لوزارة الاستعمار

٧- أرســطو (٣٨٤- ٣٢٢ قبل الميلاد) فيلسوف يوناني قديم كان أحد تلاميذ افلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر. كتب في مواضيع متعددة تشمل الفيزياء، والشعر، والمنطق، وعبادة الحيوان، والأحياء، وأشكال الحكم.

٨- ايمــانويل كــانط ١٧٢٤-١٨٠٤: فيلسوف ألماني، ولد في شمال ألمانيا عام ١٧٢٤ في عائلة فقيرة ومتواضعة. في سن السادسة عشرة دخل الجامعة ليدرس الفلسفة. وفي الثلاثين، حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة، ثم عين أستاذاً في الجامعة نفسها.

٩- دافــيد هــيوم ١٧١١-١٧٧٦م صاحب نظرية النفعية Pragmatism التي وضعها بشكل متكامل والتي تقول بأن "الملكية الخاصة تقليد اتبعه الناس وينبغي عليهم أن يتبعوه لأن في ذلك منفعتهم.

١٠- لمــزيد مــن التفاصيل انظر: إدوارد سعيد: الاستشراق، محمد الأمين: الاستشراق في السيرة، زقزوق الخلفية الفكرية، العقيقي: المستشرقون(٣ج)، أنور زنالى، زيارة جديدة للاستشراق.

الفرنسية[١١] وكذلك إدوارد هنرى بالمر البريطاني الذى تعلم العربية وكان له نشاط علمـى غزيـر وقام برحله إلى الشرق وقد استغلت الحكومة البريطانية المعلومات التى جمعها عن الطرق والمسالك الصحراوية واحتلت مصر ١٨٨٢وقد رجع إليها اللورد اللنبى وقد إستعان بها فى حملته الشهيرة من مصر إلى دمشق خلال الحرب العالمـيه الأولـى (١٩١٤-١٩١٨)، وهناك دور كبير قام به لورانس العرب الذي وصـل إلى دمشق عام ١٩١٧ مع الجيش البريطاني وكان أول شيء قام به زيارة قـبر صـلاح الديـن ونزع قلادة إعجاب كان قد وضعها على القبر الإمبراطور الألمانـي وليم الثاني في زيارة له للقبر، وأخذها معه إلى بريطانيا وما زالت حتى الـيوم في المتحف الحربي البريطاني ومعها ملاحظة مكتوبة من لورانس تقول "لم يعد صلاح الدين بحاجة لها بعد الآن". وكان لورانس قد درس العربية في أكسفورد علـى يـد مستشـرق آخر مشهور هو ديفد جورج هوجارث. في تلك الفترة أيضا أسست بريطانيا "القسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية" عام ١٩٣٨، كما تأسس المجلـس الثقافـي البريطاني الذي فتح فروعا في كثير من العواصم العربية بهدف نشـر الثقافة البريطانية وإيجاد صلات مع الشعوب العربية على أوسع نطاق. كان الهـدف العسـكري مـن وراء هذه المؤسسات منافسة الإعلام الألماني والإيطالي الموجـه للمـنطقة العربية. بعد ذلك بسنوات أي عام ١٩٤٤ تأسس في القدس أهم مركـز للمستشرقين البريطانيين في الشرق الأوسط، وهو المركز الذي سيكون له صـيت كبير في العقود اللاحقة وسوف تثار حوله الشبهات والخلافات، إنه مركز الشرق الأوسط للدراسات العربية أو "ميكاس".

ولـم يدم مركز ميكاس في القدس سوى أربع سنوات حيث تم نقله قبيل اندلاع حـرب ٤٨ إلى لبنان وتحديدا إلى قرية شملان حيث أصبح يعرف باسمها، وهناك اشتهر وتكون اسمه والخبرات التي صار يعرف بها.

وهـناك أيضـاً المستشـرق صـمويل زويمـر وهو من أبرز المستشرقين الأميركييـن الذيـن خاضوا عملاً ميدانياً في منطقة الشرق الأوسط خاصة جنوب العـراق ودول الخليج العربية، وهو المحرر للمجلة الإنكليزية الاستشراقية الشهير،

١١- انظـر محمـد نعـناع الحميداوي: الاستشراق الغربي وتأثيراته على العالم الإسلامي والعربي، صحيفة كتابات، ١-٩-٢٠٠٢.

(عـالم الإسلام) وقد اشتهر بدوره الاستعماري وعدائه الشديد للإسلام. وله مؤلفات عديـدة عـن الإسلام في العالم، وعن العلاقات بين المسيحية والإسلام، منها كتاب "يسـوع في إحياء الغزالي" وكتاب "الإسلام تحدٍ لعقيدة" صدر سنة ١٩٠٨م. وكتاب "الإسلام" وهو مجموعة مقالات قدّمت للمؤتمر التبشيري الثاني سنة ١٩١١م بمدينة "لكناو" في الهند. ويعتبر زويمر من أكثر المستشرقين توجّهاً نحو التنصير، وتقديراً لجهـوده التبشـيرية أنشـأ الأميركـيون وقفاً باسمه على دراسة اللاهوت وإعداد المبشرين.. وهكذا وجدنا مدي مساهمة المستشرقين في الور الاستعماري فكان منهم الـرحالة والمبشرون والضباط ورجال الإدارة الاستعمارية واللغويون واللاهوتيون والأنثروبولوجـيون ومؤرخو الحضارات والرومانسيون والأركيولوجيون، ورجال المخابـرات والمؤرخـون والاقتصـاديون، ومـتدربو الشركات وخبراء الأسواق الـتجارية والسياسـيون[١٢] وذلك لكي تسيطر علي الشعوب الخاضعة لسلطانها[١٣] مما مهد الأرض للاستعمار الغربي.

لقد أفاد الاستعمار من الاستشراق التقليدي، الذي كان بمثابة دليل له في شعاب الشـرق وأوديـته، بما قدمه إليه من معارف، فالمعرفة – كما يقول الدكتور محمد البهي –[١٤] تمنح القوة، ومزيد من القوة يتطلب مزيدا من المعرفة، فهناك باستمرار حركة جدلية بين المعلومات والسيطرة المتنامية "، ولم يهدأ لهم بال حتي استطاعوا السيطرة الاستعمارية الكاملة علي العالم الإسلامى من المحيط إلى الخليج ،وسخروا الغرب لتنفيذ هذه المهام أفواجا عديدة من الباحثين في أوروبا، ووجههم للتخصص بالـتراث الإسلامي، وأمن لهم إمكانات مادية وبشرية ضخمة، من أجل دراسة هذا التراث، واكتشاف الشعوب الإسلامية، لبسط سيطرته عليها وبدأت تتضح الأهداف الاسـتعمارية.." بحيث أصبح الاستشراق في آخر الأمر أسلوباً غربياً لفهم الشرق، والسـيطرة عليه، ومحاولة إعادة تنظيمه وتوجيهه.. والتحكم فيه. وباختصار صار هـذا المفهوم يهدف إلى إخضاع الشرق للغرب، وأداة للتعبير عن التناقض والتباين بينهما.

١٢– رضوان السيد: مجلة الفكر العربي، العدد،٣١، ص٧.

١٣– مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، مطبعة دار البيان ١٩٧٠، ص ١١.

١٤– انظر:محمد البهي: الفكر الإسلامي في تطوره، مكتبة وهبة، القاهرة ط١٩٨١،٢.

وهذه الفكــرة "مأخــوذة من" ميشيل فوكو Michel Foucault [١٥] ، فأسست مراكــز للبحــث والتحقــيق، ودور نشر، ودوريات، وكليات، ومؤسسات متنوعة، تخصصــت بتراثــنا، ومجتمعاتــنا، وتاريخنا، وعاداتنا، كانت تؤمّن خدمات هائلة لــوزارات المســتعمرات فــي الدول الاستعمارية حتى أن تزايد الاهتمام بالتراث الإسلامي، وتحقيقه ونشره، وفهرسته، وترجمته، كان يتناسب طردياً بشكل ملحوظ، مــع تفــاقم ظاهرة الاستعمار في ديارنا، فيما كان يتراجع هذا الاهتمام في حالات انكفــاء الاســتعمار وتــراجعه وانحســاره. وهكذا اتجه الاستشراق المتعاون مع الاستعمار - بعد الاستيلاء العسكري والسياسي على بلاد المسلمين - إلى إضعاف المقاومــة الروحــية والمعنوية في نفوس المسلمين وتشكيك المسلمين في معتقداتهم وتراثهم، حتى يتم للاستعمار في النهاية إخضاعاً تاماً للحضارة والثقافة.

والاســتعمار يختلف عن الإمبريالية[١٦] بحيث ان الإمبريالية هى وليدة القرن التاســع عشــر وهى مرتبطة بالتراكم الرأسمالى حيث تبحث القوى الإمبريالية عن أســواق جديدة والهيمنة السياسية وهى لا تعتمد بالضرورة على الاحتلال المباشر كالاستعمار الذى هو اقدم من الإمبريالية بكثير.

هــناك نظــريات عــدة حــول أسباب نشوء الإمبريالية والاستعمار وأشهرها النظرية الاقتصادية حيث اعتبر لينين[١٧] الإمبريالية كأعلى مرحلة للرأسمالية ولكن الفيلسوف شومبيتر فى كتابه "الإمبريالية والطبقات الاجتماعية" يقول بان للإمبريالية أســباب متــنوعة كالأنانــية وحب الهيمنة على اللآخرين والميل لاستعمال العنف والإثراء الغير المشروع.

١٥- شكري النجار: لم الاهتمام بالاستشراق"، مجلة الفكر العربي، العدد ٣١، ص٦٠ وما بعدها.

وفوكــو: مفكر فرنسي شهير، ويعتبر من آباء المدرسة التفكيكية، وهي اتجاه في العلوم الاجتماعية يدعو إلى الابتعاد عن النمطية في تحليل الظواهر الاجتماعية مدعيا ان ذلك يضيق إلى حد كبير آفاق المعرفة البشرية، ويسقط أوهام الناس على الظواهــر."فوكــو كــان كاتبا مهجنا، يستند في كتاباته إلى كل أنواع المصنفات، والتاريخ، وعلم الاجتماع، والعلوم السياسية، والفلسفة، ولكنه يتجاوزها جميعها. وبالتالي فهو يضفي، عامدا، على أعماله قدرا من العالمية.

١٦- الإمــبريالية: السياســة أو الأعمال التي تقوم بها دولة للسيطرة على دول أخرى أو على أراض أخرى. وتتم مثل هذه السيطرة في الغالب بطرق عسكرية لأهداف سياسية واقتصادية.

١٧- فلاديمير اليتش إليانوف المعروف بلينين) (بالروسية Ульянов Владимир Ильич) (١٨٧٠-١٩٢٤م). ثوري روســي قائد الحزب البلشفي والثورة البلشفية ضد الإمبراطورية الروسية إبان حكم القياصرة ومؤسس المذهب اللينيني السياسي. كما يُعد لينين أول رئيس للإتحاد السوفيتي.

وبمـــا ان الاســـتعمار هو الهيمنة عن طريق استعمال القوة فهى لا يتم الا من خلال شن حروب استعمارية وهى أشرس أنواع الحروب وأكثرها دموية فى تاريخ الشــعوب لأنهـــا حروبا شاملة ضد الشعوب وليست ضد الجيوش فقط. فالاستعمار يحـــتل أرضا ليبقى فيها وممارسة الهيمنة الشاملة على شعبها لذلك فان للاستعمار أهداف شاملة تشمل كل مجالات حيات الشعوب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينـــية وآثـــار الهيمـــنة الاستعمارية على شعب ما هى فى الواقع اوسع من هذه المجـــالات بكثير كما يقول فرانتس فانون الطبيب النفسى والكاتب الثورى الفرنسى الذى اشترك فى ثورة الجزائر ضد الاستعمار الفرنسى، إذ يقول فى كتابه "معدومى الأرض" بـــأن الاســـتعمار يخلـــف حالة نفسية معينة لدى أفراد الشعوب الخاضعة للهيمـــنة الاستعمارية تؤثر على التصرفات الشخصية لهذه الأفراد كازدياد معدلات الجـــرائم والفســـاد بأنواعـــه والأمراض النفسية والجسدية. ولكن الأضرار هذه لا تنحصـــر على جانب واحد بل تشمل كلا الجانبين. حسب رأى فانون فان الاحتلال هـــو إذلال للمحـــتل أيضا بسبب الممارسات اللاإنسانية التى يمارسها ضد الشعوب الخاضـــعة لاحـــتلال. وخـــير مثال على صحة هذا القول هو العراق الحالى إذ ان ســـمعة أمـــريكا بعد ممارساتها اللاإنسانية ضد الشعب العراقى تضررت كثيرا فى العالم وأمريكا تعانى حاليا من فقدان المصداقية واصبح اسم أمريكا فى العالم الثالث رمـــزا للاضـــطهاد والعـــنف والتعذيـــب خاصة بعد نشر صور فضائح سجن ابو غريب.

هـــل الحمـــلات العنصرية ضد المسلمين هى بداية لحملات استعمارية جديدة واسعة ضد الشعوب الإسلامية؟!

والنهـــب كـــان، ومازال، هو الهدف الأول لأي استعمار. والرعب كان، وما زال، هو الأسلوب الأول لأي استعمار. والكذب كان، وما زال، هو خطة التضليل الأولى لأي استعمار. وهذه الشروط الثلاثة توافرت وبصورة انموذجية واضحة في غـــزو العراق: النهب والرعب والكذب! لكن فرادة الاستعمار الأمريكى تتجلى، في أوضـــح صـــورها، في انضمام مخلوق رابع إلى (شياطين الاستعمار)، وهو المبيد فصـــار العـــالم يرى عصابة النهاب والرعاب والكذاب والمبيد! بل ان اندماج هذه الخصائص الأربعة، اصبح هو ما يميز الاستعمار الأمريكى.

ويقول مالك بن نبي[١٨] ان الاستعمار قد زعزع دارنا، وسلب منا أشياء ثمينة، والاسـتعمار يعتبر من الوجهة التاريخية نكسة في التاريخ الإنساني؛ لأننا إذا بحثنا عـنه فسـنجد أصـوله تعـود إلى روما، حيث وضعت المدينة الرومانية طابعها الاستعماري في سجل التاريخ.

والربط العضوى بين العنصرية والاستعمار يمكن التأكد منه ميدانيا من خلال تحلـيل الحملات العنصرية الجديدة ضد الإسلام والمسلمين والتحركات والتهديدات العسـكرية ضـد العالم الإسلامى وخاصة الدول الغنية بالنفط أو الدول التى تبدى مقاومة ضد محاولات الهيمنة عليها.

الحمـلات الاستعمارية الجديدة ضد الشعوب الإسلامية تختلف هذه المرة قليلا مـن الحمـلات الأوربـية السـابقة اذ هـى عـبارة عن تحالف غريب بين دول انجلوساكسونية كأمريكا وبريطانيا والحركة الصهيونية العالمية.

كـل الـبوادر والـتجارب الاستعمارية السابقة تشير إلى إمكانية تحقيق هذه المخاوف لانه كما يبدوا فان التاريخ يكرر نفسه.

فمـثلا قـبل بـدأ الحملات الاستعمارية الأوربية ضد أفريقيا بدأت الأوساط الاسـتعمارية آنذاك بشن حملة عنصرية ضد الشعوب الأفريقية ووصفتها بشعوب بدائية وهمجية غير متحضرة وصل إلى حد اتهامها بأكل لحوم البشر.

ولم يختلف الأمر كثيرا مع شعوب أمريكا الأصليين بعد اكتشاف هذه القارة إذ وصـفت هذه الشعوب بالوحشية والتهام لحم البشر. فمثلا نشر فى أطلس إنكليزى سـنة ١٦٠٦ رسم مخططى لامرأة شبه عارية من السكان الأصليين وفى يدها آلة حـادة يقول الأطلس عنها بأنها تستعملها لتقطيع لحم البشر تمهيدا لشويه على النار وثم التهامه فيما بعد.

وكولومـبوس نفسه كان يطلق اسم Caribs على هنود الحمر وهو بدوره اسم مشـتق مـن مصـطلح Canibals اى آكلى لحوم البشر واصله هو الاسم Canis ويعنى فى اللغة اللاتينية الكلب الذى يصطاد فى قطيع.

مـن المعلـوم بان اتهامات من هذا النوع فسحت المجال فيما بعد أمام الإبادة الشبه الكاملة لسكان أمريكا الأصليين على يد المهاجرين الأوربيين.

١٨- مالك بن نبي مفكر إسلامي جزائري مرموق. من مقال له بعنوان الاستعمار.. والشعوب المستعمرة.

ان إطــلاق تســميات واتهامــات مهينة للكرامة الإنسانية لم يقتصر فقط على الشــعوب مــن غــير الجــنس الأبيض بل شمل كافة الشعوب المستهدفة من قبل الاســتعمار، فمــثلا كان العنصريون الإنكليز يطلقون اسم الشمبانزيا الأبيض على الأيرلنديــن تمهيدا لاحتلال أراضيهم. وحتى بعد احتلال أراضى هذه الشعوب فان الاتهامات هذه لم تتوقف بل تشتد فى بعض المرات خاصة إذا تجرأ شعب ما على مقاومــة الاحــتلال. فمثلا كان الإنكليز بعد احتلالهم للهند وعدم مواجهتهم لمقاومة تذكــر من قبل الأكثرية الهندوسية فى المراحل الأولى من الاحتلال كانوا يطلقون علــى الهــندوس اســم الهــندوس الناعم للتعبير عن رضاهم عن قبول الهندوس بالاحــتلال ولكــن بعدمــا قام الهندوس بانتفاضة عام ١٨٥٧ انقلب عليهم الإنكليز واتهموهم باغتصاب النساء الإنكليزيات[١٩] .

حــتى بعــض الكــتاب والعلمــاء الأوربييــن المشهورين تأثروا بالادعاءات العنصــرية ضــد الشــعوب الاخرى الغير الاوربية كشكسبير مثلا الذى لمح فى مسرحيته أوتيلو (عطيل) إلى مصطلح Cabibalsim.

وفى هذا المجال نقر بالآتى إن ما تعيشه الولايات المتحدة حالياً ليس شكل من أشــكال الحضارة، إنه ليس أكثر من تقدم تقنى، مادى لا يحمل فى طياته أى روح تعطيه صفة الحضارة.

والــتاريخ خير شاهد، فقد قامت تلك الحضارة المزعومة على العداوة، فإن لم يجدوا عدوا حقيقيا يوجهون له جهودهم ليدمروه، خلقوا داخلهم عدوا حتى ولو كان ذلــك العــدو هو جزء منهم. فمنذ مطلع الهجرات الأولى لشمال أمريكا أقروا مبدأ "الــبقاء" ولو على حساب أى شئ، حيث لا رحمة ولكن الأنانية هى الشعار الأوحد وإن لــم يعلــن بوضــوح. وقــد بــدا ذلك واضحا منذ أول لحظات حرب الإبادة والمجازر الوحشية ضد السكان الأصليون للبلاد فى كل من شمال وجنوب أمريكا، ثم انقلبوا لمحاربة أنفسهم بما سمى بالثورة وحرب التحرير.

وبمجرد أن أنشئت الدولة أخذ النصف في استعباد النصف الأخر كل فى مجال مختلف من الزراعة والصناعة، وحتى عندما تم وضع الدستور للبلاد كان دستورا خاصا بالأقوياء والخاصة من المجتمع ولا يعم على الجميع، فكانت هى أبرز صور

١٩- كمال سيد قادر: المرجع السابق.

العنصرية فى العالم والتي ما ذالت قائمه حتى وقتنا هذا، وإن تحولت من العنصرية العلنية إلى العنصرية المستتره، من العنصرية المقننة إلى العنصرية بالممارسة.

تلك المسماة بالحضارة قد وضعت لنفسها قانونا لا ينطبق إلا عليها، ولا يصح ولا يجوز لغيرها فى العالم أن يطالب بالمساواة معها، وهذا هو ما أصبح أسلوبا لحياتنا اليومية في أيامنا هذه. فى كل مجالات الحياة أسس ذلك المجتمع قوة مسيطرة جبارة تستطيع السيطرة على كل شئ فى الوجود لصالح منفعتها الخاصة، لقد تلاعبت تلك القوة بالقانون فأصبحت الأمم المتحدة أداة فى يدها تسيرها ضد أعدائها وتصبح عير ذات قيمة، قوة خاوية إذا خرقوا هم القانون وكثيرا ما فعلوا، والأمثلة على ذلك بالعشرات ويعرفها الجميع، مثل كوبا، جواتيمالا، فلسطين، العراق، فيتنام ... وغيرهم الكثير.

وفقا للقانون العالمى الجديد لا تستطيع أى دولة فى العالم أن تحمى منتجاتها سوى الولايات المتحدة وبكل الوسائل. ولا تستطيع دولة فى العالم السيطرة على مواردها الطبيعية سوى الولايات المتحدة. ولا يحق لأى دولة فى العالم أن تتسلح لحماية نفسها، وللولايات المتحدة الحق فى أن تتزود بكل أسلحة الدمار حتى لو دمرت العالم كله. كل دول العالم يجب أن تحترم البيئة أما الولايات المتحدة فهي مستثناه من ذلك، وكل العالم يجب محاسبته وفق القوانين الدوليه التى لا تنطبق على الولايات المتحدة وحلفائها.

لقد عرف العالم طوال التاريخ نبل الجنود، حيث دورهم هو حماية المدنيين حتى لو كانت أرواحهم هي الثمن، ولكن الجنود فى عصر السيطرة الأمريكية يضحون بكل شئ إلا أنفسهم، وأصبح تفسير الولايات المتحدة للقانون الدولى يتوقف على كينونه أطراف الصراع، حيث يستطيع أى حليف لها أن يغزواما يشاء من بلاد العالم وإبادة من يشاء من شعوبها ولا يحق لغير حلفائها حتى الدفاع عن أنفسهم. لقد أصبح المجتمع ذاته من داخله ذو غالبية تتصرف من منطلق الأنانية المطلقة حيث أن أى غاضب يحق له قتل كل من يلقاه في مدرسته، في متجره، في شارعه... فلم تعد لحياة الإنسان قيمة على الإطلاق.

لقد أصبحت الحياة معقدة للغاية، فمختلف الإدارات داخل السلطة كل منها قوة انتفاع فى حد ذاتها حتى أن مصالحها أصبحت متداخلة ومتشابكة ولا حقوق لعامة الشعب أمامها، وأخطرها أن أجهزة التخابر أصبحت قوة ذاتية مستقلة وكل من تلك

الأجهـزة يحـارب للحفاظ على استقلاله وبقائه، وهكذا عادت نظرية البقاء لتظلل حياتـنا فهـى الشعار الحقيقى لها. لقد اصبح الهدف الأساسى من الحياة هو الحياة ذاتها ولم تعد الحياة لصالح المجتمع ككل ولصالح أبنائه، فأصبحت القوة هى العامل الأساسى للبقاء.

إن مقولـة "الحضـارة الغربية" تتكون من: الحضارة ككلمة كبيرة ذات قيمة ومعنى، فهى كل ما يعمل على إضافة قيم جديدة لحياة الإنسان ويعمل على ازدهار حاضر ومستقبل لكل البشرية وليس لمجموعة مختارة منها، إن الثقافة ولا شك هي مـن أهم مقومات الحضارة وشمال أمريكا ولا شك أبعد ما يكون عن الثقافة، وإن إدعـى الـثقافة فهى لا تزيد عن ثقافة الشواذ والرجل الوطواط والرجل العنكبوت، بيـنما مصـادر ومـنابع الثقافة الأصيلة التى لا يعرف غير إنتقادها والتهكم عليها واتهامها بالتخلف والجمود. والغرب، وهو مكان جغرافى يجمع مجموعة من البشر لا يمثلون مجتمع موحد ولا قيمة مشتركة وينقسم إلى أوروبا الغربية وشمال أمريكا كما نعرفها اليوم وهو ولا شك مكانان لا يملكان أية عوامل مشتركة بينهم فلا يمكن أن تمثل حضارة واحدة.

ولكـن الولايـات المتحدة كالعادة احتجزت العالم كله رهينة لأطماعها، تحت مسـمى "الحضـارة الغربية" وسخرت لذلك هذا المسمى الذي لا تملك منه أى من الظواهر أو الحقيقة، مدعية أنها تمثل حضارة وهى عنها بعيدة.

وحـاول بعـض العلمـاء الأوربييـن في مجالات البايولجيا والطب والعلوم الإنسـانية إسـناد النظرية العنصرية بطريقة علمية أو حتى تبرير الإبادة الجماعية للشعوب الغير الأوربية.

فكتـب داروين مثلا فى كتابه Decent of Man سنة ١٨٧١ "الانقراض يكون عادة سببه المنافسة، المنافسة بين قبيلة وقبيلة أو جنس مع جنس وعندما تقابل الأمم المتمدنة الأمم البربرية فان المعركة ستكون قصيرة". وفعلا كانت المعركة قصيرة للسـكان الأصـليين فى أمريكا واستراليا وبعض مناطق أفريقيا حيث أبيدت شعوبا بأكملهـا. هـذه النظرية تعرف الآن بالداروينية الاجتماعية وهى من المبادئ التى يؤمنون بها المحافظين الجدد.

وبعض من هؤلاء العلماء كانوا ينادون علنا لابادة الاجناس الغير الاوربية كعالم اللانثروبولوجـيا الألمانى Theodor Waitz سنة ١٨٥٩ عندما كتب: "لو كانت هناك

أجـناس بشــرية مخــتلفة إذن لا بـد من وجود جنس أرستقراطى بينها يهيمن على الأجـناس الأخرى التى حددت الطبيعة مصيرها لخدمة الجنس الأرستقراطى بحيث يمكــن تدجيــنهم لهذه الغاية كالحيوانات المدجنة وكذلك يمكن إجراء التجارب العلمية علــى أجســادهم بــدون اى تردد وإذا وقفت الأجناس السفلى هذه فى طريق الرجل الأبـيض فــان أبادتهــا بصورة كاملة تكون حينئذ لها ما يبررها". هذه النظرية اى النظرية العنصرية الاجتماعية ظهرت بعد فشل النظرية البايولوجية القائلة بان الجنس الأبيض يختلف عن الأجناس الأخرى فى تكوينه البايولوجي وان التزاوج بين البيض والسود وغير ممكن بايولوجيا.

ولكــن كان هناك أيضا كتاب وعلماء أوربيون معارضين للنظريات العنصرية والاســتعمار كالكاتــب الإنكليزى Milton الذى قارن فى أشعاره "الجنة المفقودة" اســتعمار الشــعوب بطرد آدم وحواء من الجنة لان الاستعمار لا يجلب الا الفساد والتفسخ.

ولكن المعارضة هذه لم تأخذ شكلا عاما بل كانت النزعة العنصرية والرغبة فى التوســع وخــوض الحــروب الاســتعمارية يتمــتع بتايد شعبى واسع بسبب فعالية الادعاءات العنصرية والمصالح الشخصية لبعض مواطنى أوربا حيث كان باستطاعة الإنســان الأوربــى المعــدوم العاطل عن العمل وحتى المجرم ان يتحول إلى إنسان ارســتقراطى بين ليلة وضحاها فى إحدى المستعمرات. رئيس وزراء مستعمرة كاب فــى جــنوب أفريقــيا كتــب عام ١٩٠٨ بأن العمال البيض تنهال عليهم النعمة عند وصولهم إلى المستعمرات حيث يجدون أنفسهم فى موقع الإنسان الأرستقراطى.

ولا يختلف الحال الآن كثيرا فى العراق حيث ان بوسع الجندى الأمريكى الذى ربمــا كــان مشردا فى شوارع أمريكا قبل مجيئه إلى العراق أو نادلا فى البيتسريا بان يتحول إلى حاكم يحكم على الحياة والموت فى العراق. وكما أن حالة الاحتلال توفــر فرصــة ذهبية لكل المجرمين ومرضى النفسيين لإشباع رغباتهم الإجرامية المريضــة إذ لا مسؤولية لجرائمهم من القتل وا لترهيب والتخويف فى الأراضى المحتلة.

ويظن الفرد الأوروبي أنه من عنصر راق متميز وأن بشرته البيضاء في حد ذاتهــا دليل علي التفوق علي غيره من تلك العناصر الملونة ثم قادة هذا الظن إلى الإيمان بان الفرد الأبيض هو خالق الحضارة الحديثة.

لقد هاجر الإنسان الأوروبي الأبيض إلى أمريكا بعد اكتشافها وحمل معه كل ما تحتويه الطبيعة الأوربية من عنف وشهوة في السيطرة والتحكم وكان من الطبيعي ان تبدأ هذه الطبيعة الفاسدة في سياسة العنف والسيطرة علي مقدرات القارة الجديدة وسكانها ولم تكد تطأ قدم الرجل الأبيض أرض القارة حتي أخذ في مطاردة سكانها من الهنود والفتك بهم في وحشية يتقنها ويتميز بها ونصب نفسه حاكما بقوة الحديد والنار وكانت النتيجة انقض علي الكثير من سكان أمريكا الأصليين وأخذ يطارد الآخرين دون رحمه أو هواده حتي وصل الأمر به إلى إجبار من بقي من هؤلاء علي الحياة في مناطق حددها المستعمر وفرض عليهم الأسلوب الذي يجب أن يتبع فيه كل أمور الحياة، وهكذا دفعت شهوة السيطرة الرجل الأبيض في القضاء علي شعب بأكمله وذلك لارضاء عنفه وشهوته وجبروته ولإشباع لذته في استعباد الآخرين.

ثم اشتري الرجل الأوروبي في أمريكا الرقيق الأسود الإفريقي وكون طبقه من العبيد علي أرض أمريكا وعمل علي استغلال واستعباد الشعوب الأفريقية ووضع القوانين لخدمته هو وحده وحرم علي الأسود كل حق قانوني.

فمع اكتشاف القارة الأميركية في ١٤٩٢ ظهرت الحاجة إلى تنظيم نخاسة علي حجم واسع باتجاه القارة الأميركية. ويتفق المؤرخون على رقم ١٢ مليونا لتقدير عدد الأفارقة الذين اقتيدوا كعبيد إلى القارة الأميركية.

وجاء في رسالة كتبها عام ١٦٥١ أسير من مدينة نابولي الإيطالية "يسيئون معاملتنا ويضربوننا بالعصي ويجوعوننا ويصفوننا بالكلاب الفاقدة للايمان إلى درجة أنني افضل ان أغادر هذه الحياة والله وحده يعلم ما سيحدث لنا".

وبنيت المدارس الخاصة للجنس الأبيض ومنع الجنس الأسود من الدخول إليها والدراسة فيها وشيدت المدن الجميلة للرجل الأبيض واجبر الأسود علي الحياة في أحيائه وعازله القذرة ومثل التمييز العنصري وصمة عار في جبين الحرية الغربية الزائفة، ولم يرحل الإنسان الأبيض إلى أمريكا فقط وانما رحل إلى أفريقيا أيضا وطبق فيها أسوأ أنواع الاستعمار وبني لنفسه علي أراضيها دور السيد الحاكم لعبيد أذلاء وبني لنفسه بقوة الحديد والنار مجتمعا لخدمته.

ومع بشاعة العنصرية والاستعمار فان المرء يحتاج دائما إلى مبرر لقتل إنسان آخر وان هذا المبرر من الصعب إيجاده فى حالة قتل إنسان يتمتع بحق

المســـاواة الكاملة مع القاتل وعلى رأسها حق الحياة، لهذا فان القاتل يلجأ أولا إلى تجـريد الضـحية مـن خصائصها الإنسانية كما يقول الفيلسوف الفرنسى سارتر والـنزول بها إلى منزلة القرود لتبرير جريمته. هذه التبريرات ساعدت على إبادة الكثير من الشعوب للاستلاء على أراضيها وثرواتها.

والسر وراء بقاء بعض الشعوب التى خضعت فيما مضى للاحتلال والعبودية علـى قيد الحياة كما يضيف سارتر هو ليست إنسانية المستعمر أو أسياد العبيد بل هـى أسـباب اقتصادية لان المستعمر ومالك العبيد كان يحتاج إلى الأيدى العاملة الرخيصـة، ولذا فانه فى بعض الأحيان عندما لم تكن هذا الشعوب مستعدة لخدمة المسـتعمر كـان يتم أبادتها مثلما حدث لهنود الحمر الأمريكيين عندما أعلنوا عدم استعدادهم للعيش كعبيد.

وهـذه هـى نظـرية خطيرة جدا إذا طبقناها على الحملات الاستعمارية التى يـتعرض لهـا العـالم الإسلامى حاليا وخاصة الدول الغنية بالنفط لان الاستعمار الجديـد لا يحتاج إلى الأيدى العاملة الرخيصة بل إلى الثروات الطبيعية فقط وهذا يمكن ان يعنى على الأقل من الناحية النظرية بان إبادة شعوب هذه الدول ليست الا مسألة وقت كما حدثت لهنود الحمر ولكن بعد مجئ الفرصة المناسبة واليس تاريخ الإنسانية كله هو تاريخ جرائم الإبادة الجماعية. ولهذا فان كفاح الشعوب المستعمرة يكـون فى اكثر الأحيان على شكل حروبا شاملة ضد المحتلين الأجانب والتضحية بروح الملايين من أبناءها هو ليس الا محاولة للإفلات من الإبادة الجماعية على يد المحتليـن حـتى لـو كانت وسائل الدفاع عن النفس بدائية. فى انغولا التى كانت تخضـع لاحـتلال برتغالى وحشى إلى السبعينات القرن الماضى فان السكان كانوا يقومـون فـى بعض الأحيان بهجمات انتحارية جماعية ضد جنود الاحتلال بحيث كـان النسـاء والـرجال والأطفـال يقفذون بأجسادهم فوق أجساد جنود المحتلين وأسلحتهم لعدم توفر أسلحة لدى السكان للدفاع عن أنفسهم.

ولم يكن حصة المسلمين من الحملات العنصرية والاستعمارية الأوربية افضل مـن حصـة الشـعوب الغير الأوربية الأخرى ولكن بفارق واحد وهو تميز هذه الحمـلات بطـابع ديـنى أيضا اى المعاداة للدين الإسلامى إضافة إلى العنصرية العرقية.

فصـــورة المســـلمين فـــى أوربا قبل وخلال الحروب الصليبية كانت توصف بالبربرية والانحطاط والاعتقاد بان الإسلام لم ينتج الا الاستبداد والعنف والدمار.

وفـــيما يـــتعلق بتاريخ العلاقات الأمريكية الإسلامية فان أولى الاتصالات بين الأمريكييـــن مـــن اصل أوربى والمسلمين لم تكن ودية إذ ان نسبة لا بئس بها من العبـــيد السود المختطفين من أفريقيا إلى أمريكا كانت ذات أصول إسلامية تقدرها الباحـــثة الأمريكـــية اليزابيث صديقى فى بحث لها نشر على موقع بحوالى ١٠%. ومـــن بين هؤلاء العبيد المسلمين كانوا علماء دين تفوق ثقافتهم ثقافة مالكي العبيد البـــيض فـــى بعض الأحيان ولهذا لم يكن من المستغرب بان يصبح هؤلاء العبيد المسلمين مصدرا لتحريض العبيد على الثورة ضد العبودية. فصورة المسلم لم تكن من البداية كما يريد ان يراها الرجل الأبيض.

ويذكر الدكتور كمال سيد قادر أنه فى يومنا هذا يعيش حوالى عشرون مليون مســـلم فى دول الاتحاد الأوربى وحوالى عشرة ملايين مسلم فى الولايات المتحدة الأمريكـــية والحمـــلات العنصرية ضدهم هى فى تزايد مستمر وتشتد حسب تقرير الاتحاد الهلسنكى العالمى لحقوق الإنسان الصادر فى آذار ٢٠٠٥. التقرير المتكون مـــن ١٦٠ صـــفحة يـــتكلم عـــن هجمات جسدية وإهانات لفظية والتميز فى شتى المجالات ضد الاقليات المسلمة فى الغرب.

ولـــم يكـــتف الغرب تاريخياً بشن حروب ضد العالم الإسلامي وإنما تبع ذلك بحملات استعمارية مدمرة على بلدانه. وفي هذا الإطار وظفت الاكتشافات العلمية والـــتطور الصـــناعي والتقنـــي الـــذي حـــدث في الغرب من أجل تدعيم الهيمنة الاســـتعمارية واتســـاع رقعـــتها. فـــ (ليبنـــتز) وهو يضع القواعد الجديدة لعلم الرياضـــيات كان يفكر في احتلال مصر ويقدم من أجل ذلك تقريراً مفصلاً للويس الرابع عشر.

ومـــع زيـــادة حـــركة الاستعمار الغربي في أنحاء متعددة من العالم صيغت نظريات التبرير للحركة الاستعمارية وتغطية استمرارها. فظهر ما يسمى بالنظرية البيولوجـــية السياســـية[٢٠] ، ومضـــمونها أن للـــدول الكبرى حقاً في التهام الدول

٢٠- ويمـــثل هذه النظرية الفيلسوف الألماني أزوالد شبنجلر (١٨٨٠-١٩٣٦) أهم أعماله "انحلال الغرب" و"البناء الجديد للرايخ الألماني".

الصغرى، وأن الشعوب الصغيرة يجب أن تموت وتفنى أمام الدول الكبيرة. هذا ما أكـده (أرنسـت رينان) عندما أعلن: (أن الأوروبي خلق للقيادة كما خلق الصيني للعمـل في ورشة العبيد وكل ميسر لما خلق له!!). وصحبت هذه النظرية الأرض أو الملـك المباح، التي تعني إباحة استعمار الأقاليم التي تسكنها شعوب متخلفة عن ركب الحضارة وقد كتب بعض المستشرقين كتباً يوضحون فيها النظرية البيولوجية العرقية التي حاول المستعمرون تبرير أعمالهم بها، فكتب كوفييه (مملكة الحيوان)، وغوبيـنو (مقالـة فـي التفاوت بين العروق الإنسانية)، وروبرت نوكس (عروق الإنسـان السـوداء)، وغوستاف لوبون (القوانين النفسية لتطور الشعوب). وتهدف هذه الكتب وغيرها إلى القول بأن الشرق ينتمي بيولوجياً إلى عرق محكوم وينبغي له أن يستعبد وهذا قدره ومصيره المحتوم.

وعـن طـريق الاستعمار نهبوا الثروات المتوفرة في بلدان العالم الإسلامي، حـتى أن ثلاث دول أوروبية كانت تقتسم فيما بينها ٩٣% من مجموع التحويلات الخارجية موزعة على هذا النحو: ٤٥% لبريطانيا، ٢٥% لفرنسا، ١٣% لألمانيا. كمـا أن الأجانب في مصر كان عددهم (٢٢٥٠٠٠) عام ١٩٢٠ وفي قبالهم (١٦) ملـيون عـدد سـكان مصر آنذاك، ولكن الأجانب كانوا يملكون ٥٣% من الثروة العامة لمصر.

وبشـكل عام فملف الاستعمار في العالم الإسلامي وعمليات الإرهاب والإبادة والقتل والوحشية والتدمير، لازالت ماثلة أمام أعين الشعوب الإسلامية.

فالـزحف الاسـتعماري الغربـي العنيف وقع علي العالم الإسلامي، في وقت كانـت الدولـة العثمانـية (رجـل أوروبـا المـريض)، تعاني الكثير من أسباب الاضمحلال والضعف، وقد كانت أعراض هذا الضعف قد ظهرت على السطح في عهـد السلطان مصطفى الثاني (١٦٩٥-١٧٠٣م) فعقدت معاهدة (كارلوفتز) عـام (١٦٩٩م) والقـرن السـابع عشر يقترب من نهايته، فكانت هذه المعاهدة استهلالاً سـيئاً للقـرن الثامن عشر بالنسبة إلي العالم العربي والإسلامي. واستمرت العملية الاسـتعمارية الخبيثة تخترق بلدان العالم الإسلامي، وتقوض أسس البنيان في هذه الدول. ففي عهد السلطان عبد المجيد الذي اقترن اسمه بالتنظيمـات أي فرمـان: (١٨٥٤-١٨٥٦م) وتـم بموجـبها اسـتبعاد الشريعة الإسلامية وبدأ تسيير شؤون الدولة وفق المنهج الغربي مما أدى إلى تعميق التبعية وتكريسها حتى وصلت ديون

الإمـــبراطورية في عهد السلطان عبد المجيد (ثلاثمائة مليون ليرة). يذكر السلطان عـــبد المجـــيد في مذكراته واصفاً الحالة الاقتصادية للدولة العثمانية قائلاً: (الدخل العام يقل عاماً بعد عام والإنتاج المحلي كان يضمحل يوماً بعد يوم فقد كنا منذ فترة التنظـــيمات، نأتـــي بكل أشيائنا من أوروبا، المنتوجات الأوروبية غطت كل مكان، أصـــبحت عدة مصانع في طريقها إلي الزوال وهبط دخل الجمارك إلى الحد الذي لايجـــزي بســـبب تلك المعاهدات المعقودة مع الدول الكبرى. لم تعد تكفينا زيوتنا، الطرق غير موجودة، والتخابر صعب كأن أراضـي إمبراطورية تركت لأقدارها).

كمـــا نجـــم عن الاستعمار عمليات إبادة في أفريقيا وفي استراليا وفي أميركا الشـــمالية. كمـــا ان حركات التحرر في الجزائر أو في فيتنام تحولت إلى حروب مدمـــرة. والاستعمار يعني أيضا العبودية اي نفي ١٠ إلى ١٤ مليون رجلا وامرأة بعـــيدا عن أوطانهم. وفي نفس الإطار تميز القرن التاسع عشر وهو عصر الثورة الصـــناعية ب "بتصـــاعد الاســـتغلال الاقتصـــادي للمجتمعات المستعمرة ليصبح منهجيا".

والاســـتعمار مسؤول عن العديد من المشاكل الراهنة في العالم اليوم ساهم بما حدث في كشمير حيث لم يعلن عن الحدود الا بعد مضـي يومين على الاستقلال.... والنتائج لا تزال هناك.

وعـــندما يكـــون طابع الفكر الأوربي السائد هو الطابع الاستعماري (بالمعنى الحديث للمصطلح) ومن هنا يخرج الاستشراق ويندفع بهذا الاتجاه ليخدم كل ما من شـــأنه تكـــريس الاســـتعمار، كتزويد الحكومات المستعمرة بالدراسات والتحليلات الوافـــية عـــن الشرق والبلاد المستعمَرة، وكذلك تزيين صورة المستعمرين وتبرير ممارســـاتهم وإظهارهم بمظهر المنقذ والمحرِّر وحامل راية الحرية والحضارة، أو قد يكون المستشرق عاملاً في إحدى مؤسسات الدول الاستعمارية بصورة رسمية، كأن يكون مثلاً مستشاراً لوزارة المستعمرات في هذه الدول، كما هو الحال بالنسبة للمستشرق الفرنسي "هانوتو" الذي كان يعمل مستشاراً لوزارة الاستعمار الفرنسية، فـــنجدهُ يتجه في دراساته الاستشراقية إلى كل ما يخدم الحركة الاستعمارية لفرنسا في الشرق، بل يحاول توظيف رعيلٍ من المستشرقين لهذا الغرض من خلال رسم مـــناهج بحـــثهم ودراساتهم الاستشراقية من وحي الدوافع الاستعمارية لبلاد الشرق الإسلامي ...

وهكذا صب الجهد الاستشراقي في الإطار الاستعماري لأوربا بشكل مباشر أو غير مباشر. ومن نماذج ذلك ما كتبه "هانوتو" نفسه عن المسلمين وعقيدتهم واضعاً المقترحات الضروريّة في نظرة لتوجيه سياسة فرنسا في مستعمراتها الإفريقية الإسلامية تحت عنوان "قد أصبحنا اليوم إزاء الإسلام والمسألة الإسلامية" وقد نشرت جريدة "المؤيد" في نهاية القرن التاسع عشر ترجمة لمقالته هذه نورد مقاطع منها " ... في تلك البقعة الإفريقية التي أصبحت مقر ملك الإسلام، جاءت الدولة الفرنسية لمباغتته. جاء القديس لويس – الذي ينتمي إلى إسبانيا بوالدته – ليضرم نيران القتال في مصر وتونس، وتلاه لويس الرابع عشر في تهديده الإمارات الإفريقية الإسلامية، وعاود هذا الخاطر نابليون الأول، فلم يوفق في تحقيقه الفرنسيون إلاّ في القرن التاسع عشر، حيث أخذوا على دولة الإسلام التي كانت لا تني في متابعة الغارات على القارة الأوربية، فأصبحت الجزائر في أيديهم منذ سبعين عاماً، وكذلك القطر التونسي منذ عشرين عاماً".

"... إذن فقد صارت فرنسا بكل مكان في صلة مع الإسلام، بل صارت في صدر الإسلام وكبده، حيث فتحت أراضيه وأخضعت لسطواتها شعوبهُ وقامت تجاههُ مقام رؤسائه الأولين، وهي تدير اليوم شؤونهُ وتجبي ضرائبه، وتحشد شبابه لخدمة الجندية، وتتخذ منهم عساكر ينوبون عنها في مواقف الطعان ومواطن القتال". "إن شعباً جمهوري المبادئ (شعب فرنسا) يبلغ عدد نفوسه أربعين مليوناً لا مرشد لهُ إلا نفسهُ – لا عائلات ملوكية فيه يتنازعن عن الحكم، ولا رؤساء يتناولون الرئاسة بطريق الوراثة – هو الذي تقلد زمام إدارة شعب آخر لا يلبث أن ينمو حتى يساويه في العدد، وهو ذلك الشعب المنتشر في الأرجاء الفسيحة والأصقاع المجهولة، والمتبع لتقاليد وعادات غير التي نقولها ونحترمها ... هو الشعب الإسلامي السامي الأصل، الذي يحمل إليه الشعب الآري المسيحي الجمهوري الآن ملح المدنية وروحها!! ليس الإسلام في داخلنا فقط، بل هو خارج عنّا أيضاً ... قريب منّا في "مراكش" تلك البلاد الخفيّة الأسرار، ... قريب منّا في "طرابلس الغرب" التي تتم بها المواصلات الأخيرة بين مركز الإسلام في البحر الأبيض المتوسط وبين الطوائف في باطن القارة الإفريقية، قريب منّا في "مصر" حيث تصادمت معنا الدولة البريطانية فصادمنا إيّاها في الأقطار الهندية، وهو موجود وشائعٌ في "آسيا" حيث لا يزال قائماً في بيت المقدس وناشراً أعلامهُ على

"مهـد الإنسانية مقر المسيح"، ويحسب أنصاره وأشياعهُ في قارات الأرض القديمة بالملايين وقد انبعثت منهُ شعبة في بلاد الصين فانتشر فيها انتشاراً هائلاً حتى ذهب البعض إلى القول بان العشرين مليوناً من المسلمين الموجودين في الصين لا يلبثون أن يصيروا مائة مليون، فيقوم الدعاء لله مقام الدعاء "لساكياموني" وليس هذا بالأمر الغريب، فإنه منتشرٌ في الآفاق ...".

"لا تظنوا أن هذا الإسلام الخارجي الذي تجمعهُ جامعة فكر واحد، غريب عن إسلامنا (في تونس والجزائر) ولا علاقة له به، لأنهُ وإن كانت البلاد (الإسلامية) التي تحكمها شعوب مسيحية ليست في الحقيقة (دار إسلام) وإنما هي دار حرب، فإنها لا تزال عزيزة وموقّرة في قلب كل مسلم صحيح الإيمان، والغضب لا يزال يحوم حول قلوبهم كما تحوم أُنثى الأسد حول قفص جلست فيه صغارها، وربما كانت قضبان هذا القفص ليست متقاربة ولا بدرجة من المتانة تمنعها عن الدخول إليها من بينها".

"يؤخذ مما تقدم أن جراثيم الخطر لا تزال موجودة في ثنيات الفتوح وعلى أفكار المقهورين الذين أتعبتهم النكبات التي حاقت بهم، لكن لم تثبط هممهم، نعم ليس لمقاومتهم رؤساء يشدّون هذه المقاومة، ولكن رابطة الإخاء الجامعة لأفراد العالم الإسلامي بأسره كافلة بالرئاسة، ففي مسألة علاقتنا بالإسلام تجد المسألة الإسلامية والمسألة الدينية والمسائل الداخلية والخارجية شديدة الاتصال بعضها ببعض، وهذا ما يجعل حلها صعباً.

في التاريخ الحديث(٢١) يمكن أن يؤرخ العلاقة (المواجهة) بين المشرق (العالم العربي والإسلامي) والغرب. بدخول نابليون الفرنسي يمتلكها لم يستطع المسلمون الدفاع عن أنفسهم، وبالجيش العلمي اكتشف الشرقيون مقدار تخلفهم وانحطاطهم الحضاري لذلك اعتبر برنارد لويس حملة نابليون (١٧٩٥-١٨٠١م) أول قوة مسلحة عبدت الطريق للغرب الحديث في الشرق الأوسط وأول شرارة كهربائية في طريق التغريب في الشرق الأوسط.

لقد كانت هذه العملية إيذاناً ببدء مسيرة الهيمنة والسيطرة الغربية (الاستعمارية) علي مقدرات العالم الإسلامي وثرواته.

٢١- أنظر: محمد محفوظ، الإسلام، الغرب، وحوار المستقبل.

إن تدهـور حالـة العـرب والمسلمين التي أحاطت بفترة الاستعمار وظهور الـثورة الصناعية في أوربا أحيت المشاعر القديمة وأخرجت الشيطان من قمقمه. فالانـتقام من العالم الإسلامي في ظل هذه الواقع الجديد أصبح ممكنا وخيراته في متـناول الـيد. وهذه المرة نجحت الحملات العسكرية الاستعمارية فانغمس العالم الإسلامي في ليل طويل ذاق المسلمون خلاله ويلات كبيرة ودك في جسمه مسمار الـتخلف لقـرون قادمـة. كـل شيء نهب، وكل شيء انتهك: الممتلكات، الحياة، الكرامة. وعمت حالة من البؤس واليأس كل المجتمعات الإسلامية واستغلت ثرواتها لدعـم الـتقدم والتطور في بلاد الغزاة المستعمرين وبدا الفرق واضحا بين معارك الفـتوحات الإسلامية وحملات الإبادة الاستعمارية. وفي ظل هذه الظروف الجديدة شرع في تنفيذ استراتيجية واسعة لإفراغ الشعوب المستعمرة من مضامينها الثقافية والحضـارية وأصبح يراد للإسلام، الذي صنع مجد المسلمين، أن يخرج من دياره أو، علـى الأقـل، أن لا يظهر إلا في أدنى تعبيراته كالأحوال الشخصية أو بعض الطقـوس التعـبدية مـثلا. ولـلـتأكد من نجاح هذه الاستراتيجية[٢٢] منع الأنديجان (السـكان الأصليين) من أي سبيل للترقية الاقتصادية والاجتماعية كما حرم أبناؤهم مـن التربـية والتعلـيم. وفي مقابل ذلك أعدت نخب منهم أُلحقت ثقافيا بالمستعمر وهُيئـت لتكون في الخدمة حالا ولتضمن استمرارية مصالح أسيادها مستقبلا. غير أن الذي حدث هو أن الثقافة الإسلامية التي أريد لها أن تنطمس هي التي قاوم بها المسـلمون وهـي التي بِاسمها بزغت في ظلمة الاستعمار حركات النهضة (بدءا بالأفغاني إلى عبده ورضا والنورسي وابن باديس والبنا وغيرهم) وتوالت حركات مقاومـة كثـيرة وحروب تحريرية طاحنة إلى أن تحقق الاستقلال في كامل البلاد الإسلامية.

لقـد تركت هذه الفترة جراحات عميقة عميقة وعلى إثرها بدأت تظهر مشاكل بالغة الخطورة في ميادين شتى ميزت مرحلة ما بعد الاستعمار.

٢٢- الاستراتيجية كلمة أصلها يوناني مشتقة من كلمة استراتيجس Startegos التي تعني القائد أو الحاكم وليس فقط القائد العسكري بل المدني أيضاً لأن الحاكم أو الإمبراطور في الأزمنة القديمة هو الذي كان يقود الجيش في ميادين القتال، فكل السياسات العسكرية والاقتصادية والاجتماعية الصادرة عن ذلك القائد سميت بالاستراتيجية.

٩

الفصل التاسع

القرن العشرين

الفصل التاسع

القرن العشرين

وشهد القرن العشرون الحرب العالمية الأولى والثانية، وحروب فيتنام، والشرق الأوسط، والخليج، والبلقان، وأفريقيا.

وفي البداية نشير إلى أنه إذا كان العالم قد شهد على مدى تاريخ البشرية صراعات دامية، فإن النصف الأول من القرن العشرين قد– شهد نشوب حربين عالميتين لعلهما كانتا أكثر دموية من أى حروب أخرى شهدها العالم. فقد التهمت هاتان الحربان أكثر من خمسينا مليونا من البشر، بما قد يقترب من أعداد ما راح ضحية حروب العالم السابقة فى التاريخ المعروف ولكن مما يثير الانتباه فى هذا الصدد أن هاتين الحربين العالميتين لم تكونا بين حضارتين مختلفتين، وإنما كانتا داخل حضارة واحدة هى الحضارة الغربية. كما أن الحرب الباردة[1] أيضاً كانت

١- الحرب الباردة اصطلاح يطلق على العلاقات الجديدة التي نشأت بين المنتصرين في الحرب العالمية الثانية خلال الفترة بين نهاية هذه الحرب وانهيار الاتحاد السوفيتي. عمليا كان قطبا الحرب هما الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفيتي، وكان هدف كل منهما الحصول على مناطق نفوذ عسكري أو سياسي وتوسيعها كلما كان ذلك ممكنا، والطرفان، وان كفا عن استخدام السلاح الا انهما لم يتوقفا عن تطوير قدراتهما العسكرية والدخول في سباق تسلح لم يشهد له العالم مثيلا من قبل وهذا السباق من ابرز سمات الحرب الباردة إضافة الى سعي كل من الطرفين للاستئثار بمناطق نفوذ علي حساب الآخر والمناكفة عن طريق اشعال حروب محدودة لاستنزاف الخصم، ولقد التزم الطرفان بالقواعد التى شكلتها هذه المرحلة ولم يتجاوزاها الى حرب ساخنة حتى في اشد الأزمات بينهما كما هو الحال في أزمة صواريخ كوبا. الحرب الباردة، بعكس الحرب الساخنة التي تُشعل فيها النيران ويتبادل فيها الأطراف القصف والضرب هي حرب استمرت بين الأعوام ١٩٤٥ الى ١٩٩٠. وكان الاتحاد السوفيتي وحلفاؤه طرفاً من أطراف الحرب وكان هذا الطرف يسمى بالكتلة الشرقية أو المعسكر الشرقي. ومن الجانب الآخر، الولايات المتحدة وحلفاؤها وكانوا يعرفون بالمعسكر الغربي او الكتلة الغربية. تمثلت الحرب بالشعور المتبادل بين الطرفين بانعدام الثقة وتقديم سوء النية على حسنها. وفي مرحلة من المراحل (أزمة الصواريخ الكوبية)، تنامت الشكوك بين الطرفين بما أوحى باندلاع حرب عالمية ثالثة. وكانت الولايات المتحدة وحلفاؤها يتهمون الاتحاد السوفيتي بنشر الفكر الشيوعي في العالم بينما كان الاتحاد السوفيتي يتهم الكتلة الغربية بنشر الإمبريالية ومنع الحركات الثورية. استمرت الحرب الباردة بعد الحرب العالمية الثانية حتى عام ١٩٩٠ بتفكك الاتحاد السوفيتي. وفي الفترة المذكورة، قامت عدّة صراعات مسلحة بسبب الحرب الباردة كحرب كوريا، فيتنام والغزو السوفيتي لأفغانستان. وظلّت تلك الصراعات العسكرية محدودة لعدم تعرض الكتل الكبيرة أو شعوبها للأذى. في الصراع الاستراتيجي بين الكتلتين، كان هناك صراع من نوع آخر تمثل في الصراعات التقنية وسباق التسلح كما لم يدّخر الطرفان جهداً في عملية التجسس واغتيال عملاء الطرف الند. وتجدر الاشارة ان الصراعات المسلحة الجانبية كحرب فيتنام ومثيلاتها أرّقت منام العالم في احتمال تطور تلك الصراعات الى حرب عالمية نووية. كان

داخل حضارة واحدة ذات أيديولوجيتين مختلفتين. وهذا يعني أن الصراع بين بني الإنسان لا يكون بالضرورة بين حضارات مختلفة. فالحضارة الحقيقية تعني في جوهرها التقدم المادي والروحي للأفراد والجماعات، أي أنها ترتقي بالإنسان مادياً وروحياً، وتهذب من أخلاقه، وتحد من نزعاته العدوانية، وإنما يكون الصراع بين البشر من أجل مصالح ومطامع وأيديولوجيات متباينة وأهداف دينية أو سياسية، فهو إذن صراع قوى تهدف به إلى فرض سيطرتها وتسلطها على قوى أخرى.

أما الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) أو الحرب التي "أنهت جميع الحروب" وفيها تم استعمال الأسلحة الكيميائية لأول مرة ولم يحرك العالم عدداً من الجنود مثلما حرّك في الحرب العالمية الأولى. وتم قصف المدنيين من السماء لأول مرّة في التاريخ وتمت فيها الإبادات العرقية.

وشهدت الحرب ضحايا بشرية لم يشهدها التاريخ من قبل، وتم تغيير الخارطة السياسية لأوروبا.

وتعد الحرب العالمية الأولى البذرة للحركات الإيديولوجية كالشيوعية وصراعات مستقبلية كالحرب العالمية الثانية، بل وحتى الحرب الباردة. حيث شكلت الحرب البداية للعالم الجديد ونهاية الأرستقراطيات والملكيات الأوروبية. وكانت المؤجج للثورة البلشفية في روسيا التي بدورها أحدثت تغيراً في السياسة الصينية والكوبية كما مهدّت الطريق للحرب الباردة بين القضبين "الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة". ويُعزى سطوع بريق النازية لهزيمة ألمانيا في الحرب وترك الكثير من الأمور معلقة حتى بعد الحرب. وأخذت الحروب شكلاً جديداً في أساليبها بتدخل التكنولوجيا بشكل كبير في الأمور الحربية وبعدما كانت الحروب تخاض بتقابل جيشين متنازعين في ساحة المعركة بعيداً عن المدنية، فقد كانت المدن المأهولة بالسكان أصبحت ساحات للمعركة مما نتج عن سقوط ملايين الضحايا. واستعملت الدبابة لأول مرة في الحرب العالمية الأولى.

من نتائج الحرب الباردة انهيار الاتحاد السوفيتي وميلاد النظام العالمي الجديد الذي نادى به الرئيس الأميركي السابق جورج بوش الأب ،عقب نهاية حرب الخليج الأولى، التي أسقطت شبه النظام الإقليمي العربي، وقد سمح النظام العالمي الجديد للولايات المتحدة الأميركية القطب الذي كسب الحرب الباردة الانفراد بالسياسة العالمية وتطويعها وفقا لمصالحها ورغباتها وفرض رؤيتها على الدول والتدخل في شؤونها وصار العالم يتشكل وفقا للنمط الأميركي من التعددية الحزبية إلى التجارة الحرة والحدود المفتوحة دون مراعاة لاية خصوصية دينية أو ثقافية ..

كـان بـرنامج التسـلح الألماني البحري يقوم على أن يكون لألمانيا أسطول بحـري مقـاتل يكـون أقوى من أي قوة بحرية تملكها أعظم دولة بحرية معادية، وشـهدت الحرب العالمية الأولى انهيار أربع إمبراطوريات عظمى وهى الروسية والألمانـية والنمساوية – المجرية والعثمانية واستمرت أربع سنوات وخمس عشرة أسـبوعاً، اشـتركت فيها ثلاثون دولة، وجندت لها خمساً وستين مليون مقاتل، لقى مصـرعه فـيها ثمـان ونصـف مليون، وجرح أو أثر تسع وعشرون مليون(٢) واحتفظـت المدن الأوربية بذكريات الموتى والمشوهين وآثار الغاز السام والخانق وأعمال الحصار والدمار والتمرد والثورة وحتى عندما انتهت الحرب حدثت تسوية معـاهد فرسـاى ١٩١٩ الـتى كانت تسوية خراب ودمار للعالم أجمع لأنها كانت تسوية هلامية كتبت بطريقة نابوليونية متشددة ضد ألمانيا وطبقت بطريقة ويلسونية مائعة أعطت الفرصة الذهبية لظهور أخطر شخصية دموية فى التاريخ.

وهو أودلف هتلر (٣) :

وعلى الرغم من انتهاء الحرب الأولى عام ١٩١٨ الا أن الصراع ظل مشتعلاً ولكـن بـنار هادئى ريثما تنفجر الخلافات فقفزت ألمانيا فى غضون سنوات قليلة وتأهبت من أجل السيادة العالمية ومرت بديكتاتورية هتلرية صارمة وطالبت بوحدة ألمانيا وضم الأقليلت الألمانية فى البلادج المجاورة فى دولة الرايخ ونجح هتلر فى ذلك ثم طالب بمجال حيوى لألمانيا مما مهد لها الأرض للتوسع والانطلاق.

وإذا كانـت الحـرب العالمية الأولى تميزت بالحرب الجالسة فالحرب الثانيى تمـيزت بالحـرب الخاطفـة الكاسـحة واستخدام استراتيجية الرعب فكانت الدول الصـغرى تسـقط فى أيام والكبزى فى شهور وأصبحت أوروبا من النرويج حتى

٢- عبد الحميد البطريق: التيارات السياسية المعاصرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٩، ص ١٩٦.

٣- ادولـف هـتلر (٢٠ أبريل ١٨٨٩ إلى ٣٠ أبريل ١٩٤٥) – بالألمانية: Hitler Adolf). قائد حزب العمال الوطني الاشتراكي وزعيم ألمانيا النازية من الفترة ١٩٣٣ إلى ١٩٤٥. في الفترة المذكورة، كان يشغل منصب "مستشار ألمانيا"، ورئـيس الحكومـة والدولـة. كـان هتلر خطيبا مفوّها وذا جاذبية وحضور شخصي قويين. ويوصف الرجل كأحد الشخصـيات الأكثر تأثيرا في القرن العشرين ويعزى له الفضل في انتشال ألمانيا من ديون الحرب العالمية الأولى وتشيد الآلة العسكرية الألمانية التي قهرت أوروبا. فقادت سياسة هتلر التوسعية العالم إلى الحرب العالمية الثانية ودمار أوروبا بعد ان أشـعل فتيـلها بغـزوه لبولـندا. وبسقوط العاصمة برلين في نهاية الحرب العالمية الثانية، أقدم هتلر على قتل نفسه وعشيقته ايفا براون في قبو من ألبية برلين بينما كانت برلين غريقة في بحر من الخراب والدمار.

اليونان ومن فرنسا حتى قلب الاتحاد السوفيتى قد خضع للقوة النازية ورقص هتلر وهو يتناول النبيذ تحت برج ايفل الشهير.

وقد ذهبت الحرب بأرواح العديد ممّن شاركوا فيها ففرنسا خسرت جيلا كاملا من شبابها.

وتعــد الحــرب العالمية الثانية من الحروب الشموليةً وأكثرها كُلفة في تاريخ البشــريةً لأتساع بقعة الحرب وتعدد مسارح المعركة، فكانت دول كثيرة طرفاً من أطــراف الــنزاع. وتكبّد المدنيون خسائر في الأرواح إبّان الحرب العالمية الثانية أكــثر مــن أي حــرب عرفها التاريخ، ويعزى السبب للقصف الجوي على المدن والقــرى التي ابتدعها الجيش الألماني على مدن وقرى الحلفاء مما استدعى الحلفاء بالرّد بالمثل، فسقط من المدنيين من سقط من كلا الطرفين. في نهاية الحرب، كان هــناك ملايين اللاجئين المشردين، أنهار الاقتصاد الأوروبي ودمر ٧٠% من البنية التحتية الصناعية فيها.

وقامــت القــوات المســلحة الأمريكية بإلقاء قنبلتين نوويتين على مدينتين في الــيابان وهما هيروشيما وناكاساكي في ٦ أغسطس و٩ أ ١٩٤٥ على التوالى أثناء الحــرب العالمية الثانية وكان الغرض إجبار اليابان على الاستسلام بدون شروط. قــتل جراء إلقاء القنبلتين زهاء ١٢٠,٠٠٠ شخص من جراء التأثيرات الناجمة من انفجــار القنــبلة الــنووية واعــداد اكثر فيما بعد نتيجة التأثيرات الإشعاعية للقنبلة النووية وكان ٩٥% من الضحايا مدنيين، بعد أسبوع واحد من إلقاء القنبلتين أعلنت الــيابان فــي ١٥ ا أغسطس استسلامها بدون قيود او شروط ولحد هذا اليوم هناك أراء متضــاربة حــول استعمال الأسلحة النووية حيث يعتقد البعض ان الأمر كان ضــروريا لإيقــاف الحــرب العالمية الثانية بسرعة للحيلولة دون اراقة المزيد من الدماء بينما يرى البعض الأخر ان استعمال القوة كان مبالغا فيه.

تــم تصــنيع القنبلتين في الولايات المتحدة وساهم علماء من المملكة المتحدة وكندا إضافة إلى علماء أمريكيين في تصنيع القنابل ذو الانشطار المصوب التي تم إسقاط إحداها على مدينة هيروشيما وقنابل الانشطار ذو الأنضغاط الداخلي التي تم اســقاط احداهــا علــى مدينة ناكاساكي وكان الاسم السري لمشروع التصنيع هو مشــروع مانهاتــن وتــم اختبار أول قنبلة في ١٦ يوليو ١٩٥٤ في منطقة تدعى صحراء ألاموغوردو Alamogordo الواقعة في ولاية نيو مكسيكو New Mexico

في الولايات المتحدة. اتخذ القرار بإسقاط القنبلتين من قبل الرئيس الأمريكي آنذاك هاري ترومان.

قبل إلقاء القنبلتين قامت الاستخبارات العسكرية الأمريكية بتزويد البيت الأبيض بقائمة من الأهداف التي اعتبرت كأهداف حيوية وهي: كيوتو، هيروشيما، يوكوهاما كوكورا، نيگاتا ولكن تم حذف كيوتو من القائمة فيما بعد وتم استبدالها بناكاساكي. مدينتي هيروشيما وناكاساكي اختيرا لكونهما مركز اتصالات لحركات الجيش الياباني حيث لم توجد في اي من المدينتين مصانع عسكرية او معسكرات ضخمة للجيش الياباني والنقطة الأخرى التي ساهمت في اختيار المدينتين هي كونهما لا تحتويان على سجون للمعتقلين من الجيش الأمريكي.

تم تكليف الطيار بول تبيتس Paul Tibbets الذي كان يقود طائرة من نوع B-29 بإلقاء قنبلة الولد الصغير التي كانت أحد القنابل ذو الانشطار المصوب على هيروشيما وتكليف الطيار تشارلس سوييني Charles Sweeney الذي كان يقود طائرة من نوع Bockscar بإلقاء قنبلة الولد السمين التي كانت من قنابل الانشطار ذو الأنضغاط الداخلي على مدينة ناكاساكي وقد تعرض قرار وضع هاتين الطائرتين فيما بعد في متحف الطائرات الحربية الأمريكية اشمئزازا من قبل الكثيرين.

ادرك المركز الرئيسي للاتصالات العسكرية في طوكيو ان هناك خللا في اتصالاتها مع مدينتي هيروشيما وناكاساكي حيث قطعت جميع الاتصالات السلكية واللاسلكية مع المدينتين فأرسلت القيادة اليابانية مجموعة من الطائرات للاستطلاع بعد ٢٠ دقيقة حيث شاهد الطيارون اليابانيون سحابة ضخمة فوق المدينتين على بعد ١٦٠ كم ولم تدرك القيادة اليابانية تفاصيل ما حدث الا بعد ١٦ ساعة عندما قام الرئيس الأمريكي هاري ترومان بتصريح حول إلقاء القنبلتين من البيت الأبيض.

وبعد سنوات من إلقاء القنبلتين لقي ٦٠,٠٠٠ آخرين حتفهم نتيجة التأثيرات الإشعاعية للقنبلة النووية إضافة إلى ١٢٠,٠٠٠ الذين لقو حتفهم في الدقائق الأولى للانفجارين وحسب الإحصاءات المحلية للمدينتين والتي قدمت عام ٢٠٠٤ وصل العدد الإجمالي للضحايا إلى ٢٣٧,٠٦٢.

وأفرزت أوروبا الحركة الفاشستية fascism [٤] والذى أفرز شباباً تربى على مبدأ " اعتقد – طع – حارب) وتشبعوا بالمثل التى يرمى اليها الفاشست وهى السيادة والسيطرة على الشعوب الصغيرة" [٥] والنازية التي دمرت الكثير من الإنجازات الإنسانية حينما حكمت الأولي في إيطاليا والأخرى في ألمانيا. وديكتاتورية الجنرال بريمودي ريفارا عام ١٩٣٤م، والجنرال كارمونا في البرتغال عام ١٩٣٩م. بعدما استولى على مدينة لشبونة الجنرال غوميز دي كوستا. وفي اليونان عام ١٩٢٥م مع الجنرال بنفالوس. وبلغاريا بزعامة تسانكوف بين عام ١٩٢٣ و١٩٢٦م.

وخلفت الحرب خسائر بشرية جسيمة بلغت ٥٥ مليون قتيل و٣٥ مليون جريح و٣ مليون في عداد المفقودين وأصبحت مدن العالم خراباً وحطاماً ففى فرنسا تحطم نحو ٥٥,٠٠٠ ألف مصنع و٢ مليون مسكن وأكثر من ٧٠٠٠ كيلو متر من السكك الحديدية و٧٥٠٠ من الكبارى والجسور، وفى روسيا تهدمت مدن لا يقل عددها عن ١٧٠٠ وأكثر من ٧٠,٠٠٠ قرية وتشريد نحو ٢٥ مليون شخص وأكثر من ٣٠ ألف مصنع.

ولكل هذه الأمور أصبحت مسيرة العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي مليئة بنقاط التوتر والحذر وبؤر الانفجار والمواجهة. وبفعل حالة الحذر والترقب التي كانت تسود العلاقة التاريخية بين الطرفين أصبحت القضية معركة تاريخية مستمرة.

وكشف العنف الأوربي عن عبقريته الوحشية الفذه عندما اخذ أثناء الحروب العالمية يبني المصانع الضخمه لقتل البشر بالجملة وقد كانت هذه الصانع المقامة للفتك والقتل تبدأ عملها بعد فترة طويلة من التعذيب وكان التعذيب جسدي ونفسي

٤- اصطلاح الفاشية "fascism" مشتق من الكلمة الإيطالية fasces، وهي تعني حزمة من الصولجانات كانت تحمَل امام الحكام في روما القديمة دليلاً على سلطاتهم. وفي تسعينيات القرن التاسع عشر بدأت كلمة فاشيا "fascia" تستخدم في إيطاليا لتشير إلى جماعة أو رابطة سياسية عادة ما تتكون من اشتراكيين ثوريين.وكان توظيف موسوليني لوصف الجماعة البرلمانية المسلحة التي شكّلها في اثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها أول موسوليني في زيه الفاشي مؤشرا على ان اصطلاح "fascisma" قد حظي بمعان أيديولوجية واضحة، وعلى الرغم من ذلك فعادة ما يفتقر توظيف اصطلاحي "الفاشية" "fascism" و"الفاشي" "fascist" إلى الدقة، فكثيرًا ما تستخدم كاصطلاحات تهدف إلى الإساءة السياسية للخصوم السياسيين والاتهام لهم بالدكتاتورية ومعاداة الديمقراطية.

٥- على عبد اللطيف: الجالية الإيطالية فى مصر، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٠، ص ٢٦.

ويـتعرض فـيه الإنســان بكل ما نجح فيه العقل الأوروبي في إنتاجه من وسائل امـتهان الكرامة البشرية لقد تجاوزت وسائل العنف الأوروبي الحدود التي لا يمكن للعقل الإنساني تصديقه.

ومــن ســخرية التاريخ الهزلى الأوروبى أن الحلفاء كانوا يدعون أن الحرب قائمــة فــى ســبيل جعل العالم مكاناً آمناً !! وينعم بالديمقراطية والحرية وأعلن تشمبرلين أن بريطانيا قد أعلنت الحرب بدافع من أسباب عادلة!!

ولمــا كــان منطق الأرقام منطق حاسم نعرض إحصائيات قام بها الأوربية، أنفســهم كمــا قام بها خبراء منظمة هيئة الأمم المتحدة بلغ ضحايا الحرب الأولي عشــرة ملاييــن نسمه والثانية ثلاثين مليون من البشر، وهي أرقام تحمل اصدق الأدلة علي مقدار ما بلغه الغرب من عنف.

ويحفل تاريخ أوروبا بنماذج من الطغيان والاستبداد، وقد عُني الفكر الإنساني بهذه الظاهرة، **ونعطى نموذجاً لأشهر أساتذة الصدام فى فترة عصر النهضة** وامتد تأثيره حتى اللحظة الراهنة وهو "نيقولا مكيافيللي".

"ماكيافيللى نموذجاً" :

مــن مواليد فلورنسة عام ١٤٦٩. كان ابوه محامياً معروفاً بنزعته الإنسانية. بدأ حياته المهنية عام ١٤٩٨ في ميدان العمل السياسي. وإذا كان مكيافيللي قد ألف الكثير من الكتب والدراسات في حقول التاريخ، وخاصة تاريخ فلورنسة، والسياسة والدبلوماســية والاستراتيجية: فان اسمه قد ارتبط تحديداً بكتابه الذي يحمل عنوان "الأمير".

المقولــة المركزية التي يسهب مؤلف هذا الكتاب في تحليلها بالمبادئ الفكرية والفلســفية التي طرحها مكيافيللي هي تلك التي أكد فيها بان "القوة تصنع الحق" في المــنظار السياسي للطامحين إلى السلطة. كما رأى بان الناس يجدون في القوة ما يدفعهــم للخضوع لها. وكان مكيافيللي قد شغل منصب مستشار كبير في جمهورية فلورنســة عــندما لم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره. كما تولى العديد من الوظائف السياســية الرفــيعة اثبت من خلال ممارستها بانه سياسي ودبلوماسي بارع يعرف كيف يواجه المسائل الدقيقة ويحافظ بنفس الوقت على ولائه لوظيفته وللسلطة التي تمــثلها. وقــد عــرف كيف يحافظ على مواقعه الا في حالة واحدة مثلت نوعاً من

الاستثناء في مسيرته وتخص علاقته بسلالة آل ميديتشي في فلورنسة الذين اختلف معهـم واتهموه بالتآمر لحساب معارضيهم مما جلب عليه غضبهم ودفعهم إلى نبذه ممـا جعلـه يعرف لفترة من الزمن مرارة التشرد. لكن ذلك التشرد اعطاه هامشاً اكـبر مـن الحـرية حيث تحدث بهذا الخصوص عن التمايز الكبير بين ما كانوا يظهرون وما كانوا يبطنون.

بحـث مكيافيللـي تـاريخ أوروبـا خـلال القرون الأربعة التي تلت انهيار الإمـبراطورية الرومانية امتدت من القرن الثاني عشر وحتى السادس عشر والتي تمـيزت بكثير من الجمود والانحطاط وسيادة التوجهات الظلامية ومحاكم التفتيش Inquisition وتحجر المجتمع.

وقـد ركـز دراساته بشكل خاص على الحالة الإيطالية حيث حاول ان يبرز مفارقاتها وتناقضاتها من موقع المفكر والمشارك في صنع الحياة العامة.

وكانـت الفـترة التي عاش فيها مكيافيللي، كما يصفها مؤلف هذا الكتاب، هي تلك التي شهدت اعمق التحولات الفكرية والسياسية في التاريخ الأوروبي الحديث، وهـي الفـترة المعـروفة بعصر النهضة الأوروبي الذي كانت إيطاليا، وفلورنسة بشكل خاص، أحد منابته الأساسية على صعيد الفن والفكر والأدب ومفاهيم السياسة والحكـم وسـلطة الدولة. كما شهد القرن الخامس عشر في نهاياته، وبدايات القرن السادس عشر تزايداً وتكدساً كبيرين على صعيد الثروات وتوسعاً في حركة التجارة وتنامـياً في دور سلطة رأس المال. هذه الظواهر كلها ادّت في الواقع الاجتماعي إلـى ظهور طبقات جديدة لم تكن ولاداتها بعيدة عن جو التوتر الكبير الذي تميزت فـيه تلك الفترة، وخاصة بين انصار القديم وعلى رأسهم ممثلي الكنيسة الكاثوليكية وبين دعاة الثقافة الجديدة في شتى الميادين.

باختصـار شـهدت الفترة التي عاش فيها مكيافيللي احداثاً اقتصادية وسياسية كبـيرة لم يكن اقلها انهيار عرش البندقية وظهور مشروعات ذات طابع استعماري مـع مـا رافـق ذلك من نزعات توسعية باتجاه أسبانيا والبرتغال، وأيضا ظهور الشـركات الكـبرى علـى صـعيد التجارة مع ما رافقها من مفاهيم جديدة تتعلق بالأسعار وبالإنتاج والربح وتكدس الثروات هذه المفاهيم التي هزّت أسس المجتمع القديـم وأبـرزت قيماً جديدة تقوم بشكل أساسي على المصلحة والمنفعة في مجال

المعـــاملات والعلاقـــات الاجتماعية. كانت تلك هي البدايات الحقيقية لقيام المجتمع الرأسمالي وصعود سلطة الطبقات البورجوازية.

وتزامن التبدل الاجتماعي العميق الذي عرفته بدايات القرن السادس عشر في أوروبا مع نهضة فكرية كان دعاة الفكر ذي النزعة الإنسانية، او ما يمكن ان نطلق علـيهم تسمية "الإنسانيين" هم اقطابها الحقيقيون، وهم من يتم اعتبارهم الآن بمثابة رواد الحضـــارة الأوروبـــية الحديثة. هؤلاء المفكرون عكفوا على دراسة تجارب الشـعوب والأمـــم منذ زمن الإغريق والرومان القدماء وتأملوا تاريخ الممالك التي ســادت لفـــترة من الزمن ثم انهارت وطواها الزمن. لقد حاولوا ان يفهموا أسباب نهوضـــها وعظمتها وأسباب انحطاطها وانهيارها. وناقشوا أيضاً مختلف النظريات السياسية الخاصة بنظم الحكم وآليات عملها والقواعد التي تقيم شرعيتها عليها. وقد بـــرزت ضـــمن هذا السياق أسماء مفكرين عديدين كان في طليعتها اسم مكيافيللي وخاصـــة فـــي كتابـــيه الشهيرين "الأمير" و"المقالات" وكان من شأن الأفكار التي طرحها هؤلاء المفكرين ان ساهمت في الكشف عن الآليات الزائفة التي سادت في آليات ممارسة السلطة خلال العصر الوسيط في أوروبا.

وقـــد تمـــثل أحد المصادر الأساسية في تشرب مكيافيللي للفكر الإنساني الذي ســـاد فـــي عصــــره في الأسرة التي عاش بكنفها اذ كان ابوه محامياً واسع الثقافة والاطـــلاع وذا نزعة إنسانية تبدّت في تعلقه بالثقافة وبالتراث الإنساني منذ الحقب القديمـــة. وقـــد وجّـــه الأب ابنه بهذا الاتجاه وغرس فيه حب الثقافة والمعرفة. لقد انكـــبّ الشـــاب مكيافيللـــي على دراسة النتاج الفكري الإنساني واهتم بشكل خاص بدراسة فن السياسة وتاريخها، وحيث كانت قد بدأت بالاقتراب من موقع العلم "علم السياسة" المحكوم بمعطيات الواقع وعلاقات البشر وأدوات القوة.

وأبـــدى مكيافيللـــي منذ كتاباته الأولى كفاءاته الكبيرة كناقد للواقع الذي كانت تعيشه إيطاليا. وقد اعتمد في نقده على رصد الواقع أولاً ورسم لوحة عيانية له كما هـــو وبكـــل معطياته وتلاوينه ومكوناته. لقد درسه "كما هو" وليس "كما ينبغي أن يكـــون"، واعتبر "مكيافيللي" باستمرار ان الخطوة الأولى في التأثير بأي واقع تتمثل قـــبل كـــل شـــيء بفهمه من خلال موازين القوى الحقيقية الموجودة فيه. وقد رفع مكيافيللـــي شعاراً، رفعه أيضاً المفكرون الإنسانيون كلهم، يقول بأولوية "الفضيلة" والتـــي كانت بمفهومها السائد آنذاك بمثابة مرادف لـــ "الرجولة الكاملة" وضرورة

التميز عن الآخرين من اجل امكانية تسييرهم وقيادتهم من موقع "الاقوى". فكرة "التمايز" عن الاخرين كانت في فترة مكيافيللي احد أهم القيم في جميع الميادين حيث عنت مفهوم "البطولة" في الفن والأدب والسياسة والاقتصاد... الخ.. وكان هذا يتطلب في واقع الأمر تغيرات جوهرية عميقة في النظرة إلى العلاقات السائدة آنذاك والموروثة من خلال تجربة عدة قرون شكلت فترة العصور الوسطى.

وتكمن خصوصية المسيرة الفكرية والسياسية التي مثلها مكيافيللي في كون انه بنى هذه المسيرة بالاستفادة من دروس التاريخ ومحاولة فهم الأسباب العميقة الكامنة وراء انتصارات الاقدمين وهزائمهم. وقام على أساس هذه الدروس بدراسة تجارب الحكم السائدة في عصره على أساس السلوك العملي لأصحاب القرار في علاقتهم باولئك المعنيين بقراراتهم وذلك بالاعتماد على أساس "السلوك العملي" وليس على أساس معايير اخلاقية لا تمت بصلة إلى ذلك السلوك بل وتتناقض معه في أحيان كثيرة. باختصار ناقش مكيافيللي علاقات الواقع والنظم الاجتماعية وآليات عملها وتمفصلاتها ودور الحاكمين بالمحكومين فيها وعناصر القوة والضعف فيها على أساس معطيات الواقع، وعلى أساس "الفعل" وليس "القول".

ويقارن مؤلف هذا الكتاب بين ما فعله مكيافيللي على صعيد السياسة وما فعله "كالفن" في مجال الإصلاح الأخلاقي على أساس مبادئ الكنيسة، و"جان كالفن" هو مصلح ديني وكاتب فرنسي عاش في النصف الاول من القرن السادس عشر، وقد قاد حركة عرفت باسم "المكالفينية" والتي كان لها دور كبير على الصعيد الاقتصادي رغم انها كانت دينية بحتة في الأصل. انها مجدت العمل وأجازت مبدأ الاقتراض وهكذا ارتبطت إلى حد كبير مع ازدهار الرأسمالية. وساهمت "الكالفينية" على الصعيد السياسي بتطوير المبادئ الديمقراطية والقيم الثقافية. ان مثل هذه الأفكار وجدت أصداءها لدى مكيافيللي، وذلك من حيث المطالبة بالاستفادة من دروس التاريخ وفهم معطيات الواقع والتأقلم معها بقصد إمكانية التقدم إلى الأمام.

لقد درس مكيافيللي التاريخ القديم، واهتم بشكل خاص بدراسة الهزائم والانتصارات منذ حروب "البيلوبونيز" وخطط اثينا واسبرطة. وانتهى إلى استنباط العديد من النتائج التي اعتبرها ذات قيمة مستمرة وفي مقدمتها التأكيد على أهمية فهم الواقع والتأقلم مع الظروف المتغيرة بعيداً عن الأطر الجامدة والتصورات الذهنية التي قد لا تكون ذات صلة بالواقع، بل يفصلها عن هذا الواقع، الواقع نفسه.

وقـد أولـى مكيافيللـي في تحليلاته أهمية كبيرة للاقتصاد الذي اعتبره بمثابة أحد المحركات الأساسية للتاريخ وللتطور الإنساني.

وقـد أولـى مكيافيللـي أهمية خاصة أيضاً لدراسة "فن الحرب" كما جاء في عـنوان احـد فصول هذا الكتاب وحيث يؤكد المؤلف بان صورة مكيافيللي القائد والمـنظر الحربـي طغـت الـيوم بشـكل شبه كامل على صورته كرجل سياسة وكدبلوماسي على الرغم من السنوات الطويلة التي امضاها في مناصب دبلوماسية ضمن إطار حكومة فلورنسة ورغم أعماله الكثيرة حول السياسة وفنها.

لكـن هـذا لا يمنع واقع ان شغله الشاغل كان باستمرار هو التنظير لـ "فن الحكم" والذي كان "فن الحرب" احد أدواته الرئيسية وكانت مهمة مكيافيللي في فترة من الفترات هي إعادة تنظيم جيش فلورنسة وإجراء إصلاحات مطلوبة على صعيد اختـيار المحاربين ورسم خطط الحرب. وكان موقع المسئولية الذي وجد نفسه فيه ولمرة واحدة في حياته، مناسبة لا تعوض بالنسبة له كي يحقق نظرياته على ارض الواقـع، ولـيس فـي ميدان السياسة، ولكن على صعيد "فن الحرب" هكذا اصبح المـنظر رجـل فعـل وتطبيق على الواقع. لكن أثناء المواجهة مع الأسبانيين عام ١٥١٢، هربـت اعـداد كبيرة من "الميليشيات" التي كان مكيافيللي قد عبأها على أسـاس مفاهـيمه "الحـرب" وكـان ذلك بمثابة فشل ذريع بالنسبة له ونهاية لتقلده مناصـب عليا في اية حكومة لاحقة، لكنه كان بنفس الوقت مناسبة للقيام بدراسات نظرية معمقة حول أسباب تلك الهزيمة. ولا يتردد مؤلف هذا الكتاب في التأكيد بأن كتابات مكيافيللي حول الحرب كانت معادلة على الأقل، لكتاباته حول السياسة. وقد كـان كتابه "فن الحرب" من أواخر الأعمال التي قدّمها وظهر من خلالها بوضوح اهتمامه المستمر بكل ما يتعلق بالقوات العسكرية وقادتها وخططها وحملاتها. ومن الملاحظ بان مكيافيللي خالف في اطروحاته حول "الحرب" الأفكار التي كانت سائدة في عصره وخاصة فيما يتعلق بطبيعة الجيوش ونمط قيادته وطالب بعملية إصلاح شبه كاملة للمفاهيم الدفاعية كما طالب بالعودة إلى تقاليد حربية مغرقة في القدم.

ودرس مكيافيللـي أنماطـاً عديـدة من الحروب شهدتها إيطاليا في عصره. حـروب بين الأحزاب المتصارعة ونزاعات داخلية وتدخلات أجنبية. ولاحظ بأن أهم السمات التي كانت سائدة آنذاك تمثلت بنقص الثقة المتبادلة بين جميع الأطراف والاعـتماد فـي أغلب الاحيان على المرتزقة. ان مكيافيللي أكد في جميع كتاباته

رفضـــه القـــاطع والمانع لمفهوم "المرتزقة"، وقد أعاد هذا الرفض إلى عدة أسباب تعود "للتجارب المعاشة التي عرفها وعايشها هو نفسه وإلى خيار فكري لديه وإلى تعلقـــه بـــبعض القيم الأخلاقية والمدنية"، وكان يرى بان "المرتزقة الذين يطالبون دائمـــاً بالمزيد من المكاسب كانوا يثقلون كثيراً على خزينة الحكومات". ومن جهة أخرى كانوا في جميع الحالات يقومون بالخدمة مقابل المال وبالتالي لم يكن لهم اي ولاء حقيقي سوى لاولئك الذين يقومون بـــ "توظيفهم".

بالمقـــابل دافـــع مكيافيللـــي عـــن فكرة تقول بان "أبناء المدينة والبلاد وحدهم المهـــددون بحـــياتهم وبممتلكاتهم يمكن ان يحاربوا ويقبلوا التضحيات التي تتطلبها الحمـــلات العسكرية الحقيقية" وهو يؤكد دون اي غموض أو التباس بان "المعنيين من أبناء البلاد بالحرب مؤهلون للانتصار ضد أولئك الذين يحاربون مقابل "المال". وفـــي الواقع تتمثل فلسفة "فن الحرب" لدى مكيافيللي، بالدرجة الأولى، على مقولة "غـــياب ايـــة مصـــلحة وطنية لدى المرتزقة الذين قدموا من مشارب متنوعة ولا ينتمون إلى وطن محدد".

بكـــل الأحوال يبقى كتاب "حول الحرب" هو أحد أهم مؤلفات مكيافيللي اذ انه يسـمح إلـــى حد كبير، وأكثر من أغلبية أعماله الأخرى، بفهم شخصيته وبادراك اتســـاع معارفه وثقافته الموسوعية وأيضاً ميله الكبير نحو الدقة والاهتمام باصغر التفاصيل والتأكيد على ضرورة الحسابات بأرقام دقيقة وليس تقريبية. ولعل من أهم الصفات التي تفرد بها بالقياس إلى الذين سبقوه او عاصروه من الذين قدموا أفكارا حـــول التنظـــير الحربـــي هـــو انه كان على دراية كبيرة بالأبعاد التقنية للمسائل العسكرية ولـــ "فن الحرب" بالمعنى الدقيق لهذا التعبير. اما الداء الأكبر الذي يرى به مكيافيللي الخطر الأكبر فانه يتمثل في "الفساد" الذي يهدم أسس المجتمع ذاتها.

ومـــن الأفكار الأساسية في اطروحات مكيافيللي تأكيده المستمر والحازم على ان المصـــالح المادية تشكل محركاً أساسيا من محركات التاريخ. وان وجود سلطة قويـــة يشـــكل أفضـــل الضمانات لصيانة هذه المصالح. وتبدو هذه الفكرة في حالة تصـــالح كـــامل مـــع فترة بدايات ازدهار الآليات الرأسمالية على صعيد الاقتصاد والمجـــتمع. مـــع التأكـــيد فـــي الوقت نفسه على أهمية القيام بـــ "قراءة" صحيحة لتجارب الاقدمين والاستفادة من حكمتهم، وحيث يقول في كتابه الشهير "الامير" ما يلـــي: "لقد رجعت إلى تجارب الاقدمين وغادرت معهم واستوضحتهم عن الخلفيات

التــي قامــت علـــيها أعمـــالهم". وفي المحصلة النهائية يرى مكيافيللي ان "المجد والـثراء" هما في طليعة الأهداف السامية التي ينبغي على الانسان العمل من اجل تحقـيقها. امـــا القـــانون فهو امر مطلوب لكن بناء جيش اكثر أهمية منه، ذلك ان القـانون بحاجــة إلى جيش قوي يحميه، والناس "اكثر التزاماً بمصالحهم الفردية"، كانــت الــنزعة الفردية قيمة أساسية في عصر مكيافيللي وقد دفع هذه النزعة إلى أقصـــاها عندما قال في جملة منقوشة على قبره: "ان ابلغ تعابير التأبين أقل عظمة من هذا الاسم".

برنارد لويس نموذج آخر

برنارد لويس Bernard. Lews

ولـــد بـــرنارد لويـــس في لندن عام ١٩١٦، وهو مستشرق بريطاني الأصل، يهودي الديانة لعائلة يهودية أشكينازية، صهيوني الانتماء، أمريكي الجنسية.

تخـــرج من جامعة لندن سنة ١٩٣٦، ودرس في باريس، وتتلمذ على كل من ماسينيون الذي كان يعنى عناية خاصة بتاريخ الفرق الإسلامية وبالتصوف. وعلى هاملتون جب الذي نال على يديه الدكتوراه عن أطروحته في تاريخ الإسماعيلية.

عمـــل بـــرنارد فـــي جامعة لندن مدرساً في قسم التاريخ - مدرسة الدراسات الشـــرقية الإفريقية - حتى ترأس هذا القسم في أول أكتوبر ١٩٥٧، وظل رئيساً له مـــدة خمسة عشر عاماً. ثم انتقل إلى قسم دراسات الشرق الأدنى بجامعة برنستون بولايـــة نيوجرسي الأمريكية سنة ١٩٧٣، بالإضافة إلى عضويته الدائمة في معهد برنســـتون للدراسات المتقدمة. حصل برنارد على الجنسية الأمريكية سنة ١٩٨٢، وهو الآن أستاذ متقاعد، ومازال يحتفظ بمكانته العلمية في الجامعة.

وظـــف بـــرنارد علمه وإمكاناته وذكاءه لخدمة قضيته (المشروع الصهيوني) بأبعاده السياسية والثقافية، فتقاطع مع المشروعين الغربي الأوربي في مرحلة ومع المشـــروع الأمريكي في مراحل. ودون أن نزعم أن برنارد لويس لم يكن يتقاطع مع الحقيقة. فهو في منهجه العلمي ليس رصيناً لا يمكن النيل منه ولكنه في الوقت نفسه كان يجيد جملة أمور:

- الانتقائية حيث يختار من الحقائق، ومن السياقات التاريخية ما يؤيد رؤاه.

- التعمـيم فـي غير محله حيث يعتبر الجزئية أساساً ويلغي الكلية، ويعتبر الفرد ويترك الجماعة، ويعتبر الفرق ويضرب عن الأصل.
- وهـو يجـيد توظيف الحقائق الصغيرة على نحو يجعلك تعجب ببراعته وقدرته على الإقناع، ببداهات ومعلومات تنتزع من سياقتها لتوظف في سياقات أخرى.
- وكصـاحب قضـية دخل برنارد دائماً بآراء مسبقة حاول أن يجد لها في عالم الإسلام والمسلمين شواهدها.

كتـب برنارد لويس كثيراً. وتداخل في تاريخ الإسلام والمسلمين، حتى اعتبر مـرجعاً فـيه، فكتب عن الحشاشين وعن أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرامطة وكتـب فـي الـتاريخ الحديـث كتابات ليست في مستوى البحوث التي قدمها في الكـتابات التاريخـية، ذلـك أن الـنزعة الصهيونية التي يصرح بها هو ويؤكدها سـيطرت على كتاباته في التاريخ الحديث، فظهرت أقرب إلى الكتابات الإعلامية مـنها إلـى الكـتابات العلمية المنهجية. وكتب عن الإسلام والغرب، وعن صدام الحضارات تأسيساً لما كتبه زميله (صموئيل هنتقتون)، وكان العنوان الفرعي لهذا الكـتاب (المسيحيون والمسلمون واليهود في عصر الاكتشافات)، وكتب عن الشرق الأوسـط: ألفـا سـنة مـن التاريخ من فجر المسيحية حتى يومنا هذا، وكتب عن الساميين وغير الساميين). عن (مركز المدينة المنورة لدراسات الاستشراق).

يمثل برنارد شخصية دمثة، فهو سهل الأخلاق، لين العريكة، تخرج على يديه الكثير من طلاب الشهادات العالية العرب والمسلمين، الذين يحتفظون عنه بذكريات طيـبة، وهـو عذب الأسلوب، سلس العبارة، مقنع في إيراد الحجج وتوظيفها، ولا سيما لغير المختصين.

ومن أشهر مؤلفات برنارد لويس:

أهم مؤلفاته

- "العرب في التاريخ" (The Arabs in History)؛ ص٢٥٦، لندن ١٩٥٠.
  256 ص؛ لندن 1950
- "ظهـور تركيا الحديثة" (The Emergence of Modern Turkey)؛ ص٥٢٤، نيويورك ١٩٦١.

- "الحشاشون: فرقة متطرفة في الإسلام" (The Assassins: A Radical Sect in Islam)؛ ص١٧٦، لندن ١٩٦٧.
- "المسلمون يكتشفون أوروبا" (The Muslim Discovery of Europe)؛ ص ٣٥٢، نيويورك ١٩٨٥.
- "يهود الإسلام" (The Jews of Islam)؛ ص٢٨٠، نيويورك ١٩٨٧.
- "الإسلام: من النبي محمد وحتى فتح القسطنطينية" (Islam: From the Prophet Muhammad to the Capture of Constantinople)؛ ص٣٥٢، نيويورك ١٩٨٧.
- "لغة السياسة في الإسلام" (The Political Language of Islam)؛ ص١٨٤، شيكاغو ١٩٨٨.
- "العرق والرق في الشرق الأوسط" (Race and Slavery in the Middle East)؛ ص٢٢٤، نيويورك ١٩٩٠.
- "عالم الإسلام: إيمان وشعوب وثقافة" (The World of Islam: Faith, People, Culture)؛ ص٣٦٠، نيويورك ١٩٩١.
- "الإسلام والغرب" (Islam and the West)؛ ص٢٤٠، نيويورك ١٩٩٣.
- "الإسلام في التاريخ: أفكار وشعوب وأحداث في الشرق الأوسط (Islam in History: Ideas, People and Events in the Middle East)؛ ص٤٩٦، شيكاغو ١٩٩٣.
- "تشكيل الشرق الأوسط الحديث" (The Shaping of the Modern Middle East)؛ ص٢٠٠، نيويورك ١٩٩٤.
- "ثقافات متناحرة: مسيحيون ومسلمون ويهود في عصر الإكتشاف" (Cultures in Conflict, Christians, Muslims and Jews in the Age of Discovery)؛ ص١٢٦، نيويورك ١٩٩٤.
- "الشرق الأوسط: تاريخ موجز لألفي عام" (The Middle East: A Brief History of the Last 2,000 Years)؛ نيويورك ١٩٩٥.
- "كمال أتاتورك: تحويل صورة أمة" (Kemal Atatrk : Transforming the Image of a Nation)؛ ص١٤١، ١٩٩٥.
- "مستقبل الشرق الأوسط" (The Future of the Middle East)؛ لندن ١٩٩٧.

- "الهويات المتعددة للشرق الأوسط" (The Multiple Identities of the Middle East)؛ ص١٧٦، لندن ١٩٩٨.
- "فسيفساء الشرق الأوسط" (A Middle East Mosaic)؛ ص٤٩٦، نيويورك ٢٠٠٠.
- "ما الخطأ؟" (What Went Wrong?)؛ ص٢٠٨، لندن/ نيويورك ٢٠٠٢.
- أزمة الإسلام: الحرب المقدّسة والإرهاب المدنّس" (The Crisis of Islam: Holy War and Unholy Terror)؛ ص١٩٠، نيويورك.

وينتمي برنارد لويس إلى نخبة من المفكرين[٦] والباحثين التاريخيين وقادة الفكر الإستراتيجي في الولايات المتحدة، أمثال صاموئيل هانتنغتون (Samuel Huntington)، صاحب نظرية "صراع الحضارات" التي استقاها من مقالة للويس بعنوان "عودة الإسلام، وفرانسيس فوكوياما (Francis Fukuyama)، القائل بـ"نهاية التاريخ"، الذين تبنّت أفكارهم ونظرياتهم الداعية، في جلّها، إلى تكريس النظرة الأحادية إلى العالم من بوابة الإمبراطورية الأميركية المنتصرة، مجموعة من صناع القرار في واشنطن، من المحافظين الجدد، وروّجت لها مؤسسات الأبحاث السياسية والإستراتيجية، وصارت كتبهم على قائمة المبيعات الأكثر رواجاً وتغطية على الصعيد الإعلامي.

نجحت هذه المجموعة ودعاتها والمروّجين لأفكارها ومناهجها الفكرية الاستعلائية في أدلجة التنميط، المستشري أصلاً في المجتمع الأميركي، لصورة العرب والمسلمين السلبية، وفي إعطائه بعداً فلسفياً وفكرياً عميقاً، خاصة بعد أحداث (سبتمبر) ٢٠٠١ وارتداداتها الداخلية والخارجية. وعلى خلفية استشراء ثقافة الخوف من الإرهاب التي اجتاحت المجتمعات الأميركية منذ تلك الأحداث، انتشرت على جميع المستويات الثقافية والعقائدية، بما في ذلك تلك التي تعتدّ بليبراليتها، الكثير من التعميمات النمطية التبسيطية والمتعجرفة التي وجدت أرضيةً خصبةً لها في الأوساط الإعلامية الأميركية المعادية أصلاً للعرب والمسلمين. مثالٌ على تلك التعميمات التي أصبحت متداولةً على ألسنة النخب كما العامة: "هذا هو الإسلام"؛ "المسلمون أعداء التغيير"؛ "هم هكذا!"؛ "كان المسلمون وسيظلون على ما

٦- خليل الصغير: ليتذكّر المسلمون نعمة الاستعمار!، مجلة مدارات غربية (لبنان) العدد ٤- الأحد، ديسمبر ٢٠٠٤.

هـم عليه"؛ "الإسلام نقيض الديموقراطية"؛ "العرب معادون للديموقراطية"؛ "الإسلام ضـد الحـرية"؛ "إنهـم يكرهونـنا لأننا نحب الحرية!".. إلخ. وزاد في تفشي هذه الظاهـرة وجود "مستشرقين"، من أمثال برنارد لويس، يملكون من الخلفية الثقافية والفكـرية والمؤهـلات الأكاديمـية والبحثية والخبرة في الطرح والنقد والمجادلة وصناعة الرأي ما يسدّد مراميهم ويؤيّد طروحاتهم المؤدلجة.

ولقـد وقـف المفكر العربي- الأميركي الراحل د. إدوارد سعيد - وهو أحد صـنّاع الـثقافة الغربية في الربع الأخير من القرن المنصرم والناقد الأهم لحركة "الإستشـراق" نـداً عنيداً وناقداً صارماً لتلك الشريحة من المستشرقين الذين "خانوا رسالتهم كبحاثة".

وقـد كـان له رحلة مخصوصة مع " عميد الإستشراق " برنارد لويس، مفنداً مـزاعمه وتعميماته، ومبرزاً حجم التناقضات التي وقع فيها في أبحاثه وتحليلاته، وكاشـفاً حقـيقة مقاصده ومراميه لا سيما لجهة التزامه التصوّر الصهيوني، بشكلٍ سـافرٍ ومبطـنٍ في آن. لكن سعيد لم يوفق في مساعيه النقدية في التصدي لهؤلاء "المستشـرقين الجـدد" لأسباب عدة أبرزها أنه عربي الأصل، وبالتالي فهو لم يكن محايداً- من وجهة نظر أميركية- في مواجهة مفكر يهودي مثل لويس، حيث اتهمه بأنه لم يرَ إلى حركة الإستشراق إلا من زاوية مؤامراتية تخدم المصالح الإمبريالية على حساب شعوب المنطقة.

أمـا أكـثر نقاط النقد لأفكار برنارد لويس إثارة للجدل فهي تلك التي تتصل بأسلوب التنميط والتعميم الذي يمارسه لويس في حق العرب والمسلمين. فهو ينتقي مـواده بشـكلٍ يصـعب على النقاد محاججته أو التشكيك بصحتها. وهو يستشهد، إضـافة إلـى آيـات من القرآن الكريم وأحاديث الرسول، بوقائع تاريخية، قديمة وحديـثة، تنتمي إلى حقبة معينة وتتصل بفئة أو مجموعة أو مجتمع إسلامي بعينه، ثـم يقوم بتحليلها وإسقاط نتائج ذلك ومدلولاته، بشكل تعميمي سافر، على العرب/ المسلمين جميعا وعلى امتداد تاريخهم، أو على حقبة كاملة منه.

فـي كـتابه "مستقبل الشرق الأوسط الصادر عام ١٩٩٧، كتب برنارد لويس نـبوءاته عن مستقبل المنطقة ودولها وشعوبها على أعتاب القرن الواحد والعشرين. وقد عرض الكتاب لمجمل الطروحات الفكرية والسياسية والإستراتيجية التي كانت حينها على قمة أولويات البحث. وازداد الاهتمام بها ليأخذ أبعاداً معولمة بعد أحداث

أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١ وانطلاق الحملة الأميركية في سياق "الحرب على الإرهاب".

لعل أبرز هذه الطروحات: مقاربته لفكرة "دمج الحرية والإيمان بشكلٍ لا يستثني أحدهما الآخر" كحلٍ لمشاكل الإسلام السياسي؛ وتعمّقه في تحليل مفهوم الجهاد لدى الحركات الأصولية الإسلامية، ومقارنته بجهاد الصليبيين المسيحيين في القرون الوسطى؛ إلى مقاربته مستقبل الصراع بين تلك الأصولية الإسلامية والديموقراطية الليبيرالية، رغم ميل البعض من تلك الحركات، كما في تركيا وإيران والجزائر، للقبول باللعبة الديموقراطية كوسيلة للوصول إلى السلطة ومن ثم العمل للقضاء على العناصر والأفكار "المعادية لشرع الله". وبعد مقولة تبنّي وتنظيم وانتشار إرهاب الحركات الأصولية، "الإرهاب في موطنها أثناء وجودها في صفوف المعارضة والإرهاب خارج حدود بلادها عندما تصل إلى السلطة"، يصل لويس أخيراً إلى القضية المركزية المتمحورة حول الصراع العربي الإسرائيلي. في هذا المجال، يبيّن لويس أن الحل لن يتأتى إلا عن طريق التغيير الجذري لأنماط التفكير في العالم العربي والإسلامي. ويرى إلى سيرورة التغيير ابتداء من قبول واعتناق مبدأ التعاون في حل النزاعات، ونمو الحد الأدنى من بنية الإحتكاك والتواصل بين إسرائيل وجيرانها وصولاً إلى "التأقلم". بل أبعد من هذا، فقد يتطور التأقلم مع الوقت ليغدو تسامحاً، والتسامح قبولاً، والقبول ثقةً، وقد تتطور الثقة إلى صداقة"...

أزمة الإسلام :

"أزمة الإسلام: الحرب المقدّسة والإرهاب المدنّس"، هو الكتاب قبل الأخير لبرنارد لويس وقد صدرت طبعته الأولى مطلع عام ٢٠٠٣، أي بالتزامن مع الاحتلال الأميركي للعراق. ويمكن اعتبار هذا الكتاب المتوسط الحجم (١٩٠ صفحة) تكملة للكتاب الذي سبقه "أين الخطأ؟".

في مقدمته، يتضمن الكتاب أربع خرائط تاريخية للعالم الإسلامي هي: عصر الخلفاء: تظهر المد الإسلامي منذ انطلاق الدعوة عام ٦٢٢ م. وحتى عام ٧٥٠ م. إبان العصر الأموي؛ الإمبراطورية العثمانية: تتضمن الإمتداد الجغرافي للدولة الإسلامية منذ عام ١٣٠٠ م. وحتى عام ١٦٨٣ م. (تاريخ فشل الجيش العثماني

في دخول فيينا)؛ (٣) عصر الإمبريالية: التقسيمات الاستعمارية لتركة الإمبراطورية العثمانية بين الدول الأوروبية (بريطانيا، فرنسا، إيطاليا، إسبانيا وروسيا)؛ (٤) الشرق الأوسط الحديث.

حسب برنارد لويس، بدأ التاريخ عند المسلمين مع انطلاق الدعوة الإسلامية نفسها، وهو السبب في تحديد التقويم بتاريخ هجرة النبي محمد من مكة إلى المدينة المنوّرة. أما ما سبق ذلك، من تاريخ لحضارات الأمم التي سبقت واندثرت، فلم يتعدّ الاهتمام به درجة ارتباط ذلك بما جاء في القرآن من روايات وأمثلة عن تلك الأمم والشعوب التي كانت تقبع في درك "الجاهلية". وأما التاريخ الإسلامي فيمثل، بالنسبة للمسلمين، نتيجة حتمية لمشيئة الله، وهو بذلك ذو شأن ديني وفقهي-قانوني هام، في حين لا يحمل تاريخ غير المسلمين مثل هذا البعد الإلهي.

لهذا ظل الاهتمام بالموروث التاريخي لفترة ما قبل الإسلام، في بلاد هي مهد الحضارات الإنسانية التي تنتشر الشواهد عليها في كل مكان، في حدوده الدنيا. فقد انقرضت لغات الأقدمين ودفنت مآثرهم تحت الرمال، حتى جاء البحاثة وعلماء الآثار الغربيين ليعيدوا نبشها ودراستها وفك رموزها.

ظل الإسلام، لأكثر من ألف عام، يمثل المصدر المقبول الوحيد للقوانين والتشريعات الخاصة والعامة في حياة المسلمين. ولم يتغير هذا الواقع حتى في ظل وقوع معظم البلاد والشعوب الإسلامية تحت احتلال الدول الأوروبية لها.

لهذا يبدو الفارق شاسعاً بين عالم الإسلام وبقية دول العالم، حين يتعلق الأمر بالشؤون السياسية، محلية كانت أم دولية. إذ لا يجتمع رؤساء الدول الإسكندنافية من وقت لآخر لمناقشة قضايا البلاد البروتستانتية؛ ولا هي من عادة زعماء اليونان ويوغوسلافيا وبلغاريا والاتحاد السوفيتي أن يتناسوا خلافاتهم الإيديولوجية لعقد اجتماع على خلفية العقيدة الأرثوذوكسية؛ وكذلك لم تحاول الدول الآسيوية التي يعتنق غالبية سكانها البوذية تشكيل تجمع بوذي في الأمم المتحدة. إن مجرد التفكير في تشكيل تجمعات ضمن هذا الإطار في العالم الحديث قد تبدو غريبة وبلا معنى. لكنها ليست كذلك في العالم الإسلامي. ففي خلال مراحل الحرب الباردة جميعها، كان ممثلو أكثر من خمسين دولة إسلامية، من جمهوريات وممالك وإمارات، ومن دول محافظة وثورية، رأسمالية واشتراكية، مدعومة من الشرق والغرب، يشكلون تجمعاً دولياً يلتقي بشكل دوري ليتعاونوا بشأن قضايا تهم بلادهم وشعوبهم.

أحـد أسـباب هـذا التميّز في الموقف السياسي الإسلامي يعود إلى المستوى العالـي مـن الإيمان والممارسة الدينية لدى المسلمين عامة مقارنة بأتباع الديانات الأخرى. السبب الآخر والأهم هو أن الإسلام ليس طريقة عبادية وحسب، وإنما هو أيضـاً هويـة وانـتماء. فبالنسـبة إلى الكثير من المسلمين، يمثل الإسلام الهوية والانتماء بحيث يتفوقان على أي هوية أو انتماء آخرين.

أمـا عن الموجة الثورية الحديثة في الإسلام فتقوم على عدة ركائز. أحد هذه الركائـز الشـعور بالإذلال، وهو شعور مجموعة من الناس اعتادت أن ترى إلى نفسـها كحامـية وحيدة للحقيقة الإلهية. إنها تؤدي واجباً إلهياً بتبشير الكفار بالدين الحنـيف. لكـنها لا تلبـث أن تجد نفسها واقعة تحت سيطرة هؤلاء الكفار أو هي متأثرة إلى حدٍ كبير بهم، وبشكل أدى إلى تغيير أنماط حياة المجموعة. إضافة إلى الإذلال، هـنالك الإحـباط المتأتي من فشل جميع الخيارات المستوردة من الغرب لتغيـير أحـوال الشعوب. وبعد الإذلال والإحباط جاءت الركيزة الثالثة الضرورية للبعـث – الثقة بالنفس من جديد والشعور بالقوة. هذا الشعور انطلق وتنامى خلال أزمـة الـنفط عام ١٩٧٣، حين اتخذت الدول العربية المنتجة للنفط، موقفاً داعماً لمصـر في حربها ضد إسرائيل، باستخدام النفط كوسيلة مؤثرة جداً. الثروة الناتجة عـن ارتفاع أسعار النفط، والفخر، والثقة بالنفس، تم تعزيزها بركيزة أخرى هي: إحتقار الغرب وأخلاقياته.

غـير أن السـؤال الذي يشغل تفكير صناع السياسة الغربيين اليوم هو البحث عما إذا كان الإسلام، أصولياً كان أم تقليدياً، يشكل تهديداً للغرب؟

يشرح برنارد لويس معنى الجهاد كواجبٍ ديني مقدّس، مفاضلاً بين مفهومين للجهاد: جهادٌ أخلاقي غايته تهذيب النفس وترويضها وجهادٌ حربي في سبيل الأمة. وهـو يستشهد في ذلك بآيات من القرآن الكريم وأحاديث النبي محمد. إلى ذلك فهو يـربط مفهـوم الجهـاد بالسـياق التاريخـي للفتح الإسلامي، غرباً باتجاه إسبانيا والـبرتغال وجـنوب غرب فرنسا وجنوب إيطاليا، وشرقاً باتجاه وسط آسيا والهند والصين.

إن مفهـوم الجهـاد الحربـي لدى لويس ينطلق من خطين: الجهاد الهجومي، وغايـته نشـر الديـن الإسـلامي، وخط الجهاد الدفاعي، وغايته الذود عن بلاد المسـلمين. لكن العالم، في نظر المسلمين، مقسوم إلى ثلاث مناطق: "دار السلام"،

وهـي بلاد المسلمين، و"دار الحرب"، وهي بلاد الكفار، و"دار الصلح"، وهي بلاد أهـل الكـتاب، أو المشـركين، أو الكفار، ممن عقدوا صلحاً مع المسلمين يدفعون بموجبه جزية لقاء عدم احتلال بلادهم أو محاربتها.

ولم يتوقف التزام مبدأ الجهاد الهجومي على زمن الفتوحات الإسلامية الأولى بل امتد حتى السنوات الأخيرة من عمر السلطنة العثمانية. فقد اجتاح الأفغان، عام ١٨٩٦، مـنطقة "كـوش" الجبلـية فـي شمال الهند، والتي كان يطلق عليها اسم "كافرستان" – أي بلاد الكفار، لتصبح بعد احتلالها "نورستان" – أي بلاد النور. كما أطلق العثمانيون على بلغراد، والتي كانت مركزاً متقدماً في حربهم ضد النمسا في أواخـر القـرن السابع عشر، إسم "دار الجهاد". وكانت وزارة الحرب التي أنشأها محمـد علـي باشـا فـي مصر، حسب الهيكلية والتنظيم الفرنسي، تدعى "ديوان الجهادية" والوزير القائم على شؤونها يوصف بـ "ناظر الجهادية".

على الرغم من تعريفه لصفتي الجهاد الفردية والعامة، ينتقد لويس أولئك الذين يجهـدون حالـياً للتقليل من أهمية صفته الحربية درأ لشبهة العنف والإرهاب التي ألصقت به. وحسب رأيه، فقد افتقد مفهوم الجهاد في العصور الحديثة "قداسته" بينما حـافظ على بعده الحربي البحت، وهو ما يبدو جلياً في أدبيات الحركات الإسلامية الناشطة في كشمير والشيشان وفلسطين.

يقـول لويـس أنه غداة سيطرة الدول الأوروبية على منطقة الشرق الأوسط، مطلـع القرن الماضي، لم تقم بضمّ تلك البلدان إلى سيادتها المطلقة بالشكل التقليدي الـذي مارسـته فـي بقية المستعمرات والملحقات الأخرى حول العالم. فقد أوكلت عصبة الأمم حينها إلى كل من فرنسا وبريطانيا انتداب تلك البلدان وإدارتها ضمن مهمـة واضحة الأهداف وهي تدريب تلك الشعوب، أو تهيئتها لإدارة شؤونها ذاتياً واسـتقلالها لاحقاً عن سلطة الانتداب، وذلك ضمن فترة قصيرة جداً، بين الحربين العالميتيـن. وقـد تم، مع نهاية الحرب العالمية الثانية، إعلان انتهاء فترة الانتداب ومُنحـت تلـك الـبلدان استقلالها، فيما بقي القسم الأكبر من شبه الجزيرة العربية خارج سيطرة الدول المستعمرة.

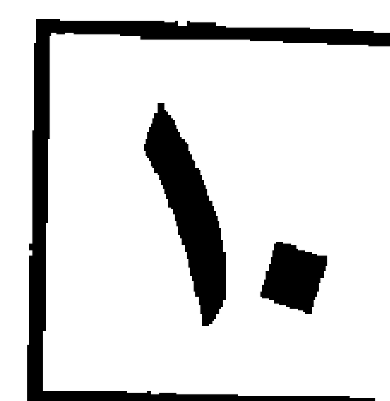
مـع ذلـك، فقـد كـان التأثير السلبي لتلك الحقبة كبيراً جداً في نظر شعوب المنطقة. ورغم تأكيد لويس على أن هذا التأثير ومضاعفاته السلبية كانا كبيرين، إلا أنه يعتبره أدنى بكثير، ولأسباب غير أحادية الجانب، وهو على خلاف ما صوّرته

الأدبيات الوطنية بعد ذلك. فقد كان لتلك الفترة أيضاً حسناتها، خصوصاً على صعد إنشاء البنية التحتية، والخدمات العامة، ونظم التعليم والتغييرات الاجتماعية التي أدت إليها لدى تلك الشعوب، لا سيما لجهة إنهاء ممارسة "العبودية" والانخفاض الكبير في انتشار ظاهرة تعدد الزوجات، مع أنه لم يقضِ على هذه الظاهرة بالكامل. ويمكن بوضوحٍ تلمّس الفارق بين مرحلتي الاستعمار والاستقلال، وذلك بإجراء مقارنة بين البلدان التي وقعت تحت نير الاستعمار، كمصر والجزائر مثلاً، وتلك التي لم تخسر استقلالها، كالسعودية وأفغانستان. فالسعودية مثلاً لم تعرف الجامعات إلا في فترة متأخرة وبأعدادٍ قليلة جداً. وفي حين يبلغ عدد سكان المملكة ٢١ مليون نسمة، فإن عدد الجامعات فيها لا يتعدى الثماني فقط مقارنة مع سبعة معاهد عليا أنشأها الفلسطينيون منذ الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٦٧. أما العبودية فلم يتم حظرها في السعودية حتى العام ١٩٦٢، فيما لا تزال حقوق المرأة مسلوبة حتى اليوم.

يعيد برنارد لويس سبب فشل المسلمين في مواجهة تحديات الحداثة إلى تمسكهم الطوطمي بأمجاد تاريخهم وموروثهم من هذا التاريخ. وهو ما يؤدي إلى انسداد الأفق أمام المحدثين في نظرتهم الموضوعية إلى ما تعاني مجتمعاتهم من تخلف، وتمسك الأصوليين بدوغمائية ظالمة للإسلام وللعالم.

وفي سياق اشتغاله على مقولة تخلّف المجتمعات العربية وقصورها عن اللحاق بركب الحداثة، يعود لويس ليستشهد بسيلٍ من إحصائيات التقارير الصادرة عن المؤسسات الدولية، كالأمم المتحدة والبنك الدولي، والتقارير شبه المستقلة الصادرة عن المؤسسات العربية والغربية غير الحكومية، التي تُبرز وضاعة مركز الدول العربية والإسلامية مقارنة مع بقية دول العالم على كافة الصعد التنموية البشرية، اقتصادية وصحية وتربوية وثقافية وتكنولوجية. مثال ذلك أن لائحة تضم ٢٧ دولة هي الأكثر مبيعاً للكتب في العالم، تبدأ بالولايات المتحدة وتنتهي بفييتنام، ولا تتضمن بلداً إسلامياً واحداً. فيما الأمثلة على صعيد التخلف الاقتصادي لا تعد ولا تحصى، ومنها أن الناتج المحلي الأعلى بين الدول ذات الأغلبية الإسلامية سجلته تركيا، في المركز الـ٢٣، بسكانها البالغ عددهم ٦٤ مليون نسمة، متخلفة بذلك عن الدانمارك التي لا يتجاوز عدد سكانها ٥ ملايين نسمة.

يقــول لويس إن شعوب الشرق الأوسط على يقين متزايد من حجم الهوة التي تــزداد اتساعاً بين الفرص التي يوفرها العالم الحر وبين الوضع المزري من الفقر والاضــطهاد الذي يعانون منه. ردة الفعل الطبيعية هي أولاً ضد الحكام وثانياً ضد القــوى العظمــى، وفي طليعتها الولايات المتحدة، التي تدعم وتحمي هؤلاء الحكام حفاظــاً علــى مصــالحها. لهــذا، لا يبدو مستغرباً أن يكون جميع المشاركين في هجمــات الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) في نيويورك وواشنطن هم من المملكة العربــية الســعودية ومصــر، أي مــن الدول التي يعتبر حكامها من أهم أصدقاء الولايــات المــتحدة فــي المنطقة. أما أكثر الزعماء العرب شعبية لدى العامة في الســبعينات فقــد كــان معمــر القذافي، في حين تبوأ عرش الزعامة الشعبية في الثمانيــنات والتسعينات صدام حسين، وهذا بحد ذاته دليل ساطع على عمق المأزق الذي تعاني منه هذه الشعوب.



الفصل العاشر

نهاية التاريخ

الفصل العاشر
نهاية التاريخ

فـي الأيـام القادمـة وعـندما يكتمل القمر ستنهار عاد[1] كما ينهار كوخ صغير أصابته الصاعقة !!

سادساً: العصر المعاصر (محاربة الإرهاب "الإسلام!!!") :

ولـم يهدأ العنف الغربي لحظه بعد الحرب العالمية الثانية وانما اخذ يجمع كل قواه من جديد وتحالف مع العنف الأمريكي وبدأ مرحله اخري من العنف والتدمير ولـم تكـد تنـته الحرب في أوروبا حتي كشفت أمريكا عن عنفها الجهنمي والقت قـنابلها الذرية على مدينتي هيروشيما ونجازاكي ومحت معالمهما في لحظات قليلة وقتلت مئات الآلاف من المدنيين (سيأتى فى حينه).

وسـلح العنف الأوروبي العناصر الصهيونية وهي عناصر أوروبية وأمريكية في عقلها وتكوينها وأخذت تلك العناصر التي ورثت العنف الأوروبي عام ٤٨ في تطبـيق ذلـك العنف في فلسطين فقتلت وخربت وحرقت وشردت كما قتل وحرق وخـرب وشرد العنف الغربي وأقامت الصهيونية بمعاونة الغرب دوله علي أشلاء ضـحاياها من الفلسطينيين وكشف العنف الصهيوني عن وحشيته العام بعد الآخر ولا زال يقـتل ويعذب الأحرار من شعب فلسطين حتي اليوم ويهدم القري ويطرد النساء والأطفال[2] .

وانطلقت إنكلترا (حامية الحريات!!) أيضاً بعد الحرب الثانية في إثارة الرعب في مستعمراتها وعادت فرنسا إلى الهند الصينية لتتابع أعمال العنف وتخرب وتقتل الأحرار ثم تجبر علي التسليم ولكن أمريكا تحتل مكانها هناك لتكشف عن مقدرتها علي العنف.

ثـم تـبدأ فرنسـا من جديد أعمال العنف في الجزائر لتقتل وتخرب وتصرع ملاييـن مـن شـعب الجزائر وتضيف صفحات سوداء جديدة إلى تلك الصفحات السوداء التي لطخها العنف الأوروبي.

١- المقصود بعاد هنا الولايات المتحدة الأمريكية.

٢- يكفى للدليل على ذلك إلقاء نظرة سريعة على القنوات الإخبارية الموضوعية يومياً بل وكل دقيقة!!.

وشـــهد العالم في السنوات الأخيرة العديد من التغيرات الأيدلوجية التي دفعته إلـــى حقـبة جديدة وشكل غير مسبوق من الصراعات والحروب والتدمير وتحول العالم عبر إنهيار سور برلين وسقوط الشيوعية بعد أن كان ثنائي الأقطاب (بتوازن القـــوى بالاتحـــاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية) إلى عالم أحادي القطب تقوده الولايات المتحدة الأمريكية (حامية الحرية والعدالة!!).

أمـــا الحـــرب فى فيتنام فهى قصة دامية طويلة فصولها تمخضت عن اعتقال ســبعة ملاييـــن فـــى معسكرات الاعتقال وقتل نحو ١٦٠ ألف وتعذيب ٧٠٠ ألف وســـجن ٣٥٠ ألف داخل ١٦ ألف معسكر اعتقال ووصفت بأنها حرب قذرة بشعة استخدم فيها أسلحة محرمة دولياً وإنسانيا[٣] .

وقـــد أدى هذا النموذج الغربي لصراع الحضارات إلى خلق عقدة عظمة لدى الغـــرب، فهـــو حضارة العقل والعلم والحرية والعدالة والتقدم والعمران.. التاريخ تاريخـــه، والعلم علمه، والقيم قيمه، والثورة ثورته، والحاضر حاضرة، والمستقبل مســـتقبله، واللغـــات لغـــته، والـــثقافة ثقافته، وخلق عقدة نقص لدى الشعوب غير الأوربـــية إذ إنها ناقلة ومقلدة وتابعة ومتعلمة وهامش على المركز وفي محيطه.. الغرب يبدع وهي تستهلك. الغرب يفكر وهي تنقل!!

وأصـــبح العـــالم يعاني من ويلات الحروب والتدمير والإبادة أضعاف ما كان يعانـــي وهو في الوضع الثنائي القطب وهو الوضع الذي تسعى فيه كل حضارة أو بالأحـــرى قطـــب مـــن الأقطاب للهيمنة على العالم ولذا فالغالب المتوقع في حال سيطرة ثنائي الأقطاب على العالم حدوث مصادمات فيما بينهم وهذا المشهد متكرر على مدار أزمنة التاريخ فمن الصراع الدائر بين الفرس والروم إلى إنكلترا وفرنسا إلـــى الاتحـــاد الســـوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية وبين كل حقبة وأخرى من هؤلاء تتنوع الأمثلة وتتعدد الأشكال لحضارات تتصارع لتحقيق الهيمنة على العالم أما أن توجد حضارة واحدة يظهر من واقع العالم أنها الحضارة المسيطرة المهيمنة ثـــم بعد ذلك نرى مزيدا من الحروب والويلات والتدمير وملامح الاضطراب على الســـاحة العالمـــية باديـــة لا تخفـــى على أي ناظر فهذا هو المشهد الذي لا بد من الوقوف عنده وتأمله مليا للوصول إلى لبه ومضمونه.

٣- لمزيد من التفاصيل أنظر برتراند راسل: جرائم الحرب فى فيتنام، ترجمة يحي عويس، الشركة المتحدة ١٩٧٠، ص٦٢.

إن وضع تصور حاكم للعلاقات بين الحضارات المختلفة كان الهم الشاغل للعديد من المفكرين والسياسيين والمنشغلين بتحليل الوضع الراهن للمنظومة العالمية حتى يمكن التوصل للفهم الناضج الواعي لطبيعة الأحداث ومن ثم محاولة الانتفاع بها وسوقها في الاتجاه المفيد النافع للبشرية وبناءا على ذلك فقد انطلقت العديد من النظريات تحاول جاهدة فهم وتحليل الواقع ومحاولة توجيه دفته إلى ما فيه النفع لعموم البشرية وظهرت أقوى تلك الأطروحات أو بالأحرى ما كتب له العيش منها على النحو التالي:

ومع انهيار الاتحاد السوفييتي وانفراد الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة العالم بدأت نظريات صدامية بالصعود إلى السطح والظهور لتفسير كيفية تعامل القطب الأحادي مع العالم في ضوء الواقع الجديد ومن هذه النظريات ما خرج به الأمريكي الجنسية الياباني الأصل 'فوكوياما' في عام ١٩٩٢ بما يسمى ويعرف بنظرية "نهاية التاريخ".

تلك النظرية التي انتشرت سريعا لتتداعى بسرعة أكبر ومفادها تصوير انتصار الرأسمالية على الأرض أنها نهاية التاريخ وأن الإنسان الأمريكي هو من وصل إلى أقصى مستوى حضاري ممكن وبالتالي فهي نظرية نهاية الإنسان والتاريخ.

وخلص إلى أن الديموقراطية الليبرالية بإمكانها أن تشكل فعلاً "منتهى التطور الأيديولوجي للإنسانية، والشكل النهائي لأي حكم إنساني". وهو يعتقد أن الإسلام هزم الديموقراطية الليبرالية في أجزاء متعددة من العالم الإسلامي، وهو يشكل تهديداً كبيراً للممارسات الليبرالية، حتى في البلدان التي لم يستطع استلام السلطة فيها مباشرة. وأن الإسلام صار بعد انتهاء الحرب الباردة في أوروبا يشكل تهديداً للغرب.

وهو يعتبر نهاية الشيوعية هي الانتصار النهائي للديموقراطية الليبيرالية. ولهذا الاعتبار فإنه لا شيء أصبح يقلق الهيمنة الغربية وأن العالم ستنتهي أيامه دون أن يقع شيء يمكن أن يوصف بالتاريخي في العلاقات بين الأمم.

ثم تلا هذا المشهد مشهد آخر في أواخر صيف ١٩٩٣ م وكانت أول شرارة أشعلت المشهد مقالة نشرت في صحيفة (الشؤون الخارجية Foreign Affairs)

للمفكر الأمريكي صمويل هنتجتون[٤] ورد على فوكوياما بدراسة مختلفة يتوقع فيها عكس ما ذهب إليه تماما.

وحاول فيها قراءة مستقبل العالم المعاصر وقرر فيها أن الصراع في خلال القرن القادم سيكون صراعا بين الحضارات وليس صراعا اقتصاديا أو أيدلوجيا وقد حدد في نظريته تلك سبع حضارات أساسية وهي الحضارات: الغربية، والإسلامية، والكونفوشيوسية واليابانية، والأرثوذوكسية، والأمريكية اللاتينية، وربما الإفريقية!.

وكل حضارة تستند على دين معين ومجموعة من القيم. أما الصراع فيحدث بين هذه الحضارات بسبب النمو الديموغرافي المتسارع والعولمة التي تزحف باستمرار.

وقد أثارت مقالة هنتينجتون عاصفة من الانتقادات والجدالات والسجالات وقد اختزل هذه الحضارات محرر صحيفة الإيكونوميست (بريان بيدهام)، إلى ثلاث حضارات رئيسية وهي: الغربية والإسلامية والكونفوشيوسية ثم قلل من شأن هذه الأخيرة ليصل إلى نتيجة تقضي بأن الصراع التقليدي بين الجارين اللدودين الإسلام والغرب عائد إلى الواجهة في القرن الحادي والعشرين!.

لقد سقطت أوهام فوكوياما سريعاً.. وتحولات العالم المعاصر وإرهاصاته تؤكد أن التاريخ لم ينته.. بل ربما يكون أمام بوابته الحاسمة، وها هو (هنتينجتون) ينذر الغرب، فيطرح رؤية تمثل التحولات المعاصرة، والدوافع الكامنة في الحضارات الأخرى، ولا تستهين بقدراتها الذاتية في انتشال نفسها من حمأة التبعية والتخلف لتكون نداً مكافئاً للغرب!.

و(هنتينجتون) يخشى على الغرب من رايات الصلة الإسلامية - الكونفوشيوسية (في إشارة إلى التعاون النووي بين الصين وبعض الدول الإسلامية)، وبيدهام يرى أن الأصولية النامية في العالم الإسلامي قد تضع مستقبل الغرب (وليس مصالحه فقط) على كف عفريت! لأنها (الأصولية) لن تتعامل مع الغرب إلا في إطار العداء التقليدي.

٤- البروفيسور صامويل هنتنجتون، أستاذ العلوم السياسية في جامعة هارفارد ومدير في معهد الدراسات الاستراتيجية في هارفارد، هنتينجتن، الذي كان عضوا في مجلس الأمن القومي في إدارة كارتر والذي لا يزال يساهم دائما في نقاشات ضبط السياسة الخارجية الأمريكية.

ونظراً لأهمية نظرية صدام الحضارات نستعرضها فيما يلي :

نظرية صدام الحضارات

هنتنجتون؟

يبدأ هنتنجتون من فرضية أن التاريخ ينتهي مرة واحدة فقط بالنسبة لكل حضارة مثلما حدث للإمبراطوريات الرومانية والعباسية والمغولية والعثمانية والبريطانية.

ويلاحظ أن حضارة الغرب بدأت في التآكل منذ بداية القرن العشرين وتساءل عما إذا كانت حضارة الغرب قادرة علي صحوة تقيها حدة اتجاهها إلى الانحدار، أجاب زاعما بأن حضارة الغرب مختلفة اختلافا جوهريا في تطورها وديناميكيتها عن كل الحضارات التي قامت منذ سنة ١٥٠٠، لأنها تشهد استمرارية في التحديث والتصنيع مما يعطيها قدرة علي التجديد والتواصل.

ويتفق هنتجتون مع كارول كويجلي في كتابه تطور الحضارات والذي يبشر بأن حضارة الغرب قد انتقلت من مرحلة الاقتتال لتكون منطقة أمان حيث لا يتصور قيام حروب بين دول غربية وحيث يشكل الغرب إمبراطورية عالمية تتكون من نظام معقد من النظم الكونفيدرالية والفيدرالية تتبنى التزاما بانتهاج سياسات ديموقراطية تعديدية وانتهي إلي أن الغرب أصبح مجتمعا ناضجا يدخل مرحلة ذهبية وينعم بالرفاهة بدون منافسات من حضارات أخري.

وتعرض نظرية تفوق الحضارة الغربية إلى عوامل تآكل الحضارة الغربية فيحددها بانتشار الجرائم والمخدرات والعنف، وتفكك الأسرة. وهبوط الإسهام في النشاط الاجتماعي، والإفراط في الفردية، وانحسار الأنشطة الفكرية والتعليمية مؤكدة بأنه للحفاظ علي قوة الحضارة الغربية يجب أن ينجح في مواجهة ادعاءات التفوق المعنوي من قبل المسلمين والآسيويين.

ونظرا لأن أمريكا تشكل القوة الأعظم التي تمثل حضارة الغرب، راجت النظرية تستشرف ما أسمته بسمات المجتمع الأمريكي فأوردت أن أمريكا بلد منشق يجد نفسه في ورطة وتتحدد معالمه القومية، ثقافيا بحضارة الغرب، وسياسيا بالعقيدة الأمريكية التي تتمحور حول قيم الحرية والديموقراطية والفردية والمساواة أمام القانون والمؤسسية وحماية الملكية الخاصة.

وعندما تناولت النظرية أوروبا ذهبت إلي أن أوروبا يمكن أن يصيبها الضعف إذا لم تحافظ علي العامل الأساسي المشترك وهو المسيحية. وأكدت أن اضمحلال المسيحية بين أهل الغرب باعتبارها المحور الثقافي يهدد وجود الحضارة الغربية التي لا يمكن أن تعتمد فقط علي عقيدتها السياسية وعن تكامل أمريكا وأوروبا في تشكيل وتمثيل حضارة الغرب، تقول النظرية أن أوروبا بدون أمريكا ستتحول إلى جزء صغير ومتآكل بين بلاد العالم يقع علي شبه جزيرة صغيرة علي مشارف أوراسيا وتعترف النظرية بعدوانية الحضارة الغربية فتقول إن حضارة الغرب خطرة علي العالم لأنها قد تسفر عن حرب شاملة بين الحضارات، فيما تزداد الحضارات الآسيوية والإسلامية قوة. ورغم أن حرب العولمة في نظرها غير محتملة فإنها ليست مستبعدة وقد تنشب نتيجة صراع حضارات مختلفة والأغلب أن تشمل المسلمين في جانب وغير المسلمين في جانب آخر. وتصورت النظرية أن طرفي الصراع هما أمريكا وأوروبا وروسيا (والهند) في جانب، والصين واليابان والإسلام في جانب آخر مستشرفة خطورة ما أسمته بالصحوة الإسلامية والديناميكية الاقتصادية الآسيوية وللحفاظ علي الحضارة الغربية، دعت النظرية إلى مزيد من التعاون السياسي والاقتصادي والعسكري، والي إدخال دول وسط أوروبا في الناتو. والعمل علي استكمال تغريب أمريكا اللاتينية، وأهمية وقف نمو القوة العسكرية الإسلامية التقليدية وغير التقليدية، إلى جانب إبطاء اتجاه اليابان للابتعاد عن الغرب، وضرورة قبول روسيا كقوة إقليمية رئيسية، مع الحفاظ علي التفوق في التقدم التكنولوجي والعسكري.

ويروى الأستاذ محمد الطرابلسى أن الصدام بين الحضارات بحسب هنتنجتون هو تواصل للصراع القبلي ولكن على نطاق عالمي بما أنه ينطلق من فكرة أن الحضارات ما هي الا قبائل إنسانية كبرى وأن الفروق الثقافية هي التي تحتل الموقع المركزي في تصنيف البشر والتمييز بينهم.

ومن أخطر النتائج التي يتوصّل إليها هنتنجتون أيضاً تأكيده بأن الهوية الثقافية تحدد من خلال الصراع مع الأخر، ولذلك فان الهوية تترسخ في أعلى أشكال الصراع أي الحروب. فبالحروب يتحقق التماسك الاجتماعي لأن وجود عدو مشترك من شأنه إزالة الانقسامات داخل القبيلة الواحدة (أي الحضارة الواحدة) ويدفعها إلى الوعي أكثر بثقافتها وبضرورة حمايتها وانتصارها. ولذلك يدحض

هنتنجــتون الدعوة إلى حضارة عالمية مشتركة معتبرا أنها "بدعة" استعملها الغرب لمواجهــة الحضــارات الأخرى، وأملا كاذبا لا يمكن تحقيقه، وهو يدعو إلى ذلك بالتفريق بين التحديث والتغريب، فالتحديث وحده يمكن أن تشارك بقية الحضارات الغرب فيه، أما الحضارة الغربية فتبقى حسب صمويل هنتنجتون ثقافة تميز الغرب عــن غيره. وانسجاما مع هذا المنطق قسم العالم إلى عالمين: العالم الغربي الموحد ذي الخصــائص المشــتركة التــي جعلــت منه كتلة متجانسة من قبل حتى عملية التحديث التي انطلقت في القرن السابع عشر.

أما العالم الآخر فهو "الباقي"، أي بقية العالم، وهو حسب هنتنجتون عالم متعدد الحضــارات كالإسلام والصين والهند وحتى الأرثوذوكس المسيحيين ولا تجمع بين هذا "الباقي" نفس القيم والخصائص المتوفرة لدى الحضارة الغربية.

وبمــا أن كــتاب هنتنجتون ليس مؤلفا في علم الاجتماع كما قال ذلك بنفسه وانمــا هو تصور وتفسير لتطور السياسة الكونية بعد الحرب الباردة، فان صاحب الكــتاب يــتوقع أن تكون العلاقة بين الحضارة الغربية وبقية الحضارات وبخاصة الإسلامية منها علاقة صدامية، فصدام الحضارات هي النتيجة الحتمية للسياسة في عالمنا الجديد، وهي السياسة المقامة على العرق محليا وعلى الحضارات كونيا، بما ســيؤدي الــى صــدام للحضــارات يحــل محلّ الصراعات القومية والاقتصادية والإيديولوجــية التــي عــرفها العالم القديم حسب هنتنجتون. ويتوقع منظر صدام الحضــارات أن تكون أخطر هذه الصدامات هي تلك التي سيكون مسرحها خطوط الــتماس بين مختلف الحضارات حيث يقول في كتابه: " كما أن أخطر الصراعات الثقافية هي تلك التي على طول خطوط التقسيم الحضاري وفي عالم ما بعد الحرب الــباردة، الــثقافة قــوة مفرقة ومجمّعة في الوقت نفسه، الشعوب التي تفصل بينها الإيديولوجيا تجمع بينها الثقافة وتقرب بينها، مثلما حدث في الألمانيتين والكوريتين، وكما بدأ يحدث بين أكثر من صين..."

ويريد هنتنجتون من وراء هذا الكلام التأكيد على أن وحدة المجتمعات لا تقام على أساس القيم الإنسانية المشتركة كالديمقراطية واحترام حقوق الأقليات، أو على المصــالح الاقتصــادية او الظروف التاريخية أو التقارب الإيديولوجي وانما على أســاس "صلات" القربى "الثقافية" اعتبارا وأن "أشكال التطور السياسي والاقتصادي الســائدة تخــتلف مــن حضارة لأخرى"، ولذلك يستنتج هنتنجتون أن الصراعات

المرجحة أكثر من غيرها للتحول إلى حروب واسعة هي الصراعات القائمة بين جماعات ودول من حضارات مختلفة، وأن أخطر تلك الصراعات هي تلك التي ستقوم على طول خطوط التقسيم الحضاري ومنطقتا المتوسط والشرق الأوسط هي إحدى خطوط هذا التقسيم التي يتنبؤ هنتنجتون بأن تشهد إحدى أخطر حلقات الصدام الحضاري.

وحتى نفهم أكثر المقاييس التي اعتمدها هنتنجتون في تقسيم العالم إلى: غرب – وباقي، فانه يتوجب الوقوف على السمات التي ذكرها في كتابه صدام الحضارات وهي حسب زعمه خصائص ثمانية متأصلة في الحضارة الغربية وتميز الغرب عن غيره وهي:

١- التراث الكلاسيكي من الإغريق والرومان[٥] .
٢- المسيحية الغربية الكاثوليكية والبروتستنتانتية (ما عدا الأرتودوكسية).
٣- اللغات الأوروبية.
٤- الفصل بين السلطتين الروحية والدنيوية.
٥- حكم القانون.
٦- التعددية الاجتماعية وقيام المجتمع المدني.
٧- الهيئات التمثيلية.
٨- النزعة الفردية.

لا شك وأن هذه السمات هي خصائص مميزة للغرب في عصرنا الراهن، وهي خصائص تشكل قاعدة موضوعية لنزوع البلدان الغربية نحو إقامة التجمعات الاقتصادية والسياسية.

والذي يشير الدهشة في تصنيف وتحليل هنتنجتون هو سكوته عن الديانة اليهودية بالرغم من تأكيده بأن الديانة عنصر أساسي للتمييز بين الحضارات، ولم يشر إلى الصراع المحتمل بين الإسلام واليهودية، وبين اليهودية والمسيحية. والأسوأ من هذا فإنه لم يستخدم الديانة كمعيار للتصنيف إلا عندما جاء على ذكر الحضارة الإسلامية، فالحضارة الغربية نسبة إلى الغرب وهو مجال جغرافي، والكونفوشيوسية نسبة إلى فيلسوف الصين كونفوشيوس الذي عاش في القرن الرابع

٥- أنظر مقدمة طلعت الشايب، ص ١١.

ق. م واليابانية نسبة إلى بلاد اليابان والهندوسية نسبة إلى بلاد الهند، والسلافية الأرثوذكسية نسبة إلى عرق ودين، والحضارة الأفريقية نسبة إلى القارة الأفريقية وحضارة أمريكا اللاتينية نسبة إلى قارة أمريكا اللاتينية. اختيار معايير متعددة للتمييز بين الحضارات يعتبر إخلالاً بالمنهجية العلمية التي يجب أن تتبع في مثل هذه الموضوعات، المنهجية العلمية تتطلب تحديد المعايير والمفاهيم وبالتالي كان على هنتنجتون أن يصنف جميع الحضارات باستخدام معيار واحد فقط، وفيما لو استخدمنا الدين كمعيار للتصنيف بين الحضارات سيكون عندنا الحضارات التالية: الحضارة المسيحية والحضارة الإسلامية والحضارة البوذية والحضارة اليهودية.

وعلى أية حال فإن تقسيم هنتنجتون للحضارات المعاصرة مثير للتساؤل فإذا كانت الحضارة تحدد بعناصر موضوعية أساسية: الديانة واللغة والعبادات والمؤسسات، وذاتياً بالتطابق والتماثل، فلماذا هذا التمييز بين الحضارة الغربية وحضارة أمريكا اللاتينية ؟، فأمريكا اللاتينية مثل أمريكا مثل أمريكا الشمالية، قارة استوطنها الأوروبيون الذين جاءوا بالديانة المسيحية والعادات والتقاليد الأوروبية وكذلك باللغات الأوروبية، وإذا كان عنصر الثقافة الهندية في أمريكا اللاتينية أكثر أهمية في بعض بلدان أمريكا اللاتينية منه في أمريكا الشمالية، فإن عنصر الثقافة الأفريقية أكثر تأثيراً في أمريكا الشمالية منه في بلدان أمريكا اللاتينية، فإن أمريكا الشمالية وأمريكا اللاتينية الجنوبية مزجت حضارتهما من عناصر حضاراتية أوروبية وعناصر من حضارات أخرى. لكن السؤال الذي لم يطرحه هنتنجتون على نفسه هو لماذا تختلف أمريكا اللاتينية عن أمريكا الشمالية؟

وإذا لم تكن الأرثوذكسية تعبيراً عن الثقافة الغربية فماذا تكون، فإن الشعب السلافي الأرثوذكسي هو شعب أوروبي يتبنى الثقافة الغربية، وأكثر من ذلك ليس هناك اختلاف كبير بين الأرثوذكسية والمسيحية. لهذا لا نعرف لماذا يعزل هنتجتون المسيحية الأرثوذكسية من أشكال المسيحية الأخرى؟ ولماذا يتجاهل أفريقيا مسيحين ومسلمين وغير ذلك؟ وإن كانوا كذلك فلماذا هم متخلفون؟ أنه ليس من الصعوبة الإشارة إلى المركزية الأوروبية في تحليلات خطاب صدام الحضارات.

المركــزية الأوروبــية: حــتى يقنعنا خطاب صدام الحضارات بتميز الغرب وبتفرده عن الحضارات الأخرى قدم لنا هنتنجتون مجموعة من السمات وهي:

١- **المــيراث الكلاسيكي:** إن مواريث الغرب من الحضارة الكلاسيكية متعددة بما فــي ذلــك الفلســفة اليونانــية والعقلانــية، والقــانون الروماني، واللاتينية، والمسيحية.

٢- **الكاثوليكــية والبروتستانتية:** أولاً الكاثوليكية ثم الكاثوليكية والبروتستانتية هي تاريخياً أكثر خاصية متفردة وهامة في الحضارة الغربية. خلال معظم الألف ســنة الأولى من عمرها، كانت الحضارة الغربية يطلق عليها العالم المسيحي الغربــي، وقــد وجــد شعور جماعي حسب قول هنتنجتون فيما بين الشعوب المســيحية حيــث أنهــم كــانوا متميزيــن عــن الأتراك مقارنة بالأندلسيين والبيزنطيــن وآخريــن، خرجــت من أجل الله والثروة في غزوها للعالم في القــرن الســادس عشــر. حركة الإصلاح الديني والحركة المضادة للإصلاح وإنقســام العالم الغربي إلى شمال بروتستانتي وجنوب كاثوليكي هي الأخرى إحــدى المظاهر التي يقدمها هنتنجتون والتي تميز التاريخ الأوروبي، وحسب رأيه هذا لا ينطبق على الشرق الأرثوذكسي وعن خبرة أمريكا اللاتينية.

تابع أولاً: الغرب والآخر

٣- **اللغــات الأوروبية:** اللغة هي العنصر الثاني بالنسبة لهنتنجتون والتي تأتي بعد الديانــة كعنصــر للحضارة ،الغرب يختلف عن الحضارات الأخرى في تعدد لغاتــه، اليابانــية ،والهــندية، والماندارينية والروسية والعربية معروفة بأنها اللغات الأساسية لحضاراتها.

٤- **فصل السلطة الدينية والدنيوية:** بالنسبة لهنتنجتون الحضارة الغربية والحضارة الهندوســية ينفصــل فيهما الدين عن السياسة، وفي الحضارة الإسلامية الله هو القيصر، وفي الحضارة الكونفوشيوسية في الصين وكذلك في اليابان قيصر هو الله، وفــي الأرثوذكســية الله الشــريك الأكبر للقيصر، وحسب رؤية هنتنجتون انقسام السلطة ساهم في تطور الحرية في الحضارة الغربية.

٥- **ســيادة القــانون:** وهــي فكرة موروثة عن الرومان ،إن فكرة سيادة القانون وضــعت الأســاس للنظرية البنائية أو نظرية الحكم الدستوري وحماية حقوق الإنســان، بمــا في ذلك حقوق الملكية، وضد الممارسات التعسفية. في معظم

الحضارات الأخرى كان القانون عاملاً أقل أهمية في تشكيل الفكر والممارسة.

٦- التعددية الاجتماعية: تاريخياً المجتمع الغربي درج على أن يكون إلى درجة كبيرة مجتمعاً تعددياً.

٧- الكيانات التمثيلية: التعددية الاجتماعية أدت مبكراً إلى بروز طبقات اجتماعية، مجالس نيابية ومؤسسات أخرى لتمثيل مصالح الأرستقراطية، ورجال الدين، والتجار وجماعات أخرى. هذه الكيانات زودت بأشكال من التمثيل والتي خلال مجرى التحديث تطورت إلى مؤسسات الديمقراطية الحديثة. وحسب قوله هذا التمثيل على المستوى الوطني بالتالي أصبحت تحكمه درجة من الاستقلالية على المستوى المحلي، لم يحدث مثيله في أقاليم أخرى من العالم.

٨- الفردية: يشير هنتنجتون إلى أن العديد من الخصائص السابقة للحضارة الغربية ساهمت في إنبثاق إحساس من الفردية وتقاليد من الحقوق والحريات الفردية متفردة بين المجتمعات المتحضرة. الفردية حسب رأيه تظل العلامة المميزة للغرب بين حضارات القرن العشرين.

يرى هنتنجتون أن هذه الخصائص هي التي أعطت للغرب تلك الخاصية المتفردة، هذه الأفكار والممارسات والمؤسسات ببساطة كانت أكثر إنتشاراً في الغرب منه في أية حضارة من الحضارات الأخرى، إنها تشكل على الأقل جزءاً من الجوهر الأساسي المستمر للحضارة الغربية، وهي أيضاً وإلى حد كبير العوامل التي ساعدت الغرب على أن يأخذ بزمام القيادة في تحديث ذاته والعالم، غير أن الذي لم يذكره هنتنجتون أن هذه الخصائص لم تلد مع الغرب كما يحاول هنتنجتون إقناعنا به، ولكن جاءت عبر قرون طويلة من التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي بل إن أغلبها لم يكن موجوداً قبل القرن الخامس عشر. فعلى سبيل المثال الموروث الإغريقي والروماني لم يستخدمه الأوروبيون إلا عندما أدركوا أهميته في مواجهة أيديولوجيا الإقطاع. ومما يدعو للاستغراب أن مفكراً مثل هنتنجتون يعمل على تأصيل الحضارة الغربية في التراث الإغريقي في حين يستبعد أصحاب هذا التراث من الحضارة الغربية. وهذا يوضح الخلل في منهجية هنتنجتون الذي يزعم بأنها علمية.

فكيف هي كذلك وهو لايتوخى الموضوعية؟. والملاحظ أن هنتنجتون لم يذكر لنا لماذا ظهرت البروتستانتية؟ ولم يذكر الحروب الطاحنة التي كانت بين الكاثوليك والبروتستانت. ولماذا تسود الكاثوليكية في الجنوب والبروتستانتية في الشمال؟ والأسواء من هذا لم يوضح لنا هنتنجتون كيف يكون تعدد اللغات ميزة للحضارة الواحدة؟ وإذا أخذنا في الاعتبار أن اللغة تعكس ثقافة هذه الشعوب، فكيف يمكن تجاهل ذلك؟ والأسوأ من هذا أن خطاب صدام الحضارات يتجاهل الظروف التاريخية والتي جعلت من الغرب كياناً حضارياً متفرداً فالفصل بين السلطات الروحية والسياسية لم يأت إلا بعد صراع عنيف مع السلطات الحاكمة باسم الحق الإلهي، وأن التاريخ يذكر لنا بأن هذا الفصل بين السلطات لم يتحقق في أوروبا إلا بعد ظهور البورجوازية الأوروبية وما ترتب على ذلك من تداعيات فالعالم كما نعرف جميعاً من التاريخ لم يعرف الحكومات الدينية إلا في التاريخ الأوروبي في العصور الوسطى ولم يعرف الإنسان أسوأ من ممارسات محاكم التفتيش Inquisition وعصور الظلام Dark ages في أوروبا في الوقت الذي كانت فيه حضارات مزدهرة مثل الحضارة العربية الإسلامية ومن الأخطاء التي وقع فيها صاحب صدام الحضارات الرؤية الميكانيكية في خطابه عند طرحه للتعددية واستنتاجاته المبسطة حول نشأة المؤسسات الديمقراطية والبرلمانية المعاصرة بدون التعمق في التحليل أبعد من ذلك. هذه الأسباب كلها تجعل طرح صدام الحضارات يتجاهل الظروف التاريخية التي جعلت من الغرب كياناً حضارياً متفرداً.

وبعد ذلك يستطرد هنتنجتون قائلاً (إن تفكك الاتحاد السوفيتي قد أزاح التحدي الخطير الوحيد للغرب وكنتيجة لذلك فالعالم الآن وسيظل يتشكل بأهداف وأولويات ومصالح الدول الغربية الرئيسية، ربما مع المساعدة من حين إلى آخر من قبل اليابان، وكقوة عظمى وحيدة باقية فإن الولايات المتحدة بالاشتراك مع بريطانيا وفرنسا تتخذ القرارات الحاسمة في القضايا السياسية والأمنية، والولايات المتحدة بالاشتراك مع ألمانيا واليابان تتخذ القرارات الحاسمة في القضايا الاقتصادية.

الغرب هو الحضارة الوحيدة التي لها مصالح جوهرية في كل حضارة أخرى أو إقليم آخر ولها القدرة على التأثير على سياسات واقتصاديات وأمن كل حضارة أو إقليم. المجتمعات من حضارات أخرى تحتاج عادة إلى المساعدة الغربية لتحقيق أهدافها وحماية مصالحها.

ويضـــيف هنتنجتون (الغرب يهيمن كلياً الآن وسيبقى الأول في القوة والنفوذ فـــي حالة حسنة نحو القرن الواحد والعشرين. غير أن تغيرات تدريجية وجوهرية هـــي الأخرى تحدث في توازنات القوى بين الحضارات، وأن قوة الغرب بالقياس إلـــى تلـــك التي التي لدى الحضارات الأخرى سوف تستمر في الإضمحلال وفي الوقـــت الذي تتلاشى فيه صدارة الغرب، كثير من قوته ببساطة سيتبخر وما يبقى مـــنها سينتشر على أسس إقليمية بين الحضارات الرئيسية العديدة ودولها الأساسية. إن أكـــبر أهم زيادة في القوة سوف تحدث ستكون للحضارات الآسيوية، مع بزوغ مجـــتمع الصـــين التدريجي وهو الذي على الأرجح يتحدى الغرب من أجل النفوذ العالمـــي. وهـــذه التحولات في القوة بين الحضارات تؤدي الآن وسوف تؤدي إلى إحـــياء وتأكـــيد الذات الثقافية المتزايدة للمجتمعات غير الغربية ورفضها الممتزايد للثقافة الغربية).

ينتقل هنتنجتون إلى توضيح مظاهر تدهور قوة الغرب مقارنة بالحضارات الأخرى محدداً ثلاثة مظاهر أساسية وهي: السكان، والإنتاج الاقتصادي، والقدرة العسكرية، بالنسبة للسكان يرى بأن الغربيين شكلوا أقلية تتناقص بثبات من سكان العالم. ومن الناحية الكيفية، فالتوازن بين الغرب وسكان الحضارات الأخرى هو الآخر أخذ في التغَـــير، الشـــعوب غير الغربية تصبح أكثر صحة، وأكثر تحولاً نحو حياة المدن، أكـــثر تعليماً، وأفضل تعليماً. مدة الحياة والعمر في هذه الأقاليم ارتفعت إلى درجة هامة بزيادة تختلف من ١١ سنة في أفريقيا إلى ٢٣ سنة في شرق آسيا.

الإنـــتاج الاقتصـــادي: أي حصـــة الغرب من المنتوج الاقتصادي العالمي هو الآخـــر ربما يكون وصل إلى أوجه في العشرينات وأخذ في الهبوط بشكل واضح عـــند الحرب العالمية الثانية. في عام ١٩٩٢ كان للولايات المتحدة الأمريكية أكبر اقتصـــاد فـــي العـــالم، وأول عشر اقتصاديات على القمة شملت أولئك الخمس من الـــدول الغربـــية بالإضافة إلى الدول الرائدة من خمس حضارات أخرى: الصين، اليابان، الهند، روسيا، والبرازيل.

ويشـــير هنتنجـــتون إلى أن الغرب سيبقى الحضارة الأكثر قوة محتفضاً بحالة جـــيدة وهو يدخل العقود المبكرة من القرن الواحد والعشِرين. فيما بعد ذلك سيكون بإمكانـــه أن يستمر في أن تكون له زيادة هامة في البحث العلمي وتنمية المهارات وتطويـــر المقـــدرات ولتجديد التقنية المدنية والعسكرية. الهيمنة على مصدر القوة

الأخــرى قــد آلت بشكل متزايد إلى أن تصبح مشتتة بين الدول الأساسية والدول الرائدة للحضارات غير الغربية.

ويــتابع هانتنغتون[٦] ان "النزاع الأصلي في العالم الجديد لن يكون في صورة أولــية أيديولوجيا، او اقتصادياً، بل سيكون ثقافياً على مستوى الانقسامات العظيمة للإنســانية. وســتبقى الــدول القومــية هــي الأكثر قوة في الشؤون العالمية، لكن النزاعات السياسية الدولية ستحصل بين الأمم والمجموعات من حضارات مختلفة. ان صدام الحضارات سيكون خطوط المعركة في المستقبل".

ويحدد هانتنغتون مصادر النزاع بانها تعود إلى اختلاف التاريخ واللغة والثقافة والتقالــيد، والأكــثر أهمــية هو الدين. كما تعود إلى ان العالم بات مكاناً صغيراً، وازداد الــتداخل بيــن الشــعوب من الحضارات المختلفة. كذلك تعود إلى عمليات التحديــث الاقتصـــادي والتغيّر الاجتماعي، في عالم ينفصل فيه الناس عن هوياتهم الخاصـــة العمــيقة الجذور، والى ان نمو الوعي الحضاري يتعزز بالدور المزدوج للغرب. فمن ناحية، الغرب هو في قمة القوة، وفي الوقت عينه، وربما نتيجة لذلك، هناك عودة إلى الجذور بين الحضارات غير الغربية.

ومــن مصـــادر الــنزاع أيضـــا، يقــول هانتنغــتون، أن الخصائص الثقافية والاختلافات هي الأقل قابلية للتحول، وأخيراً أن المناطقية الاقتصادية تتزايد.

ومن الأمثلة التي يعرضها "ان الثقافة والدين هما أيضاً من الأسس (...) التي جمعــت معـــاً عشر دول إسلامية غير عربية: إيران، باكستان، تركيا، أذربيجان، كازاخستان، قرغيزستان، تركمانستان، طاجيكستان، اوزبكستان وأفغانستان".

كمـــا يرى أن هناك انقساماً ظهر بعد نهاية الحرب الباردة "ما بين الكاثوليكية والأرثوذكســية، وخطــر هذا الانقسام يمتد الآن بين فنلندا وروسيا، ودول البلطيق وروسيا، قاطعاً وبيلاروسيا واوكرانيا، فاصلاً، اكثر فأكثر، ما بين اوكرانيا الغربية الكاثوليكــية واوكرانيا الشرقية الأرثوذكسية. ويتجه الخط غرباً ليفصل ترانسلفانيا عــن بقــية رومانــيا، ويخترق يوغوسلافيا، وبالتحديد على امتداد الإمبراطوريتين العثمانية والهابسبورغية".

٦- أحمد عياش: "صدام الحضارات" وسيناريو الحرب العالمية المقبلة، جريدة النهار اللبنانية، عدد أكتوبر ٢٠٠١.

ويـتحدث هانتنغـتون ملياً عن النزاع ما بين الحضارتين الإسلامية والغربية، الـذي بدأ قبل ١٣٠٠ عام. ويشرح "مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وانبعاث القومـية العربية والأصولية الإسلامية، وتزايد اعتماد الغرب على نفط دول الخليج الفارسي، واندلاع حروب عديدة بين العرب وإسرائيل (بفعل الغرب)".

وتطرق أخيراً إلى نزاعات آسيا، ولا سيما بين المسلمين والهندوس. هذه أمثلة مقـتطفة من مقالة هانتنغتون التي تخلص إلى القول: "الحضارة الغربية هي غربية وحديـثة في آن واحد. والحضارات غير الغربية تحاول ان تصبح مدنية، من دون ان تصبح غربية وفي المستقبل المتصل لن تكون هناك حضارة عالمية، بل سيكون عالم من حضارات مختلفة، وعلى كل منها ان تتعلم التعايش مع الأخرى".

وما ذكره هنتنجتون ليس أمراً جديداً كل الجدة، ولكن الظروف التى طرح فيها أفكاره وتوقيت هذا الطرح هو الذى هيأ المناخ لنشرها ومناقشتها على نطاق واسع فقد جـاءت هذه الأفكار بعد نهاية الحرب الباردة، وفى أعقاب ما تنبأ به الرئيس الأمريكـي السـابق نيكسون من صراع حتمى بين الغرب والعالم الإسلامي، وقال العديـد من مفكرى الغرب أن الإسلام هو الخطر القادم أو العدو البديل بعد سقوط الاتحاد السوفييتي.

إن مـا ذكـره قال رينهولد نيبور[٧] (١٨٩٢-١٩٧١ Renhold Niebur) (أحد اشهر رواد النظرية الواقعية في العلاقات الدولية في القرن العشرين، يفسر السلوك الاستراتيجي من كيسنجر مرورا ببريجنسكي حتى بوش ورامسفيلد إن الذي يسيطر على الشرق الأوسط يسيطر على أوروبة who ever controls the Middle East also controls Europe.

وكذلـك يعـززمـا نقله الكاتب الفرنسيMarius Peltier عن زعيم الثورة البلشـفية فلاديمـير لينين الإدراك الاستراتيجي الأمريكي إن الطريـق إلى باريس تمـر عـبر المغرب the road to Paris goes through the Maghreb، ويقصد المغـرب العربـي، ويظهـر أن قول لينين قد ارتبط بثورة الريف التي قادها عبد الكـريم الخطابـي ضـد الأسـبان فـي منطقة الريف، ولأهمية المغرب العربي الإسـتراتيجية فـي التـنافس بين القوى الأوروبية وضد الاستعمار الفرنسي التي

٧- انظر مقالة احمد سليم البرصان: الشرق الأوسط: إعادة للتفكير، مجلة السياسة الدولية، العدد١٦٤، أبريل ٢٠٠٦.

يعتـبرها أستاذ الجيوبولتيكا الأمريكي المعاصر، سول كوهن Saul Cohn البوابة الخلفـية لأوروبـا وهذا يفسر القلق الأوروبي في التطورات السياسية على بوابته الخلفية.

إن مفهـوم الشرق الأوسط في الدوائر الغربية سواء في بريطانيا أو الولايات المتحدة فيما بعد، ارتبط بآسيا العربية ومصر ليبيا بالإضافة إلى بلاد فارس، إيران حالـيا وإلـى حد ما، في بعض الأحيان تركيا عندما يراد لتركيا أن تلعب دور في الشرق الأوسط كما هو حال حلف بغداد.

ويذكـرنا الآن أستاذ النزاعات الدولية الأمريكي مايكل كلير Michael Klaire فـي مقاله له في مجلة Nation الأمريكية في عددها يونيو ٢٠٠٣، أي بعد احتلال الولايـات المتحدة للعراق 'إن الحرب أوضحت أن نقطة الارتكاز المركزية للتنافس الدولـي هـي منطقة جنوب ووسط أسيا، أي من أفغانستان والجمهوريات الآسيوية الإسـلامية حـتى العراق، الذي اعتبره وليم هملتون أستاذ التاريخ الأمريكي قلب الشـرق الأوسـط The Heart Land of the Middle East ويتساءل هملتون 'هل احـتلال هـذا القلب هو السبب الإستراتيجي الرئيسي للغزو؟' ويجيب عن تساؤله بنفسه إن احتلال العراق يمثل أهمية إستراتيجية كبرى للولايات المتحدة؟.

ويعتـبر الجغرافـي البريطانـي هالفورد ماكندر اول من نبه إلى أهمية نقطة الارتكـاز الجغـرافي The Geographical Pivot of History في محاضرته في الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية في يناير ١٩٠٤، لقد وضع إصبعه على شرق أوروبـا نقطـة الارتكاز الجغرافي والتي أطلق عليها عام ١٩١٩ قلب اليابس في أورآسـيا، التي كان الاتحـاد السوفيتي يسيطر عليها، وطـرح نظريته المشهورة التـي أثـرت فـي الفكـر الإستراتيجي في أوروبا وأمريكا خلال القرن العشرين وحـتى ألان 'من يسيطر على شرق أوروبا يسيطر على قلب اليابس ومن يسيطر على قلب اليابس يسيطر على جزيرة العالم ومن يسيطر على جزيرة العالم يسيطر علـى العـالم، ويقصد ماكندر بجزيرة العالم القديم أسيا وأوروبا وأفريقيا، ولقد فهم نابلـيـون أهميـة قلـب اليابس قبـل ماكنـدر عندما توجـه إلى روسيا وكذلك تأثـر قيصر ألمانيا وليم الثاني وهتلر وموسليني بأهمية قلب اليابس للسيطرة على أوروبا والعالم.

وقــد طــرح نــيقولاي سبيكمان نظرية حافة اليابسة Rimland والتي اعتبر السـيطرة عليها يسيطر على أورآسيا وبالتالي يسيطر على العالم، ونلاحظ أن حافة اليابس هي الهلال الداخلي عند ماكندر هي الهلال أو قوس الأزمات عند بريجنسكي وهــي العــالم العربــي الإسلامي وتسمية الولايات المتحدة الشرق الأوسط الكبير، والــذي لا زال يشــكل الســيطرة علــية نقطــة الســيطرة على العالم كما يؤكد الاســتراتيجيين الغربيين من ماكندر حتى بريجنسكي مستشار كارتر للأمن القومي الأمريكــي، وبــول وولفويتز مهندس احتلال العراق نائب وزير الدفاع الأمريكي الأسبق ومدير البنك الدولي الحالى.

يقــول وليم هملتون أن الخبراء الإستراتيجيين في وزارة الدفاع الأمريكية وفي مجلــس الأمــن القومي الأمريكي،، قد تأثروا بنظرية ماكندر، فالعراق عندهم قلب المــنطقة العربــية الأسيوية، وحسب رأيه ماذا يعني احتلال العراق، السيطرة على البترول، وأن تعين أي حكومة تريدها لتتحكم في خطوط المواصلات الإستراتيجية وتطل على الخليج العربي وتتحكم في الهلال الخصيب وتصبح المنطقة حسب رأي هاملتون تحت الهيمنة الأمريكية من القاهرة حتى إسلام آباد، أي أن تكون المنطقة تحت مظلة السلام الأمريكى Pax Americana.

ولا يخــرج احتلال العراق عن نطاق قول نيبور، بأن من يسيطر على الشرق الأوســط يســيطر علــى أوروبــا، ولكن من الناحية التاريخية أن نقطة الارتكاز الجغرافــي العربــي إذا أخذنا مفهوم ماكندر هي مصر في الشرق الأوسط، ولذلك كــان يتردد في الدوائر الأمريكية لا حرب بدون مصر، في حالة الصراع العربي والإسرائيلي، ولذلك كان الهدف الإستراتيجي الإسرائيلي عند مناحيم بيغن في كامب ديفــيد هــو إخراج مصر من معادلة الصراع العسكري بين العرب وإسرائيل في الشــرق الأوســط ولقــد اخطأ العرب آنذاك في عزل مصر لأنهم وقعوا في الفخ الإسرائيلي.

وإذا أخذنا التاريخ الحديث والمعاصر فان نابليون عندما قام بحملة على مصر والشــام ١٧٩٨-١٨٠١ كان يريد أضعاف الإمبراطورية البريطانية من خلال قطع اتصــالها مــع الهند درة التاج البريطاني وكانت عبقرية المكان المصري في ذهن نابلــيون وبعدهــا تنبهت بريطانيا لأهمية مصر الإستراتيجية للسيطرة على الشرق الأوســط.

إن دور نقطـــة الارتكـــاز مع قلب الشرق الأوسط ارتبط بالأيدلوجيا فقد كانت الفكـــرة الرابطة من صلاح الدين أو قطز رابطه دينية وكذلك كانت في عهد محمد علـــي باشـــا قد تكون توحيد أيديولوجي قومي أو ديني ولكن نلاحظ أيضا أن نقطة الارتكـــاز الجغرافـــي كانـــت لها أهمية ودور مؤثر في القرن العشرين، دور عدم الانحـــياز ودعـــم حـــركات التحرر الأفريقية ثم القومية العربية كانت مصر نقطة الارتكـــاز الجغرافي أعطتها دورا رائدا على مستوى العالم الثالث واحد أعمدة دول عـــدم الانحـــياز أكســبتها أهمية إستراتيجية في نظر القوى العظمى وكانت حملة العـــدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ على مصر من خلال رؤية خطر دور نقطة الارتكاز الجغرافـــي في الجزائر ودعم الثورة الجزائرية أو الوقوف ضد مخططات بريطانيا فـــي منطقة قلب الشرق الأوسط حلف بغداد ودعم حركات التحرر منطقة الجزيرة العربية وأفريقيا وعندما قامت الوحدة بين مصر والشام (١٩٥٨-١٩٦١) استنفرت القـــوى الغربية الأوروبية والأمريكية وإسرائيل خطر هذه الوحدة خاصة لارتباطها بـــالمد القومـــي وهـــي تدل على وعي إستراتيجي قد تكون اكثر من وعي النخبة السياســـة العربـــية ومبنيا على التجربة الألمانية والإيطالية عندما قامت الوحدة في كلـــيهما وهـــددت ألمانـــيا أوروبا بالسيطرة عليها بعد أن كانت الولايات الجرمانية ممزقه فقادت بروسيا حملة الوحدة الألمانية؟

وإذا نظـــرنا إلـــى حرب ١٩٦٧ وبعض النظر عما قبل حولها، فهي تخطيط إســـتراتيجي لإحـــباط دور نقطة الارتكاز الجغرافي العربي لإضعافه وإبعاده عن نطاقه العربي الآسيوي أو الجناح الغربي الأفريقي.

أعـــاد هـــنري كسنجر الاعتبار للجيوبولتيكا الألمانية بعد أن حلت عليها النقمة بأنها سبب الحرب العالمية الثانية ويعتبر كسينجر بحق الجنرال هوسهوفر الأمريكي وكـــان متأثرا بمترنيخ النمسا وزير خارجية النمسا وسياسته في مؤتمر فينا 1815 وسياســـة تـــوازن القوى ولذا عندما تولى منصب مستشار الرئيس الأمريكي للأمن القومـــي في عهد نيكسون ثم وزيرا للخارجية الأمريكي وضع نصب عينه إخراج الولايـــات المـــتحدة من مستنقع فيتنام ثم فتح قنوات دبلوماسية مع الصين الشعبية والتركيز على إستراتيجية توازن القوى لمواجهة الاتحاد السوفيتي.

وكان نيكسون وبإيعاز من هنري كسينجر قد تبني إستراتيجية للحرب بالوكالة Proxy Forces حســـب مـــبدأ نيكسون وفي الشرق الأوسط اعتبر إيران شرطي

الخليج العربي في عهد الشاه، ولكن بحسه الجيوبولتيكي كان ينظر إلى نقطة ارتكاز الجغرافــي العربي 'ارض الكنانه' فقد كانت سياسة مصر قائمة على عدم الانحياز واقــرب للاتحـــاد السوفيتي في التعاون السياسي وخاصة بعد حرب ١٩٦٧ ولذلك كـــان الهـــدف الإستراتيجي لكسينجر إبعاد نقطة الارتكاز عن الاتحاد السوفيتي ثم جـــرها إلـــى الجانـــب الغربي فكانت سياسة الخطوة خطوة وخروج السوفيت قبيل حرب أكتوبر ١٩٧٣ نقطة البداية في الإستراتيجية الإسرائيلية الأمريكية في احتواء خطر نقطة الارتكاز الجغرافي على إسرائيل باعتبار اكبر قوة عربية وتاريخها في جميع الفترات التاريخية يثبت ذلك وهذا ما تحقق فيما بعد تراجع الدور العربي بعد مصـــر دوليا وإقليميا وفي عدم الانحياز وفي منظمة الوحدة الأفريقية بعد أن كانت مركز ثقل عدم الانحياز وأفريقيا؟

أما بالنسبة للقلب العربي كما سماه هملتون كما ذكرنا سابقا فان القلب العربي الآســيوي كان قد وقف ضد اجتياح الثورة الإيرانية إلى منطقة الخليج العربي فقد اســتطاع العـــراق سواء بقرار سياسي داخلي مستقل أم بإيعاز من إدارة كارتر أن تدخـــل الحـــرب لاحتواء الثورة الإيرانية وتأثيراتها ورغم الأنفاق العسكري للدول البترولـــية فأنها لولا قوة القلب لم تستطيع أن توقف الزحف الثوري الذي كان في عـــنفوانه ولكن بعد نهاية الحرب العراقية الإيرانية ١٩٨٨ كان هو الخطر المتمثل الـــذي ســـوف يهدد المصالح الإسرائيلية والأمريكية وهذا ما صدر في التقرير عن مركـــز الدراســـات الإستراتيجية التابع لوزارة الدفاع الأمريكية قبيل غزو الكويت تحت عنوان Iraq Power and U.S. Security in the Middle East 1990 وكان لا بـــد من القفز على القلب بعد احتواء نقطة الارتكاز الجغرافي، ونشهد الآن تفتيت القلب وإنهاء فكرة القومية من القاموس السياسي العربي، بحل حزب البعث والجيش العراقي وطمس الهوية العربية وهذا تماما ما اتفق عليه في إستراتيجية إسرائيل في الثمانيـــنات ١٩٨٢ ثم التقرير الإستراتيجي الذي تم تقديمه عام ١٩٩٦ إلى نتنياهو تحت عنوان استراتيجية إسرائيل عام ٢٠٠٠ ؟

فالـــتقرير الأول حـــول إستراتيجية إسرائيل ١٩٨٢ فهو يؤكد طرحه على تقسيم المـــنطقة العربـــية إلى كانتونات سياسية وعلى رأسها العراق إلى ثلاث دويلات اما تقريـــر ١٩٩٦ فانـــه يؤكد صراحة على إنهاء فكرة القومية العربية باعتبارها خطر على التوازن الإقليمي وعلى مستقبل إسرائيل كما كانت فكرة القومية قوة وراء بروز

عبد الناصر وشعبيته في العالم العربي والدور القيادي لنقطة الارتكاز الجغرافي فانه لا بد من الانتهاء كليا من هذه الفكرة العقدية في منطقة القلب العربي الإسلامي.

مستقبل النظام الإقليمي العربي :

إن غياب نظام أمني عربي أدى إلى تفكك أمني في المنطقة العربية، وأن عقد اتفاقات أمنية ثنائية كما أشرنا أو تكتلات من خارج المنطقة أدت إلى توتر ونزاع بين الدول العربية وزيادة الإنفاق العسكري مما انعكس سلبا على واقع الأمن القومي العربي وعدم استقراره.

أن العالم العربي يملك طاقات البشرية والموارد الاقتصادية والموقع الإستراتيجي الذي يجعله يلعب دولاً فعالا في النظام الدولي في حاله استغلال هذه الطاقات والموارد.

إن الاستراتيجية الأمريكية الحالية تهدف إلى إيجاد صراع داخلي فى المنطقة العربية تحت شعار الإسلام المعتدل والمتطرف، وقد تنسحب وتترك القوى القطرية تواجه التحديات الداخلية.

لقد علمنا تاريخ أوروبا قول تشرتشل في الحرب العالمية الثانية عندما تحالف مع ستالين ضد هتلر، قولته المشهورة "أنني أتحالف مع الشيطان ضد هتلر" وفي حالة التهديد المستمر للمصالح الأمريكية والغربية فقد تصل إلى نتيجة تتفق مع السياق التاريخي عبر العصور وهو التحالف مع الطرف القوي حتى وإن اختلف معه الذي يثبت قدرته على التحدي والوجود.

والخلاصة، أن إعادة فعالية النظام العربي المتدهور وأمنه في النظام الدولي مرتبط من خلال استقراء التاريخ وكما ذكرنا ماكيندر في أوروبا وجزيرة العالم، فالعالم العربي قد تكون قوة محركة للتاريخ إذا أخذنا قراءة التاريخ، بأن الارتكاز الجغرافي والقلب الأسيوي العربي هما مفتاح السيطرة على الشرق الأوسط ومن يسيطر عليهما يستطيع أن يتحكم في الشرق الأوسط الكبير وبالتالي يسيطر على جزيرة العالم، العالم القديم، وبالتالي يعيد دوره داخل النظام الدولي.

ولم تعد مقولة صموئيل هنتنجتون عن صدام الحضارات مجرد مسألة أكاديمية وإنما تحولت إلى استراتيجية كونية تتبناها أمريكا ومن ورائها العالم الغربي كله بمؤسساته ورموزه.

وكما ركز هنتجتون على أن الإسلام هو الحضارة المُرشحة لأن يصطدم الغرب بها فإن إعلان أمريكا الحرب على أفغانستان يوم السادس من أكتوبر ٢٠٠١ جاء ليُعلن أنها حرب على الإسلام. وإذا كانت نقطة البداية من كابول فإن أمريكا تبحث عن مناطق حيوية جديدة لتشملها الحرب وبالطبع فهي مناطق في العالم الإسلامي وكما قال بوش: إن الصبر سيكون مبدأ هذه الحرب وإذا كان التركيز اليوم على أفغانستان ثم العراق فإن المعركة أوسع وعلى كل بلد أن يختار ولا وجود للحياد في هذه الحرب، وحين نصف هذه الحرب بالعالمية الثالثة فليس هذا من قبيل الوصف الأدبي ولكنه تعبير عن حقيقة ما يجري على الأرض.فقبل بداية إعلان الحرب على حكومة طالبان في أفغانستان حشدت أمريكا جهودًا هائلة لتكوين ما زعمت أنه تحالف دولي ضد الإرهاب وبلغت الدول المُشاركة في هذا التحالف حوالي ٦٠ دولة تتعاون في إطار أمني وسياسي ومخابراتي كما شاركت أكثر من ٣٠ دولة في اتخاذ إجراءات اقتصادية ضد ما أطلقت عليه أمريكا الشبكات الاقتصادية للمجموعات التي تزعم أنها إرهابية وفي نفس الوقت بلغت المُقاتلات الأمريكية المشتركة في الحرب حوالي ٥٠٠ مقاتلة وأربع مجموعات من حاملات الطائرات تدعمها أكثر من ١٥٠ سفينة حربية بينها عشر بوارج ومُدمرات مسلحة بصواريخ كروز وتوما هوك، ثم حشدت من القوات البرية والخاصة ومُشاة الأسطول ما يتعدى حجمه ٢٥٠ ألف رجل يعني أننا فعلاً أمام حرب عالمية ثالثة وسوف تتملكنا الدهشة حين نعلم أن حجم قوات طالبان التي تتحرك كل هذه الجيوش من أجل محاربتها هي عبارة عن أسلحة قديمة لا تبلغ معشار ما حشدته أمريكا وهو ما جعل المراقبين والمُحللين يعتقدون أن الحرب العالمية الثالثة لا تقصد أفغانستان وحدها ولكنها حملة عسكرية جديدة على العالم الإسلامي الانتصار فيها من وجهة النظر الأمريكية تحقق على الأرض أيضًا شعار نهاية التاريخ الذي أعلنه فوكوياما عقب تحقيق النصر بلا حرب على الاتحاد السوفيتي القديم. ومن منظور التحليل النفسي فإن التصريحات التي أطلقها بوش، وباراك، وتشيني، وبلير وغيرهم من تأكيد التفرقة بين الإسلام والإرهاب هي جزء من حيل الدفاع لإخفاء الحقيقة التي تنشب أظافرها في ضمائرهم وهي أن المقصود بالحرب هو الإسلام وأن الإرهاب ليس سوى عنوان أو الرمز الكودي لبيان أن الحرب على أفغانستان هي حرب عالمية على الإسلام وفي الواقع فإن الإعلام في أمريكا

والغرب الذي يبدو أكثر اندفاعًا وأقل تَحفظًا من الساسة يكشف هذه الحقيقة بوضوح فمـثلاً رئـيس تحريـر انترناشيونال هيرالدتريبيون يتحدث عن أن النظام العالمي الجديد هو صدام الحضارات وأنه لابد من وضع حد للوهم الذي يفرق بين الإسلام كديـن وحضـارة وبين الإرهاب. إن إحدى المجلات الغربية المُتخصصة وضعت علـى غلافها هناك شيء خاطئ في الإسلام. ومن ثم فالحقيقة أنه لا يمكن تجاهل حقـيقة أن الحرب العالمية الثالثة للغرب النصراني على الشرق المسلم هي حرب دينـية ثقافـية وحضارية وهذه الحرب مطلوب فيها رقبة المسلمين أولئك الذين لا يزالون يتحدثون عن التَمسك بالإسلام في مواجهة طوفان الهيمنة للحضارة الغربية الطاغية.

ولمن يريد أن يعرف لمن الحكم اليوم فليقرأ هذه السطور من جديد!!

المراجـــع

قامة المراجع

١ - القرآن الكريم.

٢ - التوراة.

٣ - الإنجيل.

٤ - إبراهيم أبو خزام، علاقة الحضارات، مجلة دراسات، العدد ٢٠، لسنة ٢٠٠٥

٥ - اتش جى ويلز: موجز تاريخ العالم، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩

٦ - أحمــد ســعيد ســعيدان: مقدمة لتاريخ الفكر العلمى فى الإسلام، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١٣١ لسنة ١٩٨٨

٧ - أحمــد سليم البرصان: الشرق الأوسط: إعادة للتفكير، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٦٤، أبريل ٢٠٠٦.

٨ - أحمــد عــياش: صدام الحضارات" وسيناريو الحرب العالمية المقبلة، جريدة النهار اللبنانية، عدد أكتوبر ٢٠٠١

٩ - أحمد فؤاد باشا: التراث العلمى للحضارة الإسلامية، ط١، دار المعارف ١٩٨٣.

١٠- ادوارد ســعيد: الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، الطبعة السابعة، ٢٠٠٥

١١- اسحق عبيد: محاكم التفتيش "نشأتها ونشاطها" كلية الآداب ١٩٨٥.

١٢- السيد عبد العزيز سالم: دائرة معارف الشعب، عدد ٦١ لسنة ١٩٥٩.

١٣- الطاهــر أحمد مكى: دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة، ط٢، دار المعارف ١٩٨٣.

١٤- الكســندر ستيبتشفيتش: تاريخ الكتاب، القسم الأول، ترجمة محمد الأرناؤوط، سلسلة عالم المعرفة ١٩٩٣ العدد ١٦٩.

١٥- أنــور محمود زناتى: زيارة جديدة للاستشراق، ط١، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٦.

١٦- برتــراند راســل: جــرائم الحــرب فى فيتنام، ترجمة يحي عويس، الشركة المتحدة ١٩٧٠.

١٧- توبى هف: فجر العلم الحديث، ترجمة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، أغسطس ٢٠٠٠سنة، عدد ٢٦٠.
١٨- توماش ماستناك: السلام الصليبى، ترجمة بشير السباعى، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، رقم ٦٢٠.
١٩- جان شارل سورنيا: تاريخ الطب، ترجمة ابراهيم البجلاتى، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٢٨١، مايو ٢٠٠٢.
٢٠- جمال حمدان: إستراتيجية الاستعمار والتحرير، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩.
٢١- جمعة الجندى: ملامح العنف والإرهاب الصليبى فى بلاد الشام، مكتبة مدبولى، ط١، ٢٠٠٦.
٢٢- جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٢٣- حسان حلاق: عندما كانت صقلية معبراً للتفاعل الحضارى بين العرب والغرب، مجلة العربى، العدد ٥٣١ فبراير سنة ٢٠٠٣م.
٢٤- حسين مؤنس: قرطبة، درة مدن أوروبا في العصور الوسطى، مجلة العربي، عدد ٩٥، أكتوبر ١٩٦٦.
٢٥- خليل الصغير: ليتذكّر المسلمون نعمة الاستعمار!، مجلة مدارات غربية (لبنان) العدد ٤ - الأحد، ديسمبر ٢٠٠٤.
٢٦- دونالد هيل: العلوم والهندسة فى الحضارة الإسلامية، ترجمة: أحمد فؤاد باشا، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٣٠٥، يوليو، ٢٠٠٤.
٢٧- رضوان السيد: مجلة الفكر العربي، العدد ٣١.
٢٨- ريلى سميث: الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة محمد فتحى الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٩.
٢٩- ساسى سالم الحاج: نقد الخطاب الاستشراقي، ج١، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢.
٣٠- سعيد أيوب: المسيح الدجال، الفتح للإعلام العربى.
٣١- سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى (جزءان) مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٦

٣٢- أضواء جديدة على الحروب الصليبية، المكتبة الثقافية، عدد ١١٨ أكتوبر، سنة ١٩٦٤.
٣٣- الحركة الصليبية (جزءان)، أوربا العصور الوسطي، مكتبة الانجلو المصرية.
٣٤- سليمان إبراهيم العسكرى: تربية العنصرية وازدواجية المعايير، مجلة العربى، عدد ٥٧٠ سنة ٢٠٠٦.
٣٥- شاخت وبوزورث: تراث الإسلام (الجزء الثانى) ترجمة حسين مؤنس وإحسان صدقى، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٢٣٤، الكويت أغسطس ١٩٧٨م.
٣٦- شكرى النجار: لم الاهتمام بالاستشراق"، مجلة الفكر العربي، العدد ٣١.
٣٧- شوقي أبو خليل: الإسقاط فى مناهج المستشرقين والمبشرين، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت ١٩٩٥.
٣٨- صمويل هنتنجتون - صدام الحضارات (إعادة صنع النظام العالمي) ترجمة طلعت الشايب منشورات - سطور - مصر - ١٩٩٨.
٣٩- عبد الجبار الرفاعي: متابعات ثقافية، مؤسسة المرتضى العالمية بيروت/ ١٤١٤.
٤٠- عبد الحميد البطريق: التيارات السياسية المعاصرة، دار الفكر العربى، ١٩٩٩.
٤١- عبد الرحمن بدوى، دور العرب في تكوين الفكر الغربي، دار الآداب - بيروت.
٤٢- عبد العزيز بن عثمان التويجري: صراع الحضارات فى المفهوم الإسلامى، من منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.
٤٣- عبد العزيز محمد الشناوى: أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ج١، ط٣، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٧.
٤٤- عبد الله محمد الأمين: الاستشراق في السيرة النبوية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٧.
٤٥- عبد المعطى شعراوى: أساطير إغريقية (الآلهة الكبرى) مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٥.

٤٦- علــى عــبد اللطــيف: الجالية الإيطالية فى مصر، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٠.

٤٧- غالب علي جميل: صحيفة ٢٦ سبتمبر، العدد رقم ١١٧٠.

٤٨- فيليــب تــايلور: قصف العقول، ترجمة سامى خشبة، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٥٦ لسنة ٢٠٠٠م.

٤٩- مــالك بن نبي: انتاج المستشرقين وأثره في الفكر الاسلامي الحديث، مطبعة دار البيان ١٩٧٠.

٥٠- محمد البهي: الفكر الإسلامي في تطوره، مكتبة وهبة، القاهرة.

٥١- محمــد الحــبش: العــالم الإســلامي والغــرب، قراءة في المشهد الثقافي، والحضاري، مؤتمر الإسلام والغرب في عالم متغير الذي انعقد في قاعة الصداقة بالخرطوم ١٢و١٣و٢٠٠٤/١/١٤.

٥٢- محمــد باقر الحسيني: مجلة آفاق عربية، السنة الرابعة العدد الأول، سبتمبر ١٩٧٨.

٥٣- محمــد محفــوظ: الإسلام، الغرب، وحوار المستقبل ، ط١، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٨.

٥٤- محمــد مفيد الشوباشى: العرب والحضارة الأوروبية، المكتبة الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥.

٥٥- محمــد كرد علي: بين المدنية العربية والأوربية "سلسلة الألف كتاب الثاني"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢.

٥٦- محمود أحمد الحفني: زرياب، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٥٧- محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٧.

٥٨- كلايــد كلوكهــون: الإنسان فى المرآه، ترجمة شاكر مصطفى سليم، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بغداد، نيويورك ١٩٦٤.

٥٩- لــيوبولدو تورتــيس بلــباس: تاريخ إسبانيا الإسلامية، ج٢، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة٢٠٠٢، رقم ٤١٢.

٦٠- نجــم عــبد الكريم "الطاغية الذي فرض على الشعب أن يأكل التبن والشعير" بجريدة الشرق الأوسط بتاريخ ١٥ابريل ٢٠٠٣، العدد ٨٩٠٤.

٦١- نجيب العقيقي: المستشرقون، دار المعارف ١٩٦٤.
٦٢- هــوارد تيرنر: العلوم عند المسلمين، ترجمة فتح الله الشيخ، المجلس الأعلى للثقافة٢٠٠٤، المشروع القومى للترجمة، عدد ٦٤٤.
٦٣- ولــيم الصـــورى: الحــروب الصليبية (أربعة أجزاء)، ترجمة حسن حبشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥.
٦٤- يوسف عز الدين: أثر تراثنا الحضاري في حضارة الغرب، مجلة النور، عدد ١٧٢، يونيو ٢٠٠٦.

الطريق إلى صدام الحضارات



هذا الكتاب

إن الإشكالية التي يطرحها موضوع "صدام الحضارات" "the clash of civilizations" ليست جديدة ، فهي مسألة تتدرج في حقيقة الأمر ضمن مرحلة معينة في مسار سياسات موغلة في القدم

إن منطق الصراع والحرب كان عبر كل الأزمنة هو المنطق السائد في الفكر العالمى والغربي بصفة خاصة ، فسادة الفكر اليوم في علم العلاقات الدولية الذين تنفذ توجيهاتهم على أرض الواقع في المؤسسات الغربية هم ورثة اتجاهات فكرية سادت عبر القرون ورسمت طريق الحرب والمؤامرة للقادة ومشعلى الحروب .

والعقيدة البراجماتية التي لا يهمها في تفسير مفهوم الحقيقة إلا ما تعلق بسياسة الأمر الواقع المنفعة والمصلحة أولاً وقبل كّل شيء –والتي تتميز بها السياسة الأمريكية– اليوم ما هي إلا تكييف عصري لمفهوم الغاية تبرر الوسيلة التي أوصى بها أصحاب مصنفات "فن الحرب"

من أمثال نيكولاس ماكيافيللى (Nicholas Machiavelli) الذي يقول : "إن الحرب هي الفن الوحيد الذي يحتاجه الأمراء" أما فولتير (Voltaire) فيرى : "أن السلام مفهوم طوباوي"

وقد لاحظ علماء النفس أن القتال والحرب يشبعان إحتياجات ممتدة الجذور عند الأفراد والمجتمعات وأنها احتياجات من المفروض أنها فطرية عند البشر وليس بالإمكان قمع هذا الدافع العدوانى ولكن بالاستطاعه ترويضه وإعادة توجيهه وتحويله صوب أنشطة أكثر اتساما بالمسالمه

والمدرسة الواقعية تذهب مذهباً مؤيداً لذلك حين تستنتج أن الصراع الدولي هو القاعدة التاريخية التي تحكم العلاقات الدولية، أما الاستقرار أو السلام فهو الظاهرة العرضية في الإنساني. إن هذه الظاهرة ليست جديدة على التاريخ الأوروبى إذن ، بل هى جزء من المتعددة الإتجاهات والمضامين و التاريخ مملوء بالنماذج الكثيرة من الصراعات الكبرى تاريخ والمسئول الأكبر فيها هو الغرب الأوربى وهو ما يستعرضه هذا الكتاب .

أنور زناتي جامعة عين


مكتبة الأنجلو المصرية
THE ANGLO-EGYPTIAN BOOKSHOP
The World of Words & Thoughts